ترجمة أسامة إسبر

2020
31.9.2019

كاتدرائيّة

ريموند كارفر

قصص

ريموند كارفر

كاتدرائيّة

ترجمة أسامة إسبر

كاتدرائية

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

كاتدرائية

تأليف: ريموند كارفر
ترجمة: أسامة إسبر
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-39-064-0

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع:MC-02-01-4817806

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
CATHEDRAL
Copyright © 1983, Raymond Carver
Copyright renewed © 1989, Tess Gallagher
All rights reserved

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

فهرس

ريشات 9
منزل شيف 35
حماية 43
المقصورة 55
شيء صغير جيّد 67
فيتامينات 99
محترس 119
القطار 155
حمّى 165
اللجام 197
كاتدرائية 221

ريشات

دعاني صديقي في العمل، بَاد، أنا وفران، لتناول العشاء. لم أكن أعرف زوجته ولم يكن يعرف فران. وهذا جعلنا متساويين. لكنّي كنت أنا وباد صديقين. أعرف أن هناك طفلًا صغيرًا في منزل باد. أظنّ أن عمره كان ثمانية أشهر حين دعاني باد إلى العشاء. إلى أين ذهبت تلك الأشهر الثمانية؟ يا للجحيم! أين مضى الوقت مذّاك؟ أذكر اليوم الذي جاء فيه باد إلى العمل حاملًا صندوقًا من السيجار. وزّع السيجار في غرفة الغداء. كان السيجار من النوع الذي يُباع في الصيدليات. دتش ماسترز. غير أنّ على كلّ سيجار لصقة حمراء وغلافاً كُتب عليه "إنه طفل!" لم أكن أدخّن السيجار، لكنّي أخذتُ واحدًا. قال باد وهو يهزّ العلبة: "خذ اثنين. أنا لا أحب السيجار أيضًا. هذه فكرتها." كان يعني زوجته، أوْلا. لم أقابل قط زوجة باد، لكنّي سمعتُ مرة صوتها عبر الهاتف. حدث ذلك ظهر السبت قبل دعوة العشاء، لم أكن أرغب بفعل أي شيء آنذاك، فاتصلت بباد كي أسأله إن كان يودّ القيام بأيّ شيء. رفعَت تلك المرأة السماعة وقالت: "آلو؟" فقدتُ القدرة على التعبير ولم أستطع تذكّر اسمها. زوجة باد. قال لي باد اسمها أكثر من اللازم. لكنه كان يدخل من هذه الأذن ويخرج من تلك. قالت المرأة: "آلو؟ من المتحدث؟"

كان بوسعي سماع صوت التلفزيون. ثم قالت المرأة: "من هذا؟" سمعتُ صوت طفل. "بادا!" نادت المرأة. "ماذا؟" سمعتُ باد يردّ عليها. لم أذكر اسمها أبدًا. وهكذا وضعتُ السماعة. في المرة التالية التي شاهدتُ فيها باد في العمل حرصتُ تمامًا على ألّا أقول له إنّي اتّصلت. لكنني قمت بإشارة غير مباشرة كي أجعله يذكر اسم زوجته. فقال: "أوْلا." فقلت لنفسي: "أوْلا، أوْلا."

قال باد في غرفة الغداء فيما يحتسي القهوة: "ليست مسألة كبيرة. فقط أربعتنا. أنت وسيّدتك، وأنا وأوْلا. لا شيء خياليًّا. تعالا حوالي السابعة. إنها تُرضع الطفل في السادسة. ستضعه في الفراش بعد ذلك، ثم سنأكل. ليس من الصعب العثور على منزلنا. لكن إليك بالخريطة." أعطاني ورقة فيها أنواع الخطوط كلّها تُشير إلى الطرق الرئيسية والفرعية، وإلى الأزقة وغيرها، بسهام تُشير إلى الأقطاب الأربعة للبوصلة. حدّد موقع منزله بحرف إكس كبير. قال: "نتطلّع إلى قدومكما." لكن فران لم تكن متحمسة.

في ذلك المساء، وفيما كنا نشاهد التلفاز، سألتُها إن كان يجب أن نأخذ معنا شيئًا إلى منزل باد.

قالت فران: "مثل ماذا؟ هل طلب منك إحضار أي شيء؟ كيف أعرف المناسب من غيره؟ لا أدري." هزّت كتفيها وخصّتْني بتلك النظرة. سمعتني أتحدث من قبل عن موضوع باد. لكنها لم تكن تعرفه أو مهتمّة بمعرفته. قالت: "نستطيع أن نأخذ زجاجة نبيذ. لكن لا يهمني الأمر. لماذا لا تأخذ زجاجة نبيذ؟" هزّت رأسها. تأرجح شعرها الطويل إلى الخلف وفوق كتفيها، كأنّها تقول: وما حاجتنا إلى الآخرين؟ فلدينا بعضنا. قلت: "تعالي هنا." اقتربت قليلًا بحيث أستطيع أن أضمّها. إن فران امرأة جميلة. لها ذلك الشعر الأشقر الذي يتدلى على ظهرها. التقطتُ خصلة من شعرها

وشممْتُها. لففتُ خصلةً من شعرها على يدي. تركتْني أضمّها. وضعتُ وجهي مباشرة في شعرها وضممْتها أكثر.

أحيانًا، حين يعترض شعرها طريقها، تلتقطه وتدفعه فوق كتفيها. كانت تجنّ من الأمر. تقول: "هذا الشعر، إنّه مُشكلة ولا شيء آخر".

تعمل فران في مصنع للأجبان والألبان وعليها أن ترفع شعرها للأعلى حين تذهب إلى العمل. عليها أن تغسله كلّ ليلة وتُعمل فيه الفرشاة حين نجلس أمام التلفاز. تهدّد بقصّه بين فينة وأخرى. لكنّي لا أعتقد أنها ستفعل. تعرف أنّي أحبّه كثيرًا، أنّي مجنون به. قلتُ لها إنّي وقعتُ في غرامها بسبب شعرها. أخبرتُها إنّي يمكن أن أتوقّف عن حبّها إذا قصّته. أحيانًا أناديها "أيّتها السويديّة." إذ يُمكن أن تُعدّ سويديّةً بسبب شعرها. حين نكون معًا في المساء، وبينما تمشّط شعرها بالفرشاة، نشرع في تمنّي الحصول على الأشياء التي لا نملكها. تمنّينا امتلاك سيارة جديدة، تلك إحدى أمانينا. وتمنّينا لو كان بوسعنا أن نمضي أسبوعين في كندا. لكن الشيء الوحيد الذي لم نتمنّاه هو الأطفال. قلنا لبعضنا ربما في وقت ما. لكننا كنا ننتظر آنذاك. اعتقدنا أنه يمكن أن نواصل الانتظار. نذهب في بعض الليالي كي نشاهد فيلمًا، وفي ليالٍ أخرى نبقى في المنزل ونشاهد التلفاز فقط. أحيانًا تخبز فران لي طعامًا في الفرن، ونأكله كلّه في جلسة واحدة.

قلتُ: "ربما لا يشربان الكحول".

قالت فران: "خذ زجاجة نبيذ بأيّة حال. إذا لم يشرباها، شربناها نحن".

قلت: "أبيض أم أحمر؟"

قالت دون أن تخصّني بأي انتباه: "سنأخذ حلويات. لكن لا أكترث إن لم نأخذ أي شيء إطلاقًا. هذا العرضُ هو عرضك. لنقم بالتوصّل إلى حلّ،

أو إذا شئت فأنا لا أريد الذهاب. أستطيع أن أعدّ كعك القهوة الدائري من التوت. أو ربما بعض الكب كيك."

قلتُ: "سيُعدّون الحلوى. أنت لا تدعين الناس إلى العشاء بدون إعداد حلوى".

قالت: "ربما يعدّون فطائر الأرز، أو الجيل، أو شيئًا ما لا نحبّه. لا أحمل أدنى فكرة عن تلك المرأة. كيف سنعرف ما سيكون لديها؟ ماذا لو قدّمت لنا الجيل؟" هزّت فران رأسها. هززتُ كتفيّ. إنها على حقّ. قالت: "خذْ السيجارين القديمين اللذين قدمهما لك بحيث تستطيع أنت وهو الذهاب إلى الردهة بعد العشاء لتدخنا وتشربا النبيذ، أو أي شيء يشربه الناس في الأفلام".

قلت: "حسنًا، سنأخذ أنفسنا فحسب".

قالت فران: "سنأخذ رغيفًا من الخبز الذي أخبزه أنا".

كان باد وأوْلا يعيشان على بعد عشرين ميلًا أو ما يقارب ذلك من البلدة. عشنا في تلك البلدة ثلاث سنوات، لكن للأسف لم أقم أنا وفران بجولة في السيارة خلال البلاد لمجرد المتعة. إن القيادة في تلك الطرق الملتفّة الصغيرة ممتعة. كان المساء في أوّله، والجو جميل ودافئ. رأينا المراعي، والأسيجة الخشبية، والبقرات الحلوب تتحرك ببطء نحو الأهراء القديمة. شاهدنا شحارير بأجنحة حمراء على الأسيجة، وحمامات تدور حول أهراء تبن. ثمة حدائق وأزهار برية متفتّحة ومنازل صغيرة متوضّعة خلف الطريق. قلتُ: "أتمنّى لو أنّ لنا منزلًا هنا." كانت فكرة خيالية فحسب، رغبة أخرى لن ترقى إلى أي شيء. لم تجب فران. كانت مشغولة بالنظر إلى خريطة باد. وصلنا إلى موقف الطرق الأربعة الذي علّمه. انعطفنا يمينًا كما قالت الخريطة وسقنا بالضبط ثلاثة أميال

وثلاثة أعشار الميل. في الجانب الأيسر من الطريق، رأيتُ حقل ذرة، وصندوق بريد، ودربًا خاصًا مفروشًا بالحصى. في نهاية الدرب، وبين الشجيرات، توضع منزل بشرفة أمامية. كانت هناك مدخنة فوق المنزل. لكن الفصل صيف، ولهذا ما من دخان يتصاعد منها. لكنّي اعتقدتُ أنها كلها تشكل صورة جميلة، وقلتُ ذلك لفران.

قالت: "إنها العِصيّ التي هناك".

انعطفت في الدرب. الذرة مرتفعة على جانبيه. الذرة أعلى من السيارة. بوسعي سماع الحصى تنسحق تحت العجلات. حين اقتربنا من المنزل شاهدنا حديقة بأشياء خضراء بحجم كرات البيسبول تتدلى من الدالية.

قلت: "ما هذا؟"

قالت: "وكيف أعرف؟ ربما كوسا. لا أعرف".

قلت: "هيّا يا فران، استرخي".

لم تقل أيّ شيء. شدّت شفتها السفلى ثمّ أرختْها. أطفأت المذياع حين اقتربنا من المنزل.

انتصبت أرجوحة طفل في الفناء الأمامي وتناثرت بعض الألعاب في الردهة. ضغطتُ على المكابح أمامها وأوقفت السيارة. آنذاك سمعنا زعيقه الكريه. كان هناك طفل في المنزل، لكن تلك الصيحة بدت صاخبة جدًا بحيث لم تكن لطفل.

قالت فران: "ما هذا الصوت؟"

ثمّ رفرف شيء كبير كالغراب بصوت ثقيل هابطًا من إحدى الأشجار ووقف أمام السيارة تمامًا. أدار عنقه الطويل نحو السيارة، ورفع رأسه، ونظر إلينا.

قلت: "اللعنة." جلستُ هناك ويداي على المقود وحدّقت في الشيء أمامي.

قالت فران: "هل تصدّق هذا؟ لم أرَ واحدًا حقيقيًّا من قبل!"
عرفنا أنّه طاووس، لكننا لم نقل الكلمة بصوت مرتفع. رفع الطائر رأسه إلى الأعلى وأصدر تلك الصّيحة الحادة مرّة ثانية. نفخ نفسه وبدا أكبر بمرتين مما كان عليه حين هبط.
قلتُ ثانية: "اللعنة،" بقينا حيث كنّا في السيارة.
تحرّك الطائر إلى الأمام قليلًا. ثم أدار رأسه جانبًا ورفع نفسه. أبقى عينه المتألقة الوحشية علينا. كان ذيله مرفوعًا، كمروحة كبيرة، ينطوي بتواتر نحو الداخل والخارج. ألوان قوس قزح جميعها لمعَت في ذلك الذيل.
قالت فران بهدوء: "يا إلهي." حرّكت يدها إلى ركبتي.
قلت: "اللعنة،" لم يكن هناك شيء آخر لقوله.
أصدر الطائر صوت العويل الغريب ذاك مرة أخرى، مطّه أكثر وأطال من أمَده. لو كان شيئًا سمعته في وقت متأخر من الليل وللمرة الأولى لاعتقدتُ أنه صوت شخص ما يحتضر، أو شيء وحشيّ وخطير.

فُتح الباب الأمامي وخرج باد إلى الردهة. كان يزرّر قميصه. شعره مبلول، وبدا كأنه خرج لتوّه من الحمام.
"اخرس يا جوي،" قال للطاووس. صفّق بيديه على الطائر، فتراجع قليلًا إلى الخلف. "يكفي الآن! أجل، اخرس! اخرس أيها الشيطان العجوز!"
نزل باد الدرج. كان يرتدي اللباس الذي يرتديه دومًا في العمل والمؤلف من بنطال جينز أزرق، وقميص من القماش القطني. كنت أرتدي بنطالي الفضفاض وقميصًا رياضيًّا قصير الكمّين وأنتعل حذائي الجلدي المسطّح الجيّد. حين رأيت ما كان باد يرتديه، لم أشعر بالراحة كوني أرتدي ثيابًا جديدة.

"أنا سعيد لقدومكما!" قال باد حين اقترب من السيارة. "تفضّلا بالدخول."

ترجّلتُ مع فران من السيارة. ابتعد الطاووس قليلاً، محرّكًا رأسه الذي بدا وضيعًا إلى هذه الجهة أو تلك. كنّا حريصين على المحافظة على بعض المسافة بيننا وبينه.

قال لي باد: "هل واجهتَ مشكلة في العثور على المنزل؟" لم ينظر إلى فران. كان ينتظرني أن أعرّفه عليها.

قلت: "إرشادات جيّدة. باد، هذه فران. فران، هذا باد. حدّثتها عنك كثيرًا يا باد."

ضحك وتصافحا. فران أطول من باد. اضطرّ باد أن ينظر نحو الأعلى.

قالت فران: "إنه يتحدث عنك." سحبتْ يدها. "لا يتوقف عن الحديث عنك. إنك الشخص الوحيد الذي يتحدث عنه. أشعر كأنّي أعرفك منذ زمن بعيد." كانت تراقب الطاووس. تحرّك مُقتربًا من الرّدهة.

"إنه صديقي. ينبغي أن يتحدث عني!" قال باد ذلك ثم ابتسم وقرص ذراعي قرصة خفيفة.

واصلت فران حمل رغيف الخبز. لم تعرف ما تفعل به. أعطته لباد. "أحضرنا لك شيئًا."

أخذ باد الرغيف. قَلَبَهُ ونظر إليه كما لو أنه أوّل رغيف يراه في حياته. "هذا لطف منك،" قال، ثم رفع الرغيف إلى أنفه وشمّه.

قلتُ لباد: "فران هي من خبزَ الرغيف."

هزّ باد رأسه ثم قال: "لندخل ونقابل الزوجة والأم."

أكيد أنه كان يتحدث عن أوْلا. أوْلا هي الأم الوحيدة الموجودة. قال لي باد إن أمه توفيّت وإنّ والده رحل حين كان طفلًا.

ركض الطاووس أمامنا، ثم قفز إلى الردهة حين فتح باد الباب. حاول دخول المنزل.

"آه،" قالت فران حين ضغط الطاووس على ساقها.

قال باد: "اللعنة يا جوي." ضرب الطائر بإبهامه على قمة رأسه. تراجع الطاووس في الردهة وهزّ نفسه. خشخشت ريشاته حين هزّ نفسه. وحين كان باد على وشك أن يرفسه تراجع الطاووس أكثر. ثم أمسك باد الباب لنا. "إنها تُدخل هذا الشيء اللعين إلى المنزل. لن يمضي وقت طويل حتى يرغب في الأكل على الطاولة اللعينة وينام في السرير اللعين."

توقفّت فران تمامًا عند الباب. نظرت إلى الخلف نحو حقل الذرة وقالت: "لديك مكان جميل هنا." كان باد ما يزال يمسك الباب. ثم أردفت: "أليس كذلك يا جاك؟"

قلت: "هذا صحيح." فاجأني سماعها تقول ذلك.

ما زال باد ممسكًا الباب حين قال: "إن مكانًا كهذا لا يستحق كلّ هذا المديح دائمًا،" ثمّ قام بحركة تهديد نحو الطاووس، "يُبقيك مشغولًا، لا توجد لحظة بليدة واحدة" ثم قال: "هيّا إلى الداخل، يا قوم."

قالت: "إيه يا باد، ما الذي ينمو هناك؟"

قال باد: "البندورة الخاصة بهم."

"إذًا ثمّة مزارع هنا!" قالت فران وهزّت رأسها.

ضحك باد. دخلنا. كانت تلك المرأة الصغيرة الممتلئة بشعرها المرفوع على شكل كعكة تنتظرنا في غرفة الجلوس. يداها مطويتان فوق ردائها، وخداها محمرّان.ظننت في البداية أن أنفاسها انقطعت، أو ربما غاضبة من شيء ما. نظرتْ إليَّ نظرة خاطفة، ثم انتقلت عيناها إلى فران. لم تكن نظرة غير ودودة، بل تنظر فحسب. حدّقت في فران وتواصَل تورّد خدّيها.

قال باد: "أوّلا، هذه فران. وهذا صديقي جاك. يا قوم، هذه أوّلا." ثمّ أعطاها رغيف الخبز.

"ما هذا؟ آه إنه خبز مصنوع في المنزل. حسناً، شكرًا. اجلسا في أي مكان. البيت بيتكما. باد، لماذا لا تسألهما إن كانا يودّان تناول كأس. ثمة شيء على الموقد يجب أن أعتني به فورًا،" قالت أوّلا ذلك وعادت إلى المطبخ مع الخبز.

قال باد: "اجلسا." جلستُ أنا وفران على الأريكة. أخرجتُ علبة سجائري. "ها هنا منفضة،" قال باد: "استخدم هذه" وتناول شيئًا ثقيلًا من فوق التلفاز ووضعه على الطاولة المنخفضة أمامي. كانت واحدة من تلك المنافض الزجاجية التي صُنعتْ لتبدو كبجعة. أشعلتُ سيجارتي ورميتُ عود الثقاب من الفتحة في ظهر البجعة. راقبتُ خيط دخان نحيلًا يندفع من البجعة.

كان التلفاز الملوّن يدور، وهكذا نظرنا إليه لدقيقة. على الشاشة، كانت سيارات معدّلة للسباق تدور في مسار، فيما المذيع يتحدّث بصوت جدّي. لكن بدا كأنه يكبح بعض الإثارة أيضًا. قال المذيع: "ما نزال ننتظر الحصول على التأكيد الرسمي".

قال باد: "هل تريد أن تشاهد هذا؟" كان ما يزال واقفًا. قلت إن هذا لا يهمّني. ولمَ يهمّني؟ هزّت فران كتفيها كأنّها تقول: لا فرق. كان النهار قد انتهى بأية حال.

قال باد: "لم يبق إلا عشرين دورة. انتهت تقريبًا الآن. حدث اصطدام كبير باكرًا حطّم نصف دزينة من السيارات. تأذى بعض السائقين. لم يصرّحوا بعد مدى سوء الوضع."

قلت: "اتركه، لنشاهد هذا."

قالت فران: "ربما ستنفجر إحدى تلك السيارات الملعونة أمامنا مباشرة. أو ربما سيصدم أحدهم المدرج ويدهس الشخص الذي يبيع السجق الرخيص،" أمسكت شعرة بين أصابعها وأبقت عينيها مثبّتتين على الشاشة.

نظر باد إلى فران كي يتبين إن كانت تمزح. "ذلك العمل الآخر، ذلك الاصطدام الكبير، كان شيئًا مهمًا. قاد شيء إلى آخر. السيارات، أجزاء السيارات، البشر في جميع أنحاء المكان. حسناً، ماذا تريدان أن أقدم لكما؟ لدينا البيرة، وثمة زجاجة أود كراو."

قلت لباد: "ما الذي تشربه؟"

قال باد: "البيرة. إنها جيّدة وباردة".

قلت: "سأتناول البيرة إذن".

قالت فران: "سأتناول بعض تلك الأولد كراو والقليل من الماء في كأس طويل من فضلك. مع بعض الثلج. شكرًا يا باد."

قال باد: "حسنٌ." ألقى نظرة أخرى على التلفاز ثم ذهب إلى المطبخ.

وكزتْني فران وأومأتْ برأسها نحو التلفاز. همسَت: "انظر ماذا يوجد فوقه. هل ترى ما أراه؟" نظرتُ إلى حيث كانت تنظر. هناك أصيص رقيق أحمر وُضعت فيه بعض أزهار الأقحوان من الحديقة. إلى جانب الأصيص، على الغطاء، قالب أسنان قديم من الجصّ الفرنسي للأسنان الأكثر اعوجاجًا وتعرّجًا في العالم. لم يكن هناك شفتان على الشيء الكريه المنظر، ولا فكّ أيضًا، فقط تلك الأسنان الجصّية القديمة المكتظّة في شيء يشبه اللثّة الصفراء الكثيفة.

في هذه اللحظة دخلت أولا حاملة علبة من المكسّرات المنوّعة وزجاجة

من البيرة الحلوة. كانت قد نزعت مئزرها الآن. وضعت علبة المكسرات على الطاولة الصغيرة قرب البجعة. قالت: "تفضّلا. سيُحضر باد لكما المشروب." احمرّ وجه أوْلا ثانية حين قالتْ هذا. جلستْ على كرسيٍّ هزاز قديم مصنوع من القصب وحرّكته. شربت من بيرتها الحلوة ونظرت إلى التلفاز. عاد باد حاملًا صينية خشبية صغيرة وضع فيها كأس ويسكي وماء لفران، وزجاجة بيرة لي، إلى جانب زجاجة البيرة خاصّته.

سألني: "هل تريد كأسًا؟"

هززتُ رأسي. لكزني على الركبة والتفت إلى فران.

أخذتْ كأسها من باد وقالتْ: "شكرًا." انتقلتْ عيناها إلى الأسنان مرة ثانية. شاهد باد أين تنظر. صخبت السيارات وهي تدور في المسار. أخذتُ كأس الجعة وركزتُ انتباهي على الشاشة. لا دخْلَ لي في الأسنان.

قال باد لفران: "هكذا بدت أسنان أوْلا قبل أن تضع المشابك. لقد اعتدتُ عليها. لكنّي أظن أنها تبدو مضحكة هناك. وفي الحقيقة لا أعرف لماذا تضعها هناك." نظر إلى أوْلا. ثم نظر إليّ وطرف بعينه. جلس في كرسيه الكبير المريح المخصّص لربّ الأسرة، ووضع ساقًا فوق أخرى. شرب من بيرته وحدق في أوْلا.

احمرّت أوْلا مرة أخرى. كانت تحمل زجاجة بيرتها الحلوة. تناولت رشفة منها. ثم قالت: "كي تذكّرني كم أدين لباد."

قالت فران: "ما ذاك؟" كانت تفتش في علبة المكسرات، وتنتقي الكاجو كي تأكله، كفّت عن ذلك ونظرت إلى أوْلا قائلة: "آسفة، لم أفهم ما قلتِه."

حدّقت فران في المرأة وانتظرت أي شيء قد تقوله.

احمرّ وجه أوْلا مجددًا. قالت: "لدي أشياء كثيرة يجب أن أكون شاكرة لها. وهذا أحد الأشياء التي أنا شاكرة لها. أحفظه هنا كي يذكرني كم

أنا مدينة لباد." شربت من بيرتها الحلوة. ثم وضعتْ الزجاجة وقالت: "لديك أسنان جميلة يا فران. لاحظتُ على الفور. لكن أسناني كانت معوجّة حين كنت طفلة." نقرت بظفرها على اثنين من أسنانها الأمامية. قالت: "إن أهلي لم يكن معهم من النقود ما يكفي لإصلاح أسناني السيّئة جدًّا. ولم يكترث زوجي الأول بمظهري. كلا، لم يكترث! لم يأبه بأي شيء سوى من أين يأتي كأس شرابه التالي. صديقه الوحيد في العالم هو زجاجة الشراب." هزّت رأسها. "ثم جاء باد وأخرجني من ذلك الجوّ السيء. وبعد أن صرنا معًا، كان أوّل شيء قاله باد هو إننا سنصلح الأسنان. هذا القالب صُنع بعد أن التقاني باد، في مناسبة زيارتي الثانية إلى الطبيب الذي يقوّم الأسنان. قبل أن نركّب المشابك."

بقي وجه أوْلا محمرًّا. نظرت إلى الصورة على الشاشة. شربت من بيرتها الحلوة ولم يبدُ أن لديها مزيدًا لتقوله.

قالت: فران "لا بدّ أن هذا المقوّم خبير." نظرتْ إلى الأسنان المثيرة للرعب على سطح التلفاز.

قالت: أوْلا "كان عظيمًا؟" استدارت في كرسيها وقالت: "أترين؟" فتحت فمها وأرتْنا الأسنان مرة أخرى، دون ذرة خجل الآن.

ذهب باد إلى جهاز التلفاز والتقط الأسنان. سار إلى أوْلا وحمل الأسنان إزاء خدّها. قال باد: "قبل وبعد."

مدّت أوْلا يدها وأخذت القالب من باد: "أتعرف شيئًا؟ أراد مقوّم الأسنان أن يحتفظ بهذا." كانت تضع القالب على قدميها وهي تتحدث. "رفضتُ رفضًا قاطعًا. قلت له إنها أسناني. فالتقط صورًا للقالب بدلًا من ذلك. قال لي إنه سينشر الصور في مجلة."

"تخيّلا أي نوع من المجلّات ستنشر تلك الصور! لا إقبالَ يُذكَر على هذا

النوع من المنشورات كما أعتقد،" قال باد، وضحكنا جميعًا.
"بعد أن أزلتُ المشابك واصلتُ وضع يدي على فمي عندما أضحك. هكذا. ما أزال أفعل هذا أحيانًا كما اعتدت. في يوم ما قال باد: تستطيعين التوقّف عن فعل هذا في أيّ وقت يا أوْلا، أنت غير مضطرّة لإخفاء أسنان جميلة كهذه، لديك أسنان جميلة الآن" قالت أوْلا ونظرت إلى باد، فغمزها. ابتسمت وأخفضت عينيها.
شربت فران من كأسها. شربتُ قليلًا من زجاجتي. لم أعرف ماذا أقول حيال هذا الأمر. ولا فران أيضًا. لكنّي كنتُ أعرف أنّ فران ستقول الكثير عنه فيما بعد.
"أوْلا، لقد اتّصلت مرة إلى هنا. رفعتِ السماعة. لكنّي أغلقتُ السماعة. ولا أعرف لماذا أغلقتها." قلتُ ذلك ثم تناولت رشفة.
"لا أذكر. متى حدث هذا؟" قالت أوْلا.
"منذ فترة."
"لا أذكر،" قالت وهزّت رأسها. داعبت قالب الأسنان الذي في حضنها بأصابعها. نظرت إلى السباق وعاودت هزّ كرسيّها.
أدارت فران عينيها إليّ. شدّت شفتها إلى الأسفل. لكنها لم تقل أي شيء.
قال باد: "حسنًا، ما الجديد أيضًا؟"
قالت أوْلا: "تناولوا بعض المكسرات. سيكون العشاء جاهزًا بعد وهلة".
أتت صيحة من غرفة في آخِر المنزل.
قالت أوْلا لباد، مقطّبة: "ليس هوا!"
قال باد: "بلى! إنه الطفل الصغير" ثم استند إلى الخلف على كرسّيه، وشاهدنا بقيّة السباق، ثلاث أو أربع دورات، دون أي صوت.
سمعنا الطفل ثانيةً، مرّة أو مرّتين، صرخات خفيفة متقطعة تأتي من

الغرفة في آخِر المنزل.
قالت أوْلا: "لا أعرف ما الخطب،" ثمّ نهضت عن كرسّيها "كلّ شيء جاهز بالنسبة لنا كي نجلس إلى المائدة. عليّ فقط أن أرفع صلصة اللحم. لكن من الأفضل أن ألقي عليها نظرة أوّلًا. لماذا لا تخرجون وتجلسون إلى المائدة؟ سأغيب دقيقة فحسب".
قالت فران: "أحبّ أن أرى الطفل".
كانت أوْلا ما تزال تحمل الأسنان. ذهبت ووضعتها على قمة التلفاز "قد يزعجه ذلك الآن" قالت، "إنه ليس معتادًا على الغرباء. انتظري كي أرى إن كنتُ أستطيع أن أجعله ينام من جديد. ثم تستطيعين أن تلقي عليه نظرة بينما هو نائم،" ثم ذهبت عبر الصالة إلى غرفة، حيث فتحتْ بابًا. دخلت وأغلقت الباب خلفها. توقّف الطفل عن البكاء.

أطفأ باد التلفاز وذهبْنا كي نجلس إلى الطاولة. تحدّثتُ معه عن العمل. أصغت فران. وكانت تطرح سؤالًا بين فينة وأخرى. لكنّي أحسستُ أنها ملّتْ، وربما متضايقة من أوْلا لأنها لم تسمح لها برؤية الطفل. تفحّصَت مطبخ أوْلا. لفّت خصلة شعر حول أصابعها وفحصت أشياء أوْلا.
عادت أوْلا إلى المطبخ وقالت: "غيّرتُ له حفاضه وأعطيته بطّته المطّاطية. ربما سيسمح لنا بتناول الطعام الآن. لكن لا تراهنوا على ذلك." رفعت غطاء مقلاة عن الفرن. سكبت صلصة حمراء في إناء ووضعته على الطاولة. نزعت أغطية آنية أخرى ونظرت كي ترى إن كان كل شيء جاهزًا. على الطاولة لحم مطبوخ وبطاطا حلوة وبطاطا مهروسة وفاصولياء بيضاء وأكواز ذرة وسلطة خضراوات. وكان رغيف خبز فران في مكان بارز قرب اللحم.

قالت أوْلا: "نسيتُ المناديل. ابدأوا. من يريد شيئًا يشربه؟ يتناول باد الحليب مع كلّ وجباته."

قلت: "الحليب جيّد بالنسبة لي."

قالت فران: "أنا أريد ماءً لكنّي أستطيع الحصول عليه. لا أريدكما أن تنشغلا بي. لديكما ما يكفي لتفعلاه." تحرّكت كما لو أنها ستنهض عن كرسيها.

قالت أوْلا: "من فضلك. أنت ضيفة. اجلسي. سأحضره لك." احمرّت ثانية.

جلسنا وأيدينا منخفضة وانتظرنا. فكّرتُ في تلك الأسنان الجصيّة. عادت أوْلا بالمناديل، وكأسين كبيرين من الحليب لي ولباد، وكأس من الماء المثلج لفران. قالت فران "شكرًا."

قالت أوْلا: "على الرّحب والسعة." ثم جلسَت. سعل باد. حنى رأسه وردّدَ بضع كلمات من صلاة المائدة. تحدّث بصوت منخفض جدًّا بحيث بالكاد سمعت الكلمات. لكنّي عرفت الفحوى: كان يشكر القوّة العليا من أجل الطعام الذي سنتناوله.

قالت أوْلا حين انتهى: "آمين."

مرّر لي باد طبق اللحم وصبّ لنفسه بعض البطاطا المهروسة. ولم يكن لدينا سوى بضع كلمات نتبادلها. ولم نقل الكثير لكن بين فترة وأخرى كان أحدنا، أنا أو باد، يقول: "إن هذا اللحم جيّد حقًّا،" أو "إن هذه الذرة الحلوة أفضل ذرة تناولتُها على الإطلاق!"

قالت أوْلا: "هذا الخبز رائع".

قالت فران وقد لانَت قليلًا: "أريد المزيد من السلطة يا أوْلا من فضلك".

"تناولْ المزيد من هذا،" قال باد وهو يمرّر إليّ طبق اللحم، أو إناء الصلصة

الحمراء.
بين فينة وأخرى، كنا نسمع الطفل يصدر ضجته. كانت أوْلا تدير رأسها كي تصغي، ثم بعد أن تقتنع أنّه مجرّد دلال، يعود انتباهها من جديد إلى طعامها.
قالت أوْلا لباد: "إن الطفل ليس على ما يرام الليلة".
قالت فران: "ما زلت أرغب في رؤيته. لدى أختي طفلة صغيرة. لكنها تعيش والطفلة في دنفر. متى سأصل إلى دنفر؟ لدي ابنة أخت لم أرها منذ زمن!" فكّرَت فران في الأمر دقيقة، ثم عادت إلى تناول الطعام.
وضعت أوْلا بعض اللحم بالشوكة في فمها وقالت: "لنأمل أنه سيعود إلى النوم".
وقال باد: "ثمة المزيد من كل شيء. تناولوا المزيد من اللحم والبطاطا الحلوة، جميعكم".
قالت فران: "لا أستطيع تناول لقمة أخرى،" وضعت شوكتها في صحنها. "هذا عظيم، لكنّي لم أعد أستطيع الأكل".
قال باد: "اتركا فراغًا. صنعتْ أوْلا فطيرة راوند."
قالت فران: "أعتقد أنّي أستطيع أن آكل قطعة منها. حين يكون الجميع مستعدين".
قلت: "أنا أيضًا." لكنّي قلت ذلك كي أبدو لبقًا. كنت أكره فطيرة الراوند منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري ومرضت منها، وكنت آكلها مع بوظة الفراولة.
أنهينا ما كان في صحوننا. ثم سمعنا ذلك الطاووس اللعين يطلق صياحه ثانية. لم يقل أحد شيئًا. ما الذي يمكن قوله؟
ثم قالت أوْلا: "إنه يريد الانضمام إلينا يا باد!"

قال باد: "حسنًا، لا يستطيع المجيء، لدينا رفقة في حال لم تلاحظي ذلك. لا يريد هؤلاء الناس طائرًا عجوزًا في المنزل. الطائر القذر وطقم الأسنان القديم! ما الذي سيظنّه الناس بنا؟" هزّ رأسه. ضحك. ضحكنا جميعًا. ضحكت فران معنا.

قالت أوْلا: "إنه ليس قذرًا يا باد. ما الذي جرى لك؟ أنت تحبّ جوي. منذ متى بدأت تدعوه قذراً؟"

قال باد: "منذ أن تبرّز على السجّادة تلك المرة. المعذرة على هذا الكلام!"

قال لفران، "لكن سأخبرك، أحيانًا ألوي رقبة ذلك الطائر. إنه لا يستحق حتى القتل، أليس كذلك يا أوْلا؟ أحيانًا، في منتصف الليل، كان يخرجني من السرير بصيحته. إنه لا يساوي نكلة، أليس كذلك يا أوْلا؟"

هزّت أوْلا رأسها على هُراء باد. حرّكت بعض الفاصولياء البيضاء في صحنها .

أرادت فران أن تعرف: "كيف حصلتم على الطاووس أوْلاً؟"

رفعت أوْلا عينها عن الصحن وقالت: "حلمت دومًا بالحصول على طاووس. منذ أن كنتُ فتاة ورأيت صورة واحد في مجلة. اعتقدت أنه أجمل شيء سبق أن رأيته. قصصتُ الصورة وعلّقتُها فوق سريري. احتفظتُ بالصورة أطول فترة ممكنة. ثم حين اشتريت أنا وباد هذا المكان، رأيت أن فرصتي سانحة. قلت: أريد طاووسًا يا باد! لكنه استسخف الفكرة".

قال باد: "أخيرًا سألتُ، وسمعتُ عن عجوز يربّي الطواويس في المقاطعة التالية. كان يسميها طيور الجنة. دفعنا مئة دولار مقابل طير الجنة ذاك،" صفع جبهته وأضاف "يا إلهي الجبار! لقد حصلت على امرأة ذات أذواق مكلفة!" وابتسم لأوْلا.

قالت أوْلا: "تعلم أن هذا غير صحيح يا باد. بالإضافة إلى كل شيء آخر، فإن جوي كلب مراقبة جيّد". ثم قالت لفران: "لا نحتاج إلى كلب حراسة مع جوي. يستطيع أن يسمع أي شيء".

قال باد: "إذا ساءت الأحوال كما هو محتمل، فسأضع جوي في إناء بريشه وكل ما فيه".

"هذا ليس مسليًا يا باد!" قالت أوْلا، لكنها ضحكت وحصلنا على نظرة جيّدة إلى أسنانها ثانية.

بدأ الطفل يبكي مرة أخرى. كان بكاء حادّاً هذه المرّة. وضعت أوْلا منديلها ونهضت عن المائدة.

قال باد: "إذا لم يكن شيء فهو شيء آخر. أحضريه إلى هنا يا أوْلا".

"سأفعل،" قالت أوْلا وذهبت لإحضار الطفل.

صرخ الطاووس ثانية، واستطعت أن أشعر بالشّعر ينتصب في قفا عنقي. نظرتُ إلى فران. التقطت منديلها ثم وضعته ثانية. نظرت نحو نافذة المطبخ. كان الجوّ مظلمًا في الخارج. رُفعت النافذة وثمّة منخل في الإطار. ظننتُ أنّي سمعتُ طائرًا في الرّدهة الأمامية.

أدارت فران عينيها ونظرت في الصالة. كانت تراقب أوْلا والطفل.

بعد وهلة، عادت أوْلا معه. نظرتُ إلى الطفل وسحبتُ نفَسًا. حملَتْه تحت ذراعيها بحيث يستطيع الوقوف في حضنها ويواجهنا. نظرت إلى فران ثم إليّ. لم تكن محمرّة الآن. انتظرتْ أحدنا أن يعلّق.

قالت فران: "آه!"

قالت أوْلا بسرعة: "ماذا؟"

قالت فران: "لا شيء. ظننت أنّي رأيت شيئًا في النافذة. ظننت أنّي رأيت خفّاشًا".

قالت أوْلا: "لا يوجد خفافيش هنا".
قالت فران: "ربما فراشة. كان شيئًا ما. أليس هذا طفلًا!"
كان باد ينظر إلى الطفل. ثم نظر إلى فران. رفع كرسيه على قائمتيه الخلفيتين وهز رأسه. هزّ رأسه ثانية وقال: "لا بأس، لا تقلقي. نعرف أنه لن يفوز في مسابقات الجمال الآن. إنه ليس كلارك جيبل. لكن امنحيه بعض الوقت. وكما تعلمين إذا حالفه الحظ سينمو كي يبدو مثل والده."
وقف الطفل في حضن أوْلا، ناظرًا حول الطاولة إلينا. أنزلت أوْلا يديها إلى وسطها بحيث يستطيع الطفل أن يهتزّ إلى الخلف والأمام على ساقيها السمينتين. كان أقبح طفل رأيته في حياتي. كان قبيحًا بحيث إنّي لم أقْوَ على قول أي شيء. لم تخرج الكلمات من فمي. لا أعني أنه كان مريضًا أو مشوّهًا. لا شيء من ذاك القبيل. كان دميمًا فحسب، وله وجه سمين وكبير، وعيناه جاحظتان، وجبهته عريضة وشفتاه غليظتان وكبيرتان. ولم يكن له عنُق ملحوظ، بل ثلاث أو أربع طيّات سِمان في الذقن. التفّت الطيّات حتى أسفل أذنيه الناتئتين من رأسه الأصلع. وكان الدهن معلقًا فوق رسغيه، والسّمنة واضحة في ذراعيه وأصابعه. إن كلمة دميم لا تفيه حقه.

أصدر الطفل الدميم ضجته وراح يقفز ويهبط في حضن أمه. ثم توقف عن القفز. مال إلى الأمام وحاول الوصول بيده السمينة إلى صحن أوْلا. لقد رأيتُ أطفالًا. حين كنت أكبر، كان لشقيقتيّ ستة أطفال. أمضيت كثيرًا من الوقت مع الأطفال في صغري. رأيت الأطفال في المتاجر وغيرها. لكن هذا الطفل يهزم أي شيء. حدّقت فيه فران. أعتقد أنها لم تعرف ماذا تقول أيضًا.

قلت: "إنه كبير. أليس كذلك؟"
قال باد: "سيتحوّل إلى كرة قدم قريبًا! من المؤكد أنه لن يرحل من هذا المنزل قبل تناول ما يكفيه من وجبات طعام!"
كما لو من أجل التأكد من ذلك، غزّت أوْلا شوكتها في بعض البطاطا الحلوة ورفعت الشوكة إلى فم الصبي. "إنه طفلي، أليس كذلك؟" قالت للشيء السمين، متجاهلة وجودنا.
مال الطفل إلى الأمام وفتح فمه للبطاطا الحلوة. وصل إلى شوكة أوْلا فيما كانت توجّه البطاطا الحلوة إلى فمه، ثم أطبق. مضغ الطفل المادة واهتزّ مرة أخرى في حضن أوْلا. كان جاحظ العينين، كان كما لو أنه منشغل بشيء ما.
قالت فران: "إنه طفل يا أوْلا".
دار وجه الطفل، بدأ دلاله مرة أخرى في كل الجهات.
قالت أوْلا: "أدْخِلْ جوي".
أعاد باد قائمتيْ كرسيه الأماميتين إلى الأرض. "أعتقد أننا يجب أن نسأل هذين الشخصين إن كانا لا يمانعان،" قال باد.
نظرت أوْلا إلى فران ثم نظرت إليّ. احمرّ وجهها ثانية. واصل الطفل القفز في حضنها، تلوّى كي ينزل.
قلت: "نحن أصدقاء. افعلا ما تشاءان".
قال باد: "ربما لا يريدان طائرًا عجوزًا كبيرًا مثل جوي في المنزل. هل سبق أن فكرت في هذا يا أوْلا؟"
قالت لنا أوْلا: "أتمانعان؟ دخول جوي؟"
سارت الأمور في الاتجاه الخطأ مع ذلك الطائر الليلة، ومع الولد أيضًا على ما أعتقد. إنه معتاد على دخول جوي واللعب معه قبل نومه. لا أحد

منهما يستطيع الاستقرار الليلة.
قالت فران: "لا تسألينا. لا آبه إذا دخل. لم أقترب قط من أحدها. لا يهمّني الأمر،" نظرَت إلي. خمّنتُ أنها تريدني أن أقول شيئًا ما.
قلت: "كلا، أدخلوه،" التقطتُ كأسي وأنهيت الحليب.
نهض باد عن الكرسي. ذهب إلى الباب الأمامي وفتحه. أشعل أضواء الفناء.
"ما اسم طفلك؟" أرادت فران أن تعرف.
قالت أوْلا: "هارولد." قدّمت لهارولد مزيدًا من البطاطا الحلوة من صحنها. "إنه ذكي جدًّا. إنه حادّ الذكاء. يعرف دائمًا ما تقولينه له. أليس كذلك يا هارولد؟ انتظري حتى تحصلي على طفلك يا فران. سترين".
نظرَت إليها فران فحسب. سمعتُ الباب الأمامي يُفتح ثم يُغلق.
قال باد حين عاد إلى المطبخ: "إنه ذكي، صحيح. وَرِث ذلك عن والد أوْلا. والآن لديكِ طفل عجوز ذكي!"

نظرتُ خلف باد فرأيتُ ذلك الطاووس ينتظر قليلًا في غرفة الجلوس، ويدير رأسه إلى هذه الجهة وتلك، كما تُدار مرآة يدويّة. هزّ نفسه، وكان الصوت مثل ورق لعب يُخلَط في الغرفة الأخرى.
تحرّك خطوة إلى الأمام. ثم خطوة أخرى.
"هل أستطيع حمل الطفل؟" قالت فران، كأن ذلك مِن قَبيل إسداء المعروف لو سمحت أوْلا به.
سلّمتها أوْلا الطفل عبر الطاولة.
حاولت فران أن تُجلس الطفل في حضنها، لكنّه بدأ يصرخ ويصدر ضجته.
قالت فران: "هارولد!"
راقبت أوْلا فران مع الطفل. قالت: "حين كان جدّ هارولد في السادسة

عشرة من عمره شرع في قراءة الموسوعة من الألف إلى الياء. وفعلها أيضًا. أنهاها حين صار في العشرين. تمامًا قبل أن يلتقي بأمي".

سألتها: "أين هو الآن؟ ما الذي يفعله؟" أردتُ أن أعرف ما الذي حدث لرجل وضع لنفسه هدفًا كهذا.

قالت أولا: "توفيّ." كانت تراقب فران، التي مدّدت الطفل على ظهره على ركبتيها. ربتت فران تحت ذقنه. وبدأت تتحدث معه كلام أطفال.

قال باد: "كان يعمل في الغابات. وأسقط الحطّابون شجرة عليه".

قالت أولا: "حصلت أمي على بعض النقود من التأمين. لكنها صرفتها. يرسل لها باد بعض النقود كلّ شهر".

قال باد: "ليس الكثير. فنحن أنفسنا لا نملك كثيرًا. لكنها والدة أولا".

في هذا الوقت، جمع الطاووس شجاعته وبدأ يتقدّم في بُطء، بقليل من الحركات المتمايلة والاهتزازية، إلى المطبخ. كان رأسه منتصبًا لكن في زاوية، وعيناه الحمراوان مثبّتتين علينا. أمّا عُرْفُه، الذي هو غصن صغير من الريش، كان يرتفع بضعة إنشات فوق رأسه. وارتفعت الريشات من ذيله. توقّف الطائر على بُعد بضعة أقدام من الطاولة ونظر إلينا.

قال باد: "إنهم لا يسمونها طيور الفردوس من أجل لا شيء".

لم تنظر فران إلى الأعلى. كانت تركّز انتباهها على الطفل. بدأت لعبة التصفيق براحة الكفين معه (لعبة الباتي كيك) التي أمتعت الطفل نوعًا ما. أعني أن اللعبة على الأقل هدّأت الطفل. رفعته فران إلى عنقها وهمست شيئًا ما في أذنه.

قالت: "والآن لا تقل لأحد ما قلت لك".

حدّق الطفل إليها بعينيه الجاحظتين. ثم مدّ يده وأمسك حفنة من شعر فران الأشقر. اقترب الطاووس أكثر من الطاولة. لم يقل أحد منا

شيئًا. جلسنا هادئين فحسب. رأى الطفلُ هارولد الطائرَ. أفلت شعر فران ووقف في حضنها. أشار بأصابعه السمينة إلى الطاووس. راح يقفز ويهبط وأصدر ضجة.

سار الطاووس بسرعة حول الطاولة وذهب إلى الطفل. مرّر عنقه الطويل على ساقي الطفل. دفع منقاره تحت قمة بيجامة الطفل وهزّ رأسه المتصلب إلى الأمام والخلف. ضحك الطفل ورفسه. متحرّكًا على ظهره شق الطفل طريقه على ركبتي فران ونزل إلى الأرض. واصل الطاووس الدفع على الطفل، كما لو أنهما يلعبان لعبة. أمسكت فران الطفل وأسندته على ساقيها بينما كان الطفل يندفع إلى الأمام.

قالت: "لا أصدق هذا".

قال باد: "إن الطاووس مجنون، هذا هو الأمر. فهذا الطائر الملعون لا يعرف أنه طائر، هذه هي المشكلة الرئيسية".

ابتسمت أوْلا وكشفت عن أسنانها مرة أخرى. نظرت إلى باد. دفع باد كرسيه بعيدًا عن الطاولة وهزّ رأسه.

كان طفلًا دميمًا. لكن، حسب معرفتي، لم يكن ذلك يهمّ باد وأوْلا كثيرًا. أو إذا كان يهمّهما، فربما فكّرا ببساطة أنه ما من مشكلة في دمامته، فهو في النهاية طفلهما. وهذه مرحلة فحسب، ثم هناك مرحلة تالية. ستكون الأمور على ما يرام على المدى الطويل، عندما تنتهي المراحل كلّها. ربما فكّرا في شيء من ذاك القبيل.

التقط باد الطفل وصار يقذف به إلى الأعلى ويعاود الإمساك به إلى أن صرخ هارولد. موّج الطاووس ريشه وراقب.

هزّت فران رأسها ثانية. سوّت فستانها حيث تمدد الطفل. التقطت أوْلا شوكتها وأكلت بعض الفاصولياء البيضاء من صحنها.

نقل باد الطفل إلى ردفه وقال: "ثمة حلوى وقهوة في انتظارنا".
كان ذلك المساء مميّزًا في منزل باد وأوْلا. عرفتُ أنه مميّز. فقد شعرتُ فيه بالراحة حيال كل شيء في حياتي. ولم يكن في وسعي الانتظار كي أكون وحيدًا مع فران كي أحدثها عما كنت أشعر به. تمنّيتُ أمنية ذلك المساء. جالسًا هناك إلى الطاولة، أغمضتُ عينيّ دقيقة وفكّرت في عُمق. ما تمنّيته هو ألا أنسى أبدًا ذلك المساء. وقد تحقّقت أمنيتي تلك. وكان حظًّا عاثرًا أنّها تحقّقت. لكن، بالطبع، لم يكن في وسعي معرفة هذا آنذاك.
قال لي باد: "ما الذي تفكر فيه يا جاك؟"
قلتُ مبتسمًا له: "أنا أفكّر فحسب".
قالت أوْلا: "سأعطيك بنسًا إذا قلت".
ابتسمتُ أكثر، وهززت رأسي.

تلك الليلة، بعد أن عُدنا إلى المنزل من بيت باد وأوْلا، وبِتنا تحت الأغطية، قالت فران: "حبيبي، املأني ببذارك وأحْبلْني!" حين قالت ذلك سمعته بكياني كلّه، فصرختُ وخرجت من السرير.
فيما بعد، بعد أن تغيّرت حياتنا، وجاء الطفل، وحدث ما حدث، كانت فران تتذكر ذلك المساء في منزل باد كبداية للتغيّر الذي طرأ علينا. لكنها كانت مخطئة. فقد جاء التغيير فيما بعد، وحين جاء، كان كمثل شيء حدث لأشخاص آخرين، وليس كشيء كان يمكن أن يحدث لنا.
"اللعنة على أولئك الأشخاص وطفلهم القبيح،" كانت فران تقول، دون سبب واضح، فيما كنا نشاهد التلفاز في وقت متأخر من الليل. وتضيف: "وذلك الطائر ذي الرائحة. يا يسوع، من يحتاج إليه!" لطالما ردّدَت هذا النوع من الكلام كثيرًا، رغم أنها لم تشاهد باد وأوْلا سوى تلك

المرة الوحيدة.

لم تعد فران تعمل في مصنع الألبان، وقصّتْ شعرها منذ وقت طويل. وبدت سمينة بالنسبة إليّ أيضًا. ولم نتحدث عن الأمر، فماذا يُمكنها أن تقول؟

ما أزال أرى باد في المصنع. نعمل معًا ونفتح علب غدائنا سوية. إذا سألتُ، يحدثني عن أوْلا وهارولد. أمّا جوي فهو خارج الصورة. طار إلى شجرته مرّة وانتهى الأمر. لم ينزل. ربما الاكتهال كما قال باد. ثمّ استولى البوم على المشهد. يهزّ باد كتفيه استهجانًا. يأكل لُفافته ويقول إن هارولد سيُصبح ظَهيرًا في ملعب الكُرة يومًا ما. يقول باد: "ينبغي أن ترى ذلك الفتى!" أهزّ رأسي. ما زلنا صديقين، لم يتغيّر شيء سوى أنّي صرتُ حذرًا في ما أقول له. وأعرف أنه يشعر بهذا ويتمنى لو يختلف الأمر. أرغب في ذلك أيضًا.

نادرًا ما يسألني عن عائلتي. وحين يفعل أقول له إن كل شيء على ما يرام، "الجميع بخير." أغلقُ علبة الغداء وأُخرج علبة سجائري. يهزّ باد رأسه ويحتسي قهوته. الحقيقة هي أنّ لدى ابني نزعة تآمريّة شريرة. لكنّي لا أتحدث عن الأمر. ليس حتى مع أمّه. هي خاصّة. إن الحديث بيني وبينها راح يقلّ بالتدريج. كل ما نفعله في معظم الأحيان هو مشاهدة التلفاز. لكنّي أذكر تلك الليلة. أذكر الطريقة التي رفع بها الطاووس قدمه الرمادية وتقدّم ببطء حول الطاولة. ثم صديقي وزوجته يودعاننا في الردهة. قدّمَت أوْلا لفران بعض ريشات الطاووس كي تأخذها إلى المنزل. أتذكّر أننا جميعًا تصافحنا، عانق بعضنا بعضًا، وقلنا بعض الكلمات الطيّبة. في السيارة، جلست فران قريبة مني حين سقتُ مبتعدًا. أبقت يدها على ساقي. كنا على هذه الحال طول الطريق من منزل صديقي.

منزل شيف

في ذلك الصيف استأجر ويس منزلًا مفروشًا في شمال يوريكا من مدمن على الكحول عالج نفسه يُدعى شيف. ثم اتّصل بي طالبًا مني أن أنسى الماضي وأنتقل كي أعيش معه. قال إنه في المنزل المقطور. أعرف المنزل المقطور. لكنه لن يقبل رفضي جوابًا لطلبه. اتصل ثانية وقال: "إذنا، تستطيعين رؤية المحيط من النافذة الأمامية! يمكنك أن تشمّي رائحة الملح في الجوّا!" أصغيتُ إليه يتحدث. لم يجعل كلماته مُبهمة. قلتُ إنّي سأفكّر في الأمر. وقد فعلت. بعد أسبوع اتصل ثانية وقال: "هل ستأتين؟" قلت إنّي ما زلت أفكر. قال: "سنبدأ من جديد." قلت: "إذا جئت إلى هناك، فإنّي أريدك أن تفعل شيئًا من أجلي." قال ويس: "سمِّه." فقلت: "أريدك أن تحاول أن تكون ويس الذي كنت أعرفه. ويس القديم. ويس الذي تزوّجته." بدأ ويس يبكي، واعتبرتُ ذلك إشارة إلى نواياه الطيّبة. وهكذا قلت: "حسنًا، أنا قادمة."

ترك ويس حبيبته، أو هي تركته، لا أعرف، لم أكترث للأمر. حين قرّرت الذهاب إلى ويس كان عليّ أن أودّع صديقي. قال صديقي: "أنت ترتكبين خطأ. لا تفعلي هذا بي. ماذا عنّا؟" قلتُ: "عليّ أن أفعل هذا من أجل ويس. سيحاول أن يبقى رصينًا. تذكّر كيف هو الأمر." قال صديقي:

"أتذكر، لكنّي لا أريدك أن تذهبي." قلت: "سأذهب فترة الصيف. ثم سأرى. سأعود." قال: "وماذا عنّي؟ ماذا من أجلي؟ لا تعودي إذن."

احتسينا القهوة والشراب الفوّار وجميع أنواع عصائر الفاكهة في ذلك الصيف. كان علينا أن نشربها طول الصيف. وتمنّيت ألّا ينتهي الصيف. فقد عرفته على نحو أفضل. بعد قضاء شهر مع ويس في منزل شيف ارتديتُ من جديد خاتم زفافي. لم أرتد الخاتم خلال العامين الماضيين. ليس منذ الليلة التي كان فيها ويس ثملًا ورمى خاتمه في بستان درّاق. كان لدينا القليل من النقود، وهكذا لم أضطر للعمل. وتبيّن أن شيف قدّم لنا منزله مجانًا. لم يكن لدينا هاتف. كنا ندفع فاتورة الغاز والكهرباء ونشتري ما نحتاج من محلّ السّيف وي. وفي عصْر يوم أحدٍ ما، خرج ويس كي يُحضر مرشّة، وعاد بشيء لي. عاد حاملًا باقة جميلة من الأقحوان وقُبّعة قشيّة. وفي أمسيات أيام الثلاثاء كنا نذهب لنشاهد فيلمًا. وفي ليال أخرى كان ويس يذهب إلى ما دعاه اجتماعات "الامتناع عن شرب الكحول." كان شيف يقلّه بسيارته من عند الباب ويعيده إلى المنزل ثانية فيما بعد. وفي بعض الأيام كنت أذهب مع ويس لاصطياد أسماك الترويت في إحدى بحيرات المياه العذبة في الجوار. كنا نصطاد وقوفًا على الضفّة، ونبدّد النهار كله من أجل بضع أسماك صغيرة، أقول إنها رائعة، ثمّ أقليها للعشاء في الليل. أحيانًا أنزع قبعتي وأنام على غطاء قُرب قصبة الصّيد. إن آخر شيء أستطيع تذكره هو الغيوم التي تمرّ فوقنا نحو الوادي الكبير. في الليل، يضمّني ويس بين ذراعيه ويسألني إن كنت ما أزال حبيبته.

حافظ أولادنا على مسافة بيننا وبينهم. تشيريل تعيش مع بعض

الأشخاص في مزرعة في أوريغون، تعتني بقطيع من الماعز وتبيع الحليب، وتربي النحل وتعرض جرار العسل للبيع. لها حياتها الخاصة، ولم ألمْها على ذلك. لم تكترث بطريقة أو بأخرى بما نفعله أنا ووالدها طالما أننا لا نُدخلها في الأمر. بوبي في واشنطن يعمل في تجارة القش. بعد موسم الدّرس، خطّط أن يعمل في تجارة التفاح. لديه حبيبة ويدّخر النقود. كتبتُ له رسائل وذيّلتها دومًا بعبارة "أحبك دائمًا".

في ظهيرة أحد الأيام كان ويس في الفناء ينزع الأعشاب حين توقفت سيارة شيف أمام المنزل. كنت أعمل فوق المغسلة. نظرتُ فرأيت سيارة شيف تتوقف. كان في وسعي أن أرى سيارته، والطريق الفرعي والطريق السريع، وخلف الطريق السريع تلال الرمل والمحيط والغيوم التي تتدلى فوق المياه. خرج شيف من سيارته وشدّ بنطاله. عرفت أن هناك شيئًا ما. توقف ويس عما كان يفعله ونهض. كان يرتدي قفّازيه وقبعة من القماش. نزع القبّعة ومسح وجهه بقفا يده. سار شيف ووضع ذراعه حول كتفي ويس. نزع ويس أحد قفازيه. ذهبتُ إلى الباب. سمعت شيف يقول لويس إنه آسف وإنه مضطر أن يطلب منّا ترك المنزل في نهاية الشهر. نزع ويس قفازه الآخر. "لماذا يا شيف؟" قال شيف إن ابنته ليندا، المرأة التي اعتاد ويس أن يدعوها ليندا السمينة أيّام ثمله، في حاجة إلى مكان كي تعيش فيه، وهذا هو المكان. قال شيف إن زوج ليندا استقلّ قارب صيده منذ بضعة أسابيع ولم يسمع عنه أحد بعد ذلك. "إنها من دمي،" قال شيف لويس. "لقد فقدَت زوجها، فقدَت والد طفلها، وأنا أستطيع أن أساعدها، وأنا سعيد لأنّي في وضع يمكنني من مساعدتها،" قال شيف. "أنا آسف، يا ويس، عليك أن تبحث عن منزل آخر." ثم عانق شيف

ويس مرّة أخرى، وشدّ بنطاله، وعاد إلى سيارته الكبيرة وساق مبتعدًا. دخل ويس المنزل. رمى قبعته وقفازيه على الطاولة وجلس على الكرسي الكبير. خطر لي أنه كرسي شيف، والسجادة أيضًا سجادة شيف. بدا ويس شاحبًا. صببتُ قدحين من القهوة وأعطيته واحدًا.

"ما من مشكلة يا ويس. لا تقلق من الأمر،" قلت ذلك وجلست على أريكة شيف مع قهوتي.

"ليندا السمينة ستعيش هنا بدلًا منّا،" قال ويس. أمسك قدحه، لكنه لم يشرب منه.

قلت: "لا تغضب يا ويس."

قال ويس إن زوجها سيظهر في كيتشيكان. إن زوج ليندا السمينة هجرها وطفلها بيساطة عندما كانا في أمسّ الحاجة إليه. "ومن يقدر أن يلومه؟" قال ويس. وأضاف أنّه إذا وصل الأمر إلى هنا، فإنه سيغرق مع سفينته بدلًا من أن يعيش بقية حياته مع ليندا السمينة وولدها في هذا المنزل. ثم وضع فنجانه جوار قفازيه. "كان هذا منزلًا سعيدًا حتى الآن،" قال.

قلت: "سنحصل على منزل آخر."

"ليس مثل هذا،" قال ويس. "لن يكون نفسه بأية حال. هذا المنزل جيّد لنا. فيه ذكريات جيدة. والآن ليندا وابنها السمين سيعيشان هنا." التقط قدحه ورشَف منه.

"إنه منزل شيف،" قلت. "عليه أن يفعل ما يتوجّب عليه فعله."

"أعرف هذا،" قال ويس. "لكنّي لستُ مضطرًا أن أحب ذلك."

يمتلك ويس تلك النظرة. أعرف تلك النظرة. واصل لعق شفتيه. واصل وضع إبهامه تحت حزامه. نهض عن الكرسي وذهب إلى النافذة. وقف ينظر إلى المحيط، والغيوم التي تتجمّع. مسّد ذقنه بأصابعه كما لو أنه

يفكر في شيء ما. وكان يفكر بعمق.
"اهدأ يا ويس،" قلت.
"تريدينني أن أهدأ،" قال ويس. واصل وقوفه هناك. لكن بعد لحظة جاء وجلس إلى جانبي على الأريكة. وضع رجلًا فوق أخرى وبدأ يلعب بأزرار قميصه. أمسكت يده. بدأت أتحدث. تحدثت عن الصيف. لكنّي شعرت وأنا أتحدث كما لو أنه كان شيئًا حدث في الماضي. ربما منذ سنوات. على أي حال، كمثل شيء انتهى. ثم بدأت أتحدث عن الأولاد. قال ويس إنه يتمنى لو يستطيع أن يفعل الأمر بشكل صحيح هذه المرة.
قلت: "إنهما يحبانك."
قال: "كلا، لا يحبانني."
قلت: "يومًا ما سيفهمان الأمور."
قال ويس: "ربما. لكن لن يهم الأمر آنذاك."
قلت: "أنت لا تعرف."
قال ويس: "أعرف بعض الأمور." ثم نظر إليّ وأضاف: "لن أنسى أبدًا أنك قمت بالأمر."
قلت: "أنا سعيدة أيضًا. أنا سعيدة أنك عثرت على هذا المنزل."
شخر ويس. ثم ضحك. ضحك كلانا. قال ويس: "ذلك الشيف،" ثم هزّ رأسه. "لقد باغتنا، ابن العاهرة. لكنّي سعيد أنك لبست خاتمك. سعيد أننا أمضينا هذا الوقت معًا،" قال ويس.
ثم قلتُ شيئًا ما. قلت: "افترض، افترض فحسب أنه لم يحدث أي شيء سيّئ قبْلًا. افترض أن الوقت الذي قضيناه هنا هو وقتنا الأوّل معًا. إن الافتراض لا يؤذي. لنقل إنه لم يحدث من الأمور الأخرى أيّ شيء. تعرف ما أعنيه؟ ثم ماذا؟"

ثبّت ويس عينيه عليّ. قال: "عندئذ أفترض أننا سنكون أشخاصًا آخرين إن كانت هذه هي القضية، أشخاصًا ليسوا نحن. لم أعد أقوم بهذا النوع من الافتراض. لقد وُلدنا كما نحن. ألا تفهمين ما أقوله؟"

قلت إنني لم أتخلّ عن حياتي الجيّدة ولم أقطع ستمئة ميل إلى هنا كي أسمعه يتحدث هكذا.

قال: "أنا آسف، لكنّي لا أستطيع التحدث مثل شخص ليس أنا. أنا لستُ شخصًا آخر. لو كنت شخصًا آخر، فأنا متأكد أنّي لن أكون هنا. لكنّي أنا من أنا. ألا ترين؟"

قلت: "هذا صحيح يا ويس." رفعتُ يده إلى خدي. ثم لا أعرف، تذكّرته حين كان في التاسعة عشرة من عمره، الطريقة التي بدا فيها وهو يركض عبر الحقل إلى حيث يجلس والده على جرّار، يداه على عينيه، يراقب ويس يركض نحوه. كنا قد سقنا لتوّنا من كاليفورنيا. خرجت مع شيريل وبوبي وقلت: "هذا جدّكما،" لكنهما كان طفلين.

جلس ويس إلى جانبي يلعب بذقنه، كما لو أنه يحاول أن يحذّر الشيء التالي. لقد توفي والد ويس وكبُر ولدانا. نظرتُ إلى ويس ثم تفحّصت غرفة جلوس شيف وأشياءه، وفكّرت: يجب أن نفعل شيئًا الآن وبسرعة.

قلت: "حبيبي. ويس، أصغ إليّ."

قال: "ماذا تريدين؟" وكان ذلك كل ما قاله. يبدو كأنه اتّخذ قرارًا. لكن بما أنه قرّر فلم يكن مستعجلًا. استند إلى الخلف على الأريكة، طوى يديه في حضنه، وأغمض عينيه. لم يقل أي شيء آخر. لم يكن مضطرًّا. قلتُ اسمه لنفسي. كان اسمًا من السهل لفظه، وكنت معتادة على نطقه فترة طويلة. ثم نطقته مرة أخرى. وفي هذه المرة بصوت مرتفع. قلت: "ويس!"

فتح عينيه. لكنه لم ينظر إليّ. جلس في مكانه ونظر نحو النافذة فحسب. "ليندا السمينة،" قال. لكنّي عرفت أنها لم تكن هي. لم تكن شيئاً، مجرّد اسم. نهضنا وأسدلنا الستائر فتلاشى المحيط. دخلتُ كي أبدأ بإعداد العشاء. ما زال لدينا بعض الأسماك في الثلاجة. لم يكن هناك شيء آخر. سننظّفها الليلة، كما ظننت، وهذه ستكون نهاية الأمر.

حماية

بدأ زوج ساندي يجلس على الأريكة منذ أن سُرِّحَ من العمل منذ ثلاثة أشهر. في ذلك اليوم، منذ ثلاثة أشهر، عاد إلى المنزل شاحب الوجه وخائفًا، وكل أشياء العمل الخاصة به موضوعة في صندوق. "فالنتاين سعيد،" قال لساندي، ووضع صندوقًا على شكل قلب من الحلويات وزجاجة ويسكي من نوع جيم بيم على طاولة المطبخ. "سُرِّحتُ اليوم. ماذا سيحدث لنا الآن في رأيك؟"

جلست ساندي وزوجها إلى الطاولة وشربا الويسكي وأكلا الشوكولاتة. تحدثا عما يمكنه فعله بدلًا من سقْف المنازل الجديدة. لكنهما لم يستطيعا التفكير في أي شيء. "سيظهر شيء ما،" قالت ساندي. أرادت أن تشجّعه. لكنها كانت خائفة أيضًا. أخيرًا، قال إنه سينام عليها. وقد فعل ذلك. جعل الأريكة سريره تلك الليلة، وهناك نام كل ليلة منذ أن حدث الأمر.

في اليوم التالي لفصله من العمل كانت هناك فوائد للبَطَالة يجب أن يتحقّق منها، فذهب إلى مكتب الولاية في مركز المدينة كي يملأ الأوراق ويبحث عن عمل آخر. لكن لم تكن هناك وظائف في مجال اختصاصه، أو في أيّ اختصاص آخر. بدأ وجهه بالتعرق وهو يحاول أن يصف لساندي

الحشد الهائل من النساء والرجال هناك. في ذلك المساء عاد إلى الأريكة. بدأ يمضي معظم وقته هناك، كما لو أنه، كما اعتقدتْ، الشيء الذي من المفترض أن يفعله الآن بما أنه لم يعد منشغلًا بوظيفة. غير أنه اضطرّ بين فينة وأخرى إلى الذهاب للتحدث مع شخص ما عن إمكانية توظيفه، وللذهاب كل أسبوعين كي يوقع ورقة ما كي يقبض تعويض بطالته. لكنه يمكث على الأريكة بقيّة الوقت كما لو أنه يعيش هناك، كما اعتقدت ساندي. إنه يعيش في غرفة الجلوس. وبين فترة وأخرى يقلّب المجلات التي تحضرها إلى المنزل من البقالة؛ وفي كثير من الأحيان تدخل فتجده ينظر في ذلك الكتاب الكبير الذي حصلت عليه كهدية كي تنضمّ إلى نادي الكتّاب، وهو كتاب بعنوان "أسرار الماضي." يمسك الكتاب أمامه بكلتا يديه، رأسه مائل فوق الصفحات، كما لو أنّ ما يقرأه يشدّه. لكن بعد وهلة لاحظت أنه لا يقوم بأيّ تقدّم فيه؛ إذ ما زال في الموضع نفسه، في مكان ما في الفصل الثاني، كما خمّنتْ. التقطت ساندي الكتاب مرّة وفتحته في الموضع الذي وصل إليه. قرأت هناك عن رجل اكتُشف بعد أن أمضى ألفي عام في مستنقع في هولندا. ظهرت صورة على إحدى الصفحات. جبين الرجل متغضّن، لكن ثمة تعبير رائق على وجهه. يعتمر قبّعة جلديّة ويتمدّد على جنبه. يدا الرجل وقدماه متقلّصة، لكنه بخلاف ذلك لم يبدُ كريهًا. قرأتْ في الكتاب أكثر قليلاً، ثم وضعتْه حيث أخذته. كان زوجها يبقيه في متناول يده على الطاولة المنخفضة أمام الأريكة، الأريكة اللعينة! وبقدر ما كان الأمر يهمّها، فإنّها لم ترغب حتى أن تجلس عليها ثانية. لم تستطع أن تتخيّل أبدًا أنهما استلقيا معًا هناك في الماضي كي يمارسا الجنس.

تأتي الصحيفة إلى المنزل يوميًّا. يقرأها من أوّلها إلى آخرها. رأته يقرأ كلّ

شيء مركّزًا على قسم الوفيّات، والجزء الذي يبيّن درجة الحرارة في المدن الرئيسة، وكذلك قسم أخبار الأعمال الذي يتحدث عن عمليات الدمج بين الشركات ونسب الفائدة. وفي الصباحات ينهض قبلها ويستخدم الحمام. ثم يُدير التلفاز ويعدّ القهوة. اعتقدَت أنه سعيد ومبتهج في تلك الساعة من اليوم، لكن ما إن تحين ساعة ذهابها إلى العمل، حتى يتوضع في مكانه على الأريكة والتلفاز مُدار. يبقى التلفاز في معظم الأحيان مُدارًا إلى أن تعود عصرًا. يجلس على الأريكة، أو يستلقي عليها، مرتديًا بنطال جينز وقميصًا خفيفًا، الثياب التي كان يرتديها للذهاب إلى العمل. لكن أحيانًا يكون التلفاز مطفأ فيما هو جالس هناك حاملًا كتابه.

"كيف تسير الأمور؟" يقول حين تنظر إليه.

تقول: "لا بأس. كيف هي أمورك أنت؟"

"تمام".

يضع لها دومًا إناء القهوة على الغاز كي يسخن. وفي غرفة الجلوس، تجلس على الكرسي الكبير. وتجلس على الأريكة حين يتحدثان عن يومها. يحملان كوبيهما ويشربان قهوتهما كما لو كانا سويّين، كما اعتقدت ساندي.

ما تزال ساندي تحبّه، رغم أنها تعرف أن الأمور صارت غريبة. إنها ممتنة كونها تحتفظ بوظيفتها، لكنها لا تعرف ما الذي سيحدث لهما أو لأي شخص آخر في العالم. لديها صديقة في العمل أسرّت لها مرة واحدة عن زوجها، عن جلوسه على الأريكة طوال الوقت. ولسبب ما، لم تعتقد صديقتها بأنّ الأمر غريب جدًّا، ممّا أدهش ساندي وأحزنها. أخبرتها صديقتها عن عمّها في تينيسي، الذي حين بلغ الأربعين عامًا، دخل إلى سريره ولم ينهض منه بعد ذلك. قالت لساندي إنها ظنّتْ أن عمّها خائف

من التقدّم في العمر، أو ربما كان خائفًا من نوبة قلبية أو شيء ما. لكن الرجل في الثالثة والستين الآن وما زال يتنفّس، كما قالت. حين سمعت ساندي هذا، ذُهلتْ. إذا كانت هذه المرأة تقول الحقيقة فإن الرجل أمضى في السرير ثلاثًا وعشرين سنة كما اعتقدت. إن عمر زوج ساندي واحد وثلاثون فقط. إن حاصل جمع واحد وثلاثين مع ثلاثة وعشرين يساوي أربعة وخمسين. يجعلها هذا في عمر الخمسين آنذاك، أيضًا. يا إلهي، لا يستطيع الشخص أن يمضي بقية حياته كلها في السرير، أو على أريكة. لو جُرح زوجها أو كان مريضًا، أو تعرّض للأذى في حادث سيارة، فإن الأمر سيكون مختلفًا. في وسعها أن تتفهّم ذلك. لو حدث شيء كهذا فإنها ستتحمله كما تعرف. إذا اضطرّ أن يعيش على الأريكة واضطرّت أن تُحضر له طعامه إلى هناك، وربما تحمل الملعقة إلى فمه، ستجد في ذلك ربما شيئًا من الرومانسيّة. لكن أن يلجأ زوجها الشاب والمعافى إلى الأريكة بتلك الطريقة ولا يرغب في النهوض إلا كي يذهب إلى المرحاض أو يُدير التلفاز في الصباح أو يطفئه في الليل، فإنّ هذا مختلف تمامًا. جعلها هذا تشعر بالعار؛ وباستثناء تلك المرّة، فإنّها لم تتحدث عن الأمر مع أي شخص. لم تتحدث مرّة أخرى عن الأمر مع صديقتها التي دخل عمها إلى السرير وبقي ثلاثًا وعشرين سنة -وما زال-هناك، حسب ما تعرف ساندي.

في وقت متأخّر من عصْر يوم ما، عادت إلى المنزل من العمل، صفّت السيارة، ودخلت إلى المنزل. كان في وسعها سماع صوت التلفاز في غرفة الجلوس حين دخلتْ من باب المطبخ. إناء القهوة على الغاز، والنار خفيفة. من حيث تقف في المطبخ، وتحمل محفظتها، أمكنَها أن تنظر إلى غرفة الجلوس وترى ظهر الأريكة وشاشة التلفاز. الأشكال تتحرك على

الشاشة، وقدما زوجها الحافيتان ناتئتان في نهاية الأريكة. وفي الطرف الآخر، استطاعت أن ترى تاج رأسه. لم يتحرك. ربما هو نائم، وربما لا، وربما سمعها تدخل أو لم يسمعها. لكنها قررت أن الأمر لا يحدث أيّ فرق يُذكَر. وضعت محفظتها على الطاولة وذهبت إلى الثلاجة لتخرج بعض اللبن لنفسها. حين فتحت الباب خرج إليها هواء ساخن محبوس. لم تستطع تصديق وجود خلل في الداخل. فقد ذابت البوظة في الثلاجة وسالت حتى سقطت على أصابع السمك المتبقية وسلطة الكرنب. دخلت البوظة إلى إناء الأرز الإسباني وتجمعت في قاع البراد. البوظة في كل مكان. فتحت باب الثلاجة ففاحت رائحة كريهة جعلتها ترغب في التقيؤ. البوظة تغطي أرضية الثلاجة وتتجمع فوق علبة هامبرغر وزنها ثلاثة أرطال. ضغطت بإصبعها على غلاف السولوفان الذي يغطي اللحم فغاص في العلبة. ذابت قطع اللحم أيضًا. ذاب كلّ شيء بما فيه المزيد من أصابع السمك وعلبة من ستيك-آم، ووجبتين من الطعام الصيني من نوع شيف سامي. ذابت أيضًا النقانق والسباغيتي المصنوعة في المنزل. أغلقت باب الثلاجة ومدت يدها في البراد كي تُخرج علبة اللبن. رفعت غطاء اللبن وشمّت. آنذاك صرخت في زوجها.

"ما هذا؟" قالت، منتصبة خلف الأريكة. "هيه، ما الأمر؟" دفعَ يده في شعره مرّتين. لم تستطع أن تميّز إن كان نائمًا طوال الوقت أم مستيقظًا.

قالت ساندي: "لقد تعطّل هذا البرّاد اللعين. هذا هو الأمر"

نهض زوجها عن الأريكة وأخفض صوت التلفاز، ثم أطفأه وذهب إلى المطبخ. قال: "دعيني أتفحصه. لا أصدّق هذا".

قالت: "انظرْ بنفسك، سيفسد كلّ شيء".

ألقى زوجُها نظرة داخل البرّاد، وارتسم على وجهه تعبير في غاية الجدية.

ثم بحث في الثلاجة ورأى كيف هي الأشياء هناك.
قال: "قولي لي ما التالي".
خطرت في رأسها فجأة مجموعة من الأشياء، لكنها لم تقل أيّ شيء.
قال: "اللعنة، حين تُمطر تُغرق. إيه، لا يمكن أن يكون عمر هذا البراد أكثر من عشر سنوات. كان جديدًا تقريبًا حين اشترياه. استمعي، إن أهلي يملكون برادًا خدمهم خمسًا وعشرين سنة ثم أعطوه لأخي حين تزوّج. كان يعمل بشكل جيد. إيه، ما الذي يجري؟" تحرّك بحيث استطاع أن يرى في المكان الضيّق بين البراد والجدار. "لا أفهم الأمر،" قال وهزّ رأسه "إنه موصول بالكهرباء." ثم أمسك البرّاد وهزّه إلى الأمام والخلف. وضع كتفه عليه ودفع وهزّ الجهاز بضعة إنشات خارج موضعه داخل المطبخ. سقط شيء داخل البراد عن رفّ وتحطّم. قال: "أجراس الجحيم".
أدركت ساندي أنها ما تزال تحمل اللبن. ذهبت إلى علبة القمامة، رفعتْ الغطاء، ورمت العلبة داخلها. قالت: "يجب أن أطبخ كلّ شيء الليلة." رأت نفسها عند الموقد تقلي اللحم، تثبت الأشياء في مقال على الموقد وفي الفرن. قالت: "نحتاج إلى برّاد جديد".
لم يقل أي شيء. نظر داخل الثلاجة مرة أخرى وأدار رأسه إلى الأمام والخلف.
تحركت أمامه وبدأت تأخذ الأشياء عن الرفوف وتضع أشياء على الطاولة. ساعدها. أخرج اللحم من الثلاجة ووضعه في مكان مختلف على الطاولة. أخرج كلّ شيء ثم عثر على المناديل الورقية وقماشة غسل الصحون وبدأ يمسح في الداخل.
قال متوقّفًا عن المسح: "لقد فقدْنا الفريون الخاص بنا. هذا ما حدث.

تسرّب غاز الفريون. حدث شيء ما وذهب الفريون. رأيت هذا يحدث لبرّاد شخص آخر." هدأ الآن. بدأ المسح ثانية. قال: "إنه غاز الفريون". "لقد قلتَ هذا. من أين سنحصل على واحد؟ إنها لا تنمو على الأشجار".

قال: "يجب أن نحصل على واحد. ألا نريد برّادًا؟ ربما لا نريد. ربما نستطيع أن نترك موادنا القابلة للتلف على إفريز النافذة كمثل أولئك الناس الذين في الشقق. أو نستطيع الحصول على واحد من مبرّدات ستاي وفوم الصغيرة ونشتري بعض الثلج كلّ يوم." وضعت أوراق الخسّ وبعض البندورة على الطاولة إلى جانب علبة اللحم. ثم جلست على أحد كراسي حجرات الطعام الصغيرة ورفعتْ يديها إلى وجهها.

قال زوجها: "سنؤمّن برّادًا آخر. إلى الجحيم، نعم. نحتاج إلى واحد، أليس كذلك؟ لا نستطيع أن نحتمل الوضع دون واحد. والسؤال هو: من أين نأتي بواحد وكم نستطيع أن ندفع كي نأتي به؟ لا بد أنّ هناك عددًا هائلًا من البرادات المستعملة في الإعلانات المبوّبة. تماسكي فحسب وسنرى ما في الصحيفة. أنا خبير في الإعلانات المبوبة،" قال.

أنزلتْ يديها عن وجهها ونظرتْ إليه.

تابع: "ساندي، سنعثر على واحد مستعمل جيد في الصحيفة. إن معظم البرّادات مصنوعة كي تستمر فترة حياة. أما برّادنا، يا يسوع، لا أعرف ما الذي حدث له. إنه ثاني براد في حياتي فقط سمعت أنه يعطّل هكذا."

نقل تحديقته إلى البراد ثانية وقال: "اللعنة! يا له من حظّ تعيس".

قالت: "أحضرْ الصحيفة إلى هنا، لنرى ماذا هناك".

قال: "لا تقلقي." ذهب إلى الطاولة المنخفضة، بحث في رزمة الصحف، وعاد إلى المطبخ بقسم الإعلانات المبوّبة. دفعتْ الطعام جانبًا بحيث يستطيع أن يفتح الجريدة. اقتعد كرسيًّا.

نظرت إلى الصحيفة، ثم إلى الطعام الذي ذاب. قالت: "عليّ أن أقلي قطع اللحم الليلة. ويجب أن أطبخ ذلك الهامبرغر. وأصابع اللفافات تلك. لا تنْسَ وجبات العشاء الخاصة بمشاهدة التلفاز أيضًا".

قال: "ذلك الفريون الملعون. تستطيعين شمّ رائحته".

بدأ بقراءة الإعلانات المبوبة. مرّر إصبعه على أحد الأعمدة ثم على آخر. مرّ بسرعة فوق قسم "الوظائف المتوفرة." رأت شيكات إلى جانب شيئين آخرين لكنها لم تنظر كي ترى ما الذي ترك عليه علامة. لم يهمّ الأمر. كان هناك عمود بعنوان: مؤونة التخييم في العراء. ثم عثرا على ما يريدان: برّادات جديدة ومستعملة.

"هنا،" قالت، ووضعتْ إصبعها على الصفحة.

حرّك إصبعها. قال: "دعينا نرى".

أرجعت إصبعها إلى حيث كان. "برّادات، أفران غاز، جلايات، نشافات، إلخ..." قالت، وهي تقرأ من الإعلان المبوب. "مزاد بارن العلني، ما هذا؟ مزاد بارن العلني." واصلت القراءة. "برادات جديدة ومستعملة والمزيد كلّ يوم خميس. المزاد في السابعة. هذا يعني اليوم. اليوم هو الخميس،" قالت. "إن هذا المزاد العلني هو الليلة. وهذا المكان ليس بعيدًا جدًا. إنه في شارع باين. لا بدّ أنّي سقت إلى هناك مئة مرة. أنت، أيضًا. تعرف أين هو. إنه هناك قريب من باسكن روبنز".

لم يقل زوجها أيّ كلمة. حدّق في الإعلان. رفع يده وشد شفته السفلى بإصبعين. قال: "مزاد بارن العلني".

ثبّتت عينيها عليه. "لنذهب إليه. ما رأيك؟ سينفعك الخروج. سنرى إن كان في وسعنا العثور على برّاد لنا. نصطاد عصفورين بحجر،" قالت.

قال: "لم أذهب إلى مزاد علني طيلة حياتي. ولا أظنّ أنّي سأذهب إلى واحد

الآن".

قالت ساندي: "هيّا. ما الذي حدث لك؟ الأمر مُسَلٍّ. لم أذهب إلى واحد طيلة سنوات، ليس منذ طفولتي. كنت أذهب إليها مع والدي." فجأة رغبت كثيرًا في الذهاب إلى هذا المزاد العلني.

قال: "والدك".

قالت: "نعم، والدي." نظرتْ إلى زوجها، منتظرة أن يقول شيئًا آخر، أقلّ شيء، لكنه لم يفعل.

قالت: "المزادات العلنية مسليّة".

"ربما كانت كذلك لكنّي لا أريد الذهاب".

واصلت: "أريد أيضًا مصباحًا للسرير. سيكون لديهم مصابيح للأسرّة".

"هيه، نحتاج إلى كثير من الأشياء. لكن ليس لدي وظيفة، أتذكرين؟"

قالت: "أنا ذاهبة إلى هذا المزاد سواء ذهبت معي أم لم تذهب. يمكن أن تأتي أيضًا. لكن لا أكترث. إذا أردت الحقيقة، هذا غير مهم بالنسبة لي. لكنّي ذاهبة".

"سأذهب معك. من قال إنّي لن أذهب؟" نظر إليها ثمّ نظر بعيدًا. التقط الصحيفة وقرأ الإعلان ثانية. قال: "لا أعرف أي شيء عن المزادات العلنية. لكن سأحاول القيام بأي شيء. من قال إننا سنشتري برادًا في مزاد علني؟"

قالت: "لا أحد. لكن سنفعل هذا على أيّ حال".

قال: "حسنًا".

قالت: "جيّد، فقط إذا كنت حقًا تريد ذلك".

هزّ رأسه.

قالت: "أظنّ أنه من الأفضل أن أبدأ الطبخ. سأطبخ قطع اللحم اللعينة

الآن، وسنأكل. إن بقية هذه المواد تستطيع الانتظار. سأطبخ كل شيء فيما بعد. بعد أن نذهب إلى المزاد. لكن يجب أن نبدأ بالحركة. قالت الصحيفة في السابعة".

قال: "في السابعة." نهض عن الطاولة وشقّ طريقه إلى غرفة الجلوس، حيث نظر من النافذة الناتئة دقيقة. عبرتْ سيارة الشارع في الخارج. رفع أصابعه إلى شفتيه. راقبته وهو يجلس على الأريكة ويتناول كتابه. فتحه إلى المكان الذي وصل إليه. لكن بعد دقيقة وضعه في مكانه وتمدّد. رأت رأسه ينخفض على المخدة التي تستلقي عبر ذراع الأريكة. عدّل المخدة تحت رأسه ووضع يديه خلف عنقه. ثم تمدد بهدوء. في الحال رأت ذراعيه يتحركان إلى الأسفل إلى جانبيه.

طوت الصحيفة. نهضت عن الكرسي وذهبت بهدوء إلى غرفة الجلوس، حيث نظرتْ من فوق ظهر الأريكة. كانت عيناه مغمضتين. بدا كأن صدره بالكاد يرتفع ثم يهبط. عادت إلى المطبخ ووضعت مقلاة على عين الموقد. أطفأت العين وسكبت الزيت في المقلاة. بدأت بقلي قطع اللحم. كانت قد ذهبت إلى المزادات العلنية مع والدها. جميع تلك المزادات تتعلق بحيوانات المزرعة. بدت كأنها تتذكر أن والدها كان يحاول دومًا أن يبيع عجلاً، أو يشتري واحدًا. أحيانًا تُعْرَض تجهيزات مزرعة ومواد منزلية في المزادات. لكن في معظم الأحيان حيوانات مزرعة. ثم، بعد أن تطلّق أبوها وأمّها، وذهبت كي تعيش بعيدًا مع والدتها، كتب والدها أنه مشتاق للذهاب معها إلى المزادات. في آخر رسالة كتبها إليها، بعد أن كبرتْ وكانت تعيش مع زوجها، قال إنه اشترى سيارة ممتازة في هذا المزاد بمبلغ مئتي دولار. وقال إنها لو كانت موجودة لاشترى لها واحدة أيضًا. بعد ثلاثة أسابيع، في منتصف الليل، أخبرتها مكالمة هاتفية أنه توفّي. سرّبتْ السيارة التي كان

يقودها أوّل أكسيد الكربون عبر ألواح الأرضية مما تسبب بموته وهو وراء المقود. كان يعيش في الريف. ظلّت السيارة تسير إلى أن نفد الوقود. بقي في السيارة إلى أن عثر عليه أحد الأشخاص بعد بضعة أيام.

كان الدخان قد بدأ يتصاعد من المقلاة. صبّت مزيدًا من الزيت وحرّكت المقلاة. لم تذهب إلى مزاد علني طيلة عشرين سنة، واليوم هي تستعدّ للذهاب إلى واحد. لكن عليها أوّلًا أن تقلي شرائح اللحم. كان حظًّا سيئًا أن برّادهم تعطّل، لكنها وجدتْ نفسها تتطلّع إلى الأمام نحو المزاد العلني. بدأت تشتاق إلى والدها. اشتاقت حتى إلى أمها الآن، رغم أنهما كانتا تتجادلان طوال الوقت قبل أن تلتقي زوجها وتعيش معه. وقفت عند الموقد، مقلّبة اللحم، ومشتاقة إلى كلّ من أبيها وأمّها.

ما تزال مشتاقة إليهما، تناولت حامل إناء عازلًا للحرارة ونقلت المقلاة عن الموقد. شُدّ الدخان إلى الأعلى عبر المنفَس فوق الموقد. خطَت إلى الردهة مع المقلاة ونظرتْ في غرفة الجلوس. الدخان ما زال يتصاعد من المقلاة وقطرات الزيت والدهن تقفز عن الجوانب فيما هي تمسكها. في الغرفة المظلمة، كان في وسعها أن تميّز فقط رأس زوجها، وقدميه العاريين.

قالت: "تعال إلى هنا. إن الطعام جاهز".

قال: "حسنا".

رأتْ رأسه يرتفع من نهاية الأريكة. أعادت المقلاة إلى الموقد وذهبت إلى الخزانة. أنزلت صحنين ووضعتهما على الطاولة. استخدمت ملعقة الصيدلي الخاصة بها كي ترفع قطعة من اللحم. ثم رفعتها إلى الصحن. لم يبد اللحم لحمًا. بدا كجزء من العظم الكتفيّ، أو أداة للحفر. لكنها تعرف أنها قطعة لحم، أخرجت الأخرى من المقلاة ووضعتها في صحن أيضًا.

بعد دقيقة، دخل زوجها إلى المطبخ. نظر إلى البراد مرة أخرى، البراد الذي

كان يتوضع هناك ببابه مفتوحًا، لكنه لم يقل أي شيء. انتظرت أن يقول شيئًا ما، أيّ شيء، لكنه لم يقل. وضعت الملح والفلفل على الطاولة وطلبتْ منه أن يجلس.

"اجلسْ،" قالت وقدمت له صحنًا فيه بقايا قطعة اللحم. "أريدك أن تأكل هذه،" قالت. أمسك بالصحن لكنه وقف هناك فحسب ونظر إليه. ثم استدارت كي تأخذ صحنها.

أبعدت ساندي الصحيفة ودفعت الطعام إلى الطرف الآخر من الطاولة. "اجلس،" قالت لزوجها مرة أخرى. نقل صحنه من يد إلى أخرى. لكنّه واصل الوقوف هناك. حينئذ رأت الماء المتجمّع على الطاولة. سمعت المياه، أيضًا. تقطر عن الطاولة وعلى الموكيت.

نظرت إلى قدمي زوجها العاريين. حدقت بقدميه إلى جانب بركة الماء. أدركتْ أنها لن ترى أبدًا مرة ثانية في حياتها أي شيء غير عادي كهذا. لكنها لم تعرف ماذا تفعل في البداية. اعتقدت أنه من الأفضل أن تضع بعض أحمر الشفاه، وتحضر معطفها، وتذهب فورًا إلى المزاد العلني. لكنها لم تستطع أن تبعد عينيها عن قدمي زوجها. وضعت صحنها على الطاولة وراقبت إلى أن غادرت القدمان المطبخ وعادتا إلى غرفة الجلوس.

المقصورة

كان ميرز يسافر عبر فرنسا في عربة قطار من الدرجة الأولى في طريقه كي يزور ابنه الذي يدرس في ستراسبورغ. لم يكن قد شاهد الفتى مُدّة ثمانية أعوام. ولم تحدث مكالمات هاتفية بين الاثنين في ذلك الوقت، ولم يتبادلا بطاقة بريدية منذ أن ذهب ميرز وأم الولد كلٌّ في طريقه وبقي الولد معها. سُرِّعَ الانفصال النهائي، كما اعتقد ميرز دومًا، بسبب تدخل الفتى الشرير في أمورهما الشخصية.

كانت المرة الأخيرة التي شاهد فيها ميرز ولده، هي التي اندفع الولد فيها كي يضربه أثناء مشاجرة عنيفة. وقفت زوجة ميرز قرب الأريكة، ورمت صحنًا بعد آخر على أرض حجرة الطعام. ثم انتقلت إلى الأكواب. صاح ميرز: "هذا يكفي!" وفي تلك اللحظة هاجمه الفتى. تحرّك بخفة متجنبًا الضربة وثبّته لاويًا يده بشدة حول رأسه، وفيما كان الفتى يبكي ضربه ميرز على ظهره وكليتَيه. ثبّتهُ ميرز، وبعد أن فعل ذلك قام بمعظم ما يقدر عليه. خبطه على الحائط وهدد بقتله. كان يعني ذلك. تذكر ميرز نفسه وهو يصرخ: "منحتُك الحياة، وأستطيع أن أستردّها!"

مفكّرًا في ذلك المشهد المريع الآن، هزّ ميرز رأسه كما لو أن الأمر حدث لشخص آخر. وهذا صحيح لأنه لم يعد الشخص نفسه. فهو يعيش في

هذه الأيام وحيدًا وثمة القليل الذي يمكن أن يفعله مع أي شخص خارج عمله. في الليل، يصغي إلى الموسيقا الكلاسيكية ويقرأ كتبًا حول أشراك الطيور المائية.

أشعل سيجارة وواصل تحديقته خارج نافذة القطار، متجاهلًا الرّجل الذي يجلس في المقعد إلى جانب الباب وقد نام ساحبًا قبّعته فوق عينيه. الوقت باكر في الصباح، والضباب معلّق فوق الحقول الخضراء التي تعبر في الخارج. بين فترة وأخرى يرى ميرز مزرعة وأبنيتها الملحقة، وكل شيء محاط بسور. فكّر أنه من الجيد أن يعيش المرء في منزل قديم مسوّر.

الساعة تجاوزت السادسة. ولم يكن ميرز قد نام منذ أن صعد متن القطار في ميلانو في الحادية عشرة من ليل البارحة. حين غادر القطار ميلانو عدّ نفسه محظوظًا لأنه حصل على المقصورة لنفسه. أبقى المصباح مضاء ونظر في كتب الأدلّة. قرأ أشياء رغب أن يقرأها قبل أن يذهب إلى المكان الذي يقصدونه. اكتشف الكثير الذي كان يجب أن يراه ويفعله. بطريقة ما، شعر بالأسف لأنه يكتشف أشياء معيّنة عن البلاد الآن، تمامًا كما كان يترك إيطاليا خلفه بعد زيارته الأولى والأخيرة دون شك.

وضع كتب الأدلة في حقيبته، وضع الحقيبة في الصندوق الذي فوق الرأس، نزع معطفه كي يستخدمه كشرشف. أطفأ الضوء وجلس هناك في المقصورة المظلمة وعيناه مغمضتان، آملًا أن يأتي النوم.

بعد ما بدا وقتًا طويلاً، وتمامًا حين اعتقد أن النعاس غلبه، بدأ القطار يبطئ. توقف في محطة صغيرة خارج بازل. وهناك، رجل متوسط العمر في بذلة سوداء، يعتمر قبعة، دخل المقصورة. قال الرجل شيئًا ما لميرز بلغة لم يفهمها، ثم وضع حقيبته الجلدية في الصندوق. جلس في الجانب

الآخر من المقصورة وعدّل كتفيه. ثم شدّ قبعته فوق عينيه. وفي الوقت الذي انطلق فيه القطار ثانية، نام الرجل وبدأ يشخر بهدوء. حسده ميرز. بعد بضع دقائق، فتح مسؤول سويسري باب المقصورة وأشعل الضوء. بالإنجليزية وبلغة ما أخرى افترض ميرز أنها الألمانيّة طلب المسؤول رؤية جوازَيْ سفرهما. دفع الرجل الذي مع ميرز في المقصورة قبعته إلى الخلف، طرفَ بعينيه، ومدّ يده إلى جيب معطفه. تفحّص الموظّف جواز السفر، نظر إلى الرجل بدقة وأعاد إليه الوثيقة. سلّم ميرز جواز سفره. قرأ الموظف المعطيات، وفحص الصورة، ثم نظر إلى ميرز قبل أن يهزّ رأسه وأعاد له الجواز. أطفأ الضوء وهو يخرج. الرجل الذي يجلس مقابل ميرز أنزل القبعة فوق عينيه ومدّد رجليه. افترض ميرز أنه سينام مباشرة، وشعر بالحسد مرة ثانية.

بقي مستيقظًا بعد ذلك وبدأ يفكّر باللقاء مع ولده الذي يبعد الآن بضع ساعات فحسب. كيف يتصرّف حين يشاهد الفتى في المحطة؟ هل يجب أن يعانقه؟ شعر بالقلق من هذا الاحتمال؟ أو هل يجب فقط أن يمدّ يده، ويبتسم كما لو أن تلك الأعوام الثمانية لم تحدث قط، ثم يربت على كتف الولد؟ ربما سيقول الولد بعض الكلمات: تسرّني رؤيتك. كيف كانت رحلتك؟ وسيقول ميرز شيئًا ما. والواقع أنه لا يعرف ما الذي سيقوله.

سار المفتش الفرنسي عابرًا المقصورة. نظر إلى ميرز والرجل الذي ينام قبالته. إن هذا المفتش نفسه ثقب بطاقتيهما من قبل، فأدار ميرز رأسه وعاد إلى النظر من النافذة. بدأ مزيدٌ من المنازل بالظهور. لكن لم يكن هناك أسوار الآن، فالمنازل أصغر وبعضها أقرب إلى بعض. في الحال، تأكّد ميرز من أنه سيرى قرية فرنسية. كان الضباب ينجلي. وأطلق

القطار صافرته وأسرع عابرًا معبرًا حيث رُفع حاجز. ورأى فتاة شابة شعرها مدبّس إلى الأعلى وترتدي كنزة، تقف مع دراجتها الهوائية وهي تراقب السيارات تعبر.

كيف هي أمك؟ يمكن أن يسأل الولد بعد أن يسيرا قليلًا بعيدًا عن المحطة. ما الذي تسمعه من أمك؟ وللحظة وحشية، خطر لميرز أنها يمكن أن تكون ميتة. لكنه فهم عندئذ أن هذا ليس صحيحًا، وكان لا بدّ أن يسمع شيئًا لو حصل هذا بطريقة أو أخرى. عرف أنه لو ترك نفسه يواصل التفكير في هذه الأمور فإن قلبه سيتحطّم. زرّر الزرّ العلوي من قميصه وثبّت ربطة عنقه. وضع معطفه على المقعد الذي يليه. ربط حذاءه، نهض، وسار فوق ساقي الرجل النائم. خرج من المقصورة.

اضطر ميرز أن يضع يده على النوافذ على طول الممرّ كي يوازن نفسه وهو يتقدّم نحو نهاية المقصورة. أغلق باب المرحاض الصغير وأقفله. ثم فتح المياه وغسل وجهه. تحرك القطار في منحنى، وحافظ على السرعة نفسها، وأمسك ميرز بالمغسلة كي يتوازن.

جاءته الرسالة من الولد قبل شهرين. كانت موجزة. كتب قائلًا إنه يعيش في فرنسا وبدأ دراسته العام الماضي في الجامعة في ستراسبورغ. لم تكن هناك معلومات أخرى عما استحوذ عليه كي يذهب إلى فرنسا، أو ما الذي فعله أثناء تلك الأعوام قبل فرنسا. وتذكر ميرز أن الفتى لم يذكر أمه في رسالته، لم يذكر كلمة واحدة عن وضعها وأين هي. لكن، بشكل مُبهَم، ختم الفتى الرسالة بكلمة "أحبك،" وفكّر ميرز في هذا وقتًا طويلًا. أخيرًا، ردّ على الرسالة. وبعد بعض التفكير، كتب ميرز قائلًا إنه كان يفكر لبعض الوقت في القيام برحلة إلى أوروبا. هل يحب الفتى أن يلتقي به في المحطة في ستراسبورغ؟ وقّع رسالته وكتب "مع حبّي، والدك." ردّ عليه

الفتى ثم قام بترتيباته. أذهله أنه لم يكن هناك في الواقع أحد، باستثناء سكرتيرة وبعض شركاء العمل، شَعَر أنه من الضروري أن يخبرهم أنه مسافر. دبّر إجازة ستة أسابيع من شركة الهندسة التي يعمل فيها، وقرّر أنه سيستخدم كلّ هذا الوقت الذي أمّنه في هذه الرحلة. شعر بالسعادة أنه فعل ذلك، رغم أنه الآن لا ينوي أن يمضي كل هذا الوقت في أوروبا. ذهب أوّلًا إلى روما. لكن بعد الساعات القليلة الأولى، وفيما كان يتجول وحده في الشوارع، شعر بالأسف أنه لم يرتب الأمر مع مجموعة. كان وحيدًا. ذهب إلى البندقية، المدينة التي قال هو وزوجته كثيرًا إنهما سيزورانها. لكن البندقية أشعرته بخيبة الأمل. رأى رجلًا بذراع واحدة يأكل حبّارًا مقليًّا، ورأى أبنية متّسخة مبقّعة بالمياه في جميع الأمكنة التي نظر فيها. استقلّ القطار إلى ميلانو، حيث ذهب إلى فندق أربع نجوم وأمضى الليل يشاهد مباراة كرة قدم في تلفزيون سوني ملوّن إلى أن انقطع بثّ المحطة. نهض صباح اليوم التالي وتجول في المدينة إلى أن حان وقت الذهاب إلى المحطة. خطّط أن تكون زيارته إلى ستراسبورغ تتويجًا لرحلته. وبعد يوم أو يومين سيرى كيف تمر الأمور، سيسافر إلى باريس ثم يعود بالطائرة إلى الوطن. كان متعبًا من محاولاته أن يجعل الغرباء يفهمون ما يقول، وسيكون مسرورًا بالعودة.

حاول أحدهم أن يفتح باب المرحاض. أنهى ميرز إدخال قميصه تحت البنطال. ثبّت حزامه. ثم فتح الباب، ومتأرجحًا مع حركة القطار، سار عائدًا إلى مقصورته. حين فتح الباب لاحظ على الفور أن معطفه نُقل من مكانه. كان موضوعًا على مقعد مختلف عن الذي تركه عليه. شعر أنه دخل في موقف غريب وقد يكون خطيرًا. بدأ قلبه يخفق حين التقط المعطف. وضع يده في الجيب الداخلي وأخرج جواز السفر. كان

يحمل المحفظة في جيب بنطاله الخلفي. وهكذا ما زال يملك محفظته وجواز سفره. فتش جيوب المعطف الأخرى. ما كان مفقودًا هو الهدية التي اشتراها للولد: ساعة يد يابانية مرتفعة الثمن اشتراها من حانوت في روما. كان يحمل الساعة في جيب معطفه الداخلي لحمايتها. والآن اختفت الساعة.

قال للرجل المسترخي في مقعده، الذي يمدّد رجليه ويدفع القبعة فوق عينيه: "عفوًا، عفوًا." دفع الرجل القبعة إلى الخلف وفتح عينيه. استقام ونظر إلى ميرز. كانت عيناه كبيرتين. ربما كان يحلم، وربما لا. قال ميرز: "هل رأيت أحدًا يدخل هنا؟"

كان من الواضح أن الرجل لم يفهم ما قاله ميرز. واصل التحديق فيه بما اعتبره ميرز نظرة عدم الفهم الكليّة. لكن ربما كان شيئًا آخر، فكّر ميرز. ربما كانت النظرة تموّه المكر والخداع. هزّ ميرز معطفه كي يركّز انتباه الرجل. ثم وضع يده في الجيب وفتّش. رفع كمه وأظهر للرجل ساعة يده. نظر الرجل إلى ميرز ثمّ إلى ساعته. بدا مرتبكًا. نقر ميرز على وجه ساعته. وضعه يده الأخرى في جيب معطفه وقام بإيماءة بأنه يبحث عن شيء ما. أشار ميرز إلى الساعة مرّة أخرى وهزّ أصابعه، آملًا أن يشير إلى أن ساعة اليد طارت من الباب.

استهجن الرجل وهزّ رأسه.

"اللعنة،" قال ميرز محبطًا. ارتدى معطفه وخرج إلى الممرّ. لم يكن في وسعه البقاء في المقصورة دقيقة أخرى. خاف من احتمال أن يضرب الرّجل. نظر إلى أوّل الممرّ وآخره آملًا أن يستطيع رؤية اللص والتعرف عليه. لكن لم يكن هناك أحد. ربما لم يأخذ الرجل الذي يشاركه المقصورة الساعة. ربما شخص آخر، الرجل الذي جرّب فتح باب

المرحاض، مر قُرب المقصورة ورأى المعطف والرجل النائم، ففتح الباب وفتش الجيوب، أغلق الباب ورحل ثانية.

سار ميرز ببطء إلى نهاية القطار، محدّقًا في المقصورات الأخرى. لم تكن مقصورات الدرجة الأولى مكتظة بل كان في كل واحدة منها شخص أو اثنان. كان معظمهم نائمين، أو بدوا هكذا. أعينهم مغمضة ورؤوسهم مسندة إلى المقاعد. في إحدى المقصورات، رجل في مثل سنه، جلس قرب نافذة ينظر إلى الريف. حين توقف ميرز أمام الزجاج ونظر إليه التفت الرجل ونظر إليه بحدّة.

عبر ميرز إلى قسم الدرجة الثانية. المقصورات مكتظّة وفي كلّ منها ستة مسافرين والأشخاص كما استطاع أن يخمّن أكثر يأسًا. كان كثيرون منهم مستيقظين، فالعربات غير مريحة جدًا بحيث لا يمكنهم النوم، وأداروا أعينهم إليه حين مرّ. اعتقد أنهم أجانب. كان من الواضح له أنه إذا لم يكن الرجل الذي في مقصورته هو مَن سرق الساعة فإن اللصّ في هذه المقصورات. لكن ما الذي يستطيع فعله؟ لا أمل في هذا. اختفت الساعة. وهي في جيب أحدهم الآن. ولا يستطيع أن يأمل بجعل المفتّش يفهم ما حدث. وحتى لو استطاع، ماذا إذًا؟ شق طريقه عائدًا إلى مقصورته. نظر في الداخل ورأى أن الرجل تمدّد ثانية واضعًا قبعته فوق عينيه.

خطا ميرز فوق ساقي الرجل وجلس في مقعده قرب النافذة. شعر أنه دائخ من الغضب. كانوا عند أطراف المدينة الآن. المزارع وأرض الرعي أفسحت المجال الآن للمصانع ذات الأسماء غير القابلة للقراءة على واجهات المباني. بدأ القطار يبطئ. استطاع ميرز أن يرى السيارات في الشوارع، وأخرى تنتظر في صفّ عند المعابر كي يمر القطار. نهض وأنزل حقيبته. وضعها

في حضنه بينما كان ينظر من النافذة إلى ذلك المكان الكريه.
خطر له أنه لا يريد أن يرى الفتى في النهاية. صُدم من هذا الإدراك، وللحظة شعر بالاستصغار من هذه الحقارة. هزّ رأسه. في حياة كاملة من الأفعال الحمقاء، ربما كانت هذه الرحلة الشيء الأكثر حماقة الذي سبق أن فعله. لكن الحقيقة هي أنه لا يرغب في رؤية الصبي الذي فصله سلوكه منذ وقت طويل عن عواطف ميرز. تذكر فجأة وبوضوح كبير وجه الفتى حين حاول ضربه تلك المرّة، ومرّت موجة من المرارة على وجه ميرز. لقد اتهم هذا الفتى شبابَ ميرز، حوّل الفتاة الشابة التي غازلها وتزوجها إلى امرأة عصبية وكحولية كان الفتى يشفق عليها ويضايقها بالتناوب. وسأل ميرز نفسه لماذا سيقطع كل تلك المسافة كي يرى شخصًا يكرهه؟ لم يرغب في مصافحة الصبيّ، يد العدوّ، ولا أن يربت على كتفه ويتبادل معه حديثًا مختصرًا. لم يرغب أن يسأله عن أمه.
جلس في المقعد المواجه لاتجاه السَفَر فيما كان القطار يدخل المحطة. صدر إعلان بالفرنسية من نظام الاتصال الداخلي للقطار. الرجل الذي في الجانب الآخر من ميرز بدأ بالتحرك. عدّل قبّعته وجلس في المقعد منتصبًا فيما جاء كلام آخر بالفرنسية في مكبّر الصوت. لم يفهم ميرز أي شيء ممّا قيل. صار أكثر اهتياجًا حين أبطأ القطار ثم توقف. قرّر أنه لن يغادر المقصورة. سيجلس حيث هو إلى أن ينطلق القطار. حين ينطلق، سيكون فيه، ذاهبًا إلى باريس، وهذا ما سيكون عليه الأمر. نظر خارج النافذة بحذر، خائفًا من أن يرى وجه الصبيّ عبر الزجاج. لم يعرف ماذا سيفعل إن حدث هذا. كان خائفًا من احتمال أن يهزّ قبضته. رأى بعض الأشخاص على المنصة يرتدون المعاطف واللفاعات ويقفون إلى جانب حقائبهم، منتظرين الصعود إلى القطار. كان بعض الأشخاص الآخرين

ينتظرون، دون متاع، أيديهم في جيوبهم، وعلى ما يبدو يتوقعون شخصًا ما. لم يكن ولده واحدًا من الذين ينتظرون، لكن بالطبع لا يعني هذا أنه ليس في الخارج في مكان ما. حرّك ميرز الحقيبة عن حضنه إلى الأرض وثبَتَ في مقعده.

تثاءب الرجل الجالس قبالته ونظر من النافذة. ثم حوّل تحديقته إلى ميرز. نزع قبعته ومرر يده في شعره. ثم اعتمر القبعة، نهض على قدميه، وسحب حقيبته من الصندوق. فتح باب المقصورة. لكن قبل أن يخرج، التفت وأومأ إلى جهة المحطة.

"ستراسبورغ،" قال الرجل.

استدار عنه ميرز.

انتظر الرجل لحظة أخرى، ثم خرج إلى الممر بحقيبته، وبساعة اليد كما كان ميرز متأكدًا. لكن هذا أقل ما يقلقه الآن. نظرَ من نافذة القطار مرة أخرى. شاهدَ رجلًا بمئزر يقفُ في باب المحطة، يدخّن سيجارة. الرجل يراقب اثنين من رجال القطار يشرحان شيئًا لامرأة في تنورة طويلة تحمل طفلًا بين ذراعيها. المرأة تصغي ثم تهزّ رأسها ثم أصغت قليلًا أكثر. نقلت الطفل من ذراع إلى أخرى. واصل الرجلان الكلام. كانت تصغي. داعب أحد الرجلين الطفل تحت ذقنه. نظرت المرأة إلى الأسفل وابتسمت. نقلت الطفل ثانية وأصغت أكثر. رأى ميرز رجلًا وامرأة يتعانقان على المنصة البعيدة قليلًا عن عربته. ثم ترك الشابّ الشابة. قال شيئًا ما، التقط حقيبة سفره، وصعد القطار. راقبته المرأة وهو يذهب. رفعت يدًا إلى وجهها، لمست عينًا ثم الأخرى بقفا يدها. بعد دقيقة، شاهدها ميرز تنزل عن المنصة، عيناها مثبتتان على عربته، كما لو أنها تتبع شخصًا. نظر بعيدًا عن المرأة ونظر إلى الساعة الكبيرة فوق غرفة انتظار المحطة.

نظر إلى أعلى وأسفل المنصة. لم يكن الفتى في أي مكان في مدى البصر. من الممكن أنه أفرط في النوم أو من الممكن أنه غيّر رأيه أيضًا. على أي حال، شعر ميرز بالارتياح. نظر إلى الساعة مرة أخرى، ثم إلى الفتاة الشابة التي تُسرع إلى النافذة حيث يجلس. انسحب ميرز إلى الخلف وكأنها ستضرب الزجاج.

انفتح باب المقصورة. أغلق الشاب الذي رآه في الخارج الباب خلفه وقال: بونجور. ودون أن ينتظر جوابًا رمى حقيبة سفره في الصندوق فوق المقاعد وخطا نحو النافذة. "اعذرني." فتح النافذة. قال: "ماري." بدأت الشابة تبتسم وتبكي في الوقت نفسه. رفع الشاب يديها وبدأ يقبّل أصابعها.

نظر ميرز بعيدًا وكزّ أسنانه. سمع الصيحات الأخيرة لموظّفي القطار. صفر أحدهم. في الحال، بدأ القطار يبتعد عن المنصة. ترك الشاب يدي الفتاة، لكنه واصل التلويح لها فيما كان القطار يتدحرج إلى الأمام.

لكن القطار لم يسِر إلّا مسافة قصيرة، إلى الجوّ المفتوح لفناء سكة الحديد، ثم شعر ميرز أنه يتوقف توقّفًا مفاجئًا. أغلق الشاب النافذة وذهب إلى المقعد الذي قُرب الباب. تناول صحيفة من معطفه وبدأ يقرأ. نهض ميرز وفتح الباب. ذهب إلى نهاية الممر، حيث كانت العربات متصلة معًا. لم يعرف لماذا توقف القطار. ربما حدث خطأ. سار إلى النافذة. كان كل ما استطاع رؤيته نظامًا معقدًا من المسارات حيث تُصنع القطارات، وتُنزع العربات أو تُنقل من قطار إلى آخر. تراجع عن النافذة. قالت اللافتة التي على باب العربة التالية "ادفع." ضرب ميرز اللافتة بقبضته، فانزلق الباب منفتحًا. كان في عربة الدرجة الثانية مرّة أخرى. عبر صفًّا طويلًا من المقصورات المليئة بالناس الذين يجلسون كما لو

أنهم يستعدون لرحلة طويلة. كان في حاجة إلى أن يعرف من أحد ما إلى أين سيذهب القطار. لقد فهم، في الوقت الذي اشترى فيه البطاقة، أن القطار إلى ستراسبورغ يتابع إلى باريس. لكنه شعر أنه سيكون من المذلّ أن يضع رأسه داخل إحدى المقصورات ويقول: "باري...؟" أو مهما كانت طريقة لفظهم لها، كما لو أنه يسأل ما إذا كانوا قد وصلوا إلى جهة معيّنة. سمع قعقعة صاخبة، وتراجع القطار قليلاً، كان في وسعه أن يرى المحطة ثانية، وفكّر مرة أخرى في ولده. ربما يقف هناك في الخلف، فاقدًا أنفاسَه من اندفاعه إلى المحطة ويتساءل ما الذي حصل لوالده. هزّ ميرز رأسه.

صرّت العربة التي كان فيها وأنّت تحته، ثم علق شيء وسقط بقوة في المكان. نظر ميرز إلى الخارج، إلى متاهة المسارات، وأدرك أن القطار بدأ يتحرّك ثانية. استدار وأسرع إلى نهاية العربة وعبر إلى العربة التي كان يسافر فيها. لكن الرجل الذي مع الصحيفة كان قد رحل. ورحلت حقيبة ميرز. لم تكن عربته في النهاية. أدرك مجفلًا أنهم ربما فصلوا عربته بينما كان القطار في المحطة وربطوا عربة درجة ثانية بالقطار. كانت العربة التي وقف فيها مليئة تقريبًا برجال صغار سود البشرة يتحدثون بسرعة بلغة لم يسمعها ميرز من قبل. أشار إليه أحد الرجال أن يدخل. دخل ميرز إلى المقصورة وأفسح الرجال مجالًا له. بدا كأن هناك جوًا مرحًا في المقصورة. ضحك الرجل الذي أشار إليه وربت على المكان الذي يليه. جلس ميرز وظهره إلى مقدمة القطار. بدأ الريف الذي خارج النافذة يمرّ أسرع فأسرع. للحظة، شكل ميرز انطباعًا عن المشهد الطبيعي الذي يهرب منه. إنه ذاهب إلى مكان ما، كان يعرف هذا. وإذا كان الاتجاه الخطأ، فإنه سيكتشف هذا عاجلًا أم آجلًا.

استند إلى المقعد وأغمض عينيه. واصل الرجال حديثهم وضحكهم. جاءته أصواتهم كما لو من مسافة. وصارت الأصوات في الحال جزءًا من حركات القطار، وبالتدريج شعر ميرز بأنه حُمل، ثم سُحب، إلى النوم.

شيء صغير جيّد

قادت السيارة إلى المخبز في مركز التسوّق في أصيل يوم سبت. وبعد أن تفحّصت مصنّفًا يحتوي على صور قوالب كعك، طلبتْ الشوكولاتة، التي يفضّلها الطفل. الكعكة التي اختارتْها مزيّنة بمركبة فضائية ومنصّة إطلاق تحت رشّة من نجوم بيضاء، وكوكب مصنوع من بُقَع حمراء اللون في الطرف الآخر. سيُكتب اسمه "سكوتي" بأحرف خضراء تحت الكوكب. أصغى الخبّاز، الذي كان رجلًا مسنًّا بعنق سمين، دون أن يقول أي شيء حين أخبرته أن الطفل سيبلغ الثامنة الاثنين القادم. يرتدي الخباز رداء أبيض بدا كمثل روب. الأحزمة تمر تحت ذراعيه وتلتف إلى الخلف ثم تعود إلى الأمام ثانية، حيث تلتئم تحت خصره الثقيل. مسح يديه بمئزره حين أصغى إليها. أبقى عينيه على الصور وتركها تتحدث. تركها تأخذ وقتها. لقد جاء لتوّه إلى العمل وسيظلّ هنا طوال الليل، يخبز، ولم يكن مستعجلًا.

قدمت اسمها للخباز، آن وايس، ورقم هاتفها. سيكون قالب الكعك جاهزًا صباح الاثنين، تمامًا خارج الفرن، قبل وقت طويل من حفلة الطفل في ظهيرة ذلك اليوم. لم يكن الخبّاز لبقًا. لم يحصل مزاح بينهما، فقط الحد الأدنى من تبادل الكلمات، والمعلومات الضرورية. لم ترتح له،

ولم يعجبْها ذلك. حين انحنى فوق الطاولة وقلم الرصاص في يده، درست ملامحه القاسية وتساءلت إن سبق وفعل شيئًا آخر في حياته إلى جانب كونه خبازًا. كانت أمًّا وعمرها ثلاثة وثلاثون عاماً، وبدا لها أن شخصًا في سنّ الخباز هو كبير بما يكفي لأن يكون في عُمر والدها، أي يجب أنّه قد حظي بأطفال، وعاشَ هذه الفترة الخاصّة من قوالب الكعك وحفلات عيد الميلاد. لا بدّ أن يكون هذا قد حدث، كما اعتقدت. لكنه أبدى فظاظة معها، لم يتواقح، كان فظًا فحسب. تخلّت عن محاولة مصادقته. نظرت إلى خلفية المخبز فرأت طاولة خشبية ثقيلة وطويلة بمقالي فطائر من الألمنيوم مكوّمة في أحد الأطراف؛ وإلى جانب الطاولة حاوية معدنية مليئة بالرفوف الفارغة. هناك فرن ضخم. وتصدر من الراديو موسيقا ريفية غربية.

أنهى الخباز كتابة المعلومات على البطاقة الخاصة بالطلب، وأغلق المصنف. نظر إليها وقال: "صباح الاثنين." شكرتْهُ وقادت السيارة إلى المنزل.

في يوم الاثنين، كان فتى عيد الميلاد يسير إلى المدرسة مع ولد آخر. مرّرا علبة رقاقات بطاطا بينهما، وحاول فتى عيد الميلاد اكتشاف ما كان صديقه ينوي أن يقدّم له في عيد الميلاد في بعد الظهر ذاك. وبدون أن ينظر، ابتعد فتى عيد الميلاد عن الرصيف عند تقاطع فصدمته سيارة على الفور. سقط على جانبه ورأسه في قناة التّصريف، وقدماه ناتئتان على الطريق. كانت عيناه مغمضتين، لكن ساقيه تحرّكتا جيئة وذهابًا كما لو أنه يحاول أن يتسلّق شيئًا. أسقط صديقه رقاقات البطاطا وبدأ بالصراخ. ابتعدت السيارة مئة قدم ثم توقّفت في منتصف الطريق. نظر

الرجل الذي وراء المقود من فوق كتفه إلى الخلف. انتظر إلى أن وقف الفتى دون اتّزان على قدميه. تمايل الولد قليلًا وقد بدا دائخًا، لكنه كان سليمًا. أدار السائق السيارة من جديد وتابع طريقه.

لم يبك فتى عيد الميلاد، لكن لم يكن عنده أي شيء يقوله أيضًا. لم يجب حين سأله صديقه كيف شعر حين صدمته سيارة. سار إلى المنزل، وذهب صديقه إلى المدرسة. لكن بعد أن وصل فتى عيد الميلاد إلى المنزل وروى لأمه ما حدث. تجلس إلى جانبه على الأريكة، وتمسك يديه في حضنها، وتقول: "سكوتي، يا حبيبي، هل أنت متأكد من أنك على ما يرام؟" معتقدة أنها يجب أن تتصل بالطبيب على أيّة حال. استلقى فجأة على الأريكة، أغمض عينيه ونام. وحين لم تستطع إيقاظه، أسرعت إلى الهاتف واتصلت بزوجها في العمل. طلب منها هوارد أن تبقى هادئة ثم اتصل بسيارة إسعاف للطفل وذهب إلى المستشفى بنفسه.

أُلغيتْ حفلة عيد الميلاد بالطبع. كان الطفل في المستشفى مصابًا بارتجاج خفيف في الدماغ ويعاني من صدمة. كان يتقيّأ، ودخل سائل في رئتيه يجب أن يُضخّ إلى الخارج في بعد الظهر ذاك. والآن بدا ببساطة أنه في نوم عميق ولكن لا يوجد كوما، كما أكد الدكتور فرانسيس حين رأى الذعر في عيني الوالدين. في الساعة الحادية عشرة في تلك الليلة، حين بدا الطفل كأنه يستريح بشكل جيد بما يكفي بعد كثير من الأشعة والعمل المخبري، كانت المسألة فقط أن يستيقظ وينتعش، غادر هوارد المستشفى. كان هو وآن مع الطفل في المستشفى منذ ذلك الأصيل، وسيذهب برهة إلى المنزل كي يستحم ويغيّر ملابسه. قال: "سأعود بعد ساعة". هزّت رأسها وقالت: "هذا رائع. سأكون على ما يرام هنا." قبّلها على جبينها، وتلامسا بالأيدي. جلست على الكرسي إلى جانب السرير ونظرت إلى الطفل. كانت تنتظره

كي يستيقظ ويكون بخير. عندئذ تستطيع أن تبدأ بالاسترخاء.
ساق هوارد سيّارته إلى المنزل من المستشفى. سلك الشوارع المبللة والمظلمة بسرعة كبيرة، ثم انتبه إلى نفسه وأبطأ. لقد سارت حياته بهدوء حتى الآن مما أشعره بالرضا: الكلية، الزواج، عام آخر في الكلية من أجل درجة متقدمة في إدارة الأعمال، شراكة جديدة في شركة استثمار، الأبوّة. كان سعيداً، وحتى الآن، محظوظاً، ويعرف هذا. والداه ما زالا حيّين، وأخوته وشقيقاته في وضع جيد، وانطلق أصدقاؤه في الكلية كي يحتلوا أمكنتهم في العالم. كان حتى الآن بمنأى عن أي أذى، عن تلك القوى التي كان يعرف أنها موجودة، التي تستطيع أن تشلّ الرجل أو تسقطه إذا كان الحظ سيئاً، إذا انقلبت الأشياء على نحو مفاجئ. توقف في المدخل الخاص وصفّ السيارة. بدأت رجله اليسرى بالارتجاف. جلس في السيارة دقيقة وحاول أن يتعامل مع الموقف الحالي بطريقة عقلانية. لقد صدمت سكوتي سيارة وهو في المستشفى، لكنه سيكون بخير. أغمض هوارد عينيه ومرر يده على وجهه. خرج من السيارة وذهب إلى الباب الأمامي. كان الكلب ينبح داخل المنزل. واصل الهاتف رنينه فيما كان يفتح قفل الباب ويتحسس بيده بحثًا عن زر الإضاءة. كان يجب ألا يغادر المستشفى، كان ينبغي ألا يفعل ذلك. "اللعنة،" قال ثم أجاب على الهاتف "لقد دخلتُ لتوي."
"ثمة قالب كعك هنا لم يأخذه أحد،" قال الصوت الذي على الطرف الآخر من الخط.
سأل هوارد: "ما الذي تقوله؟"
قال الصوت: "قالب كعك. قالب كعك بستة عشر دولاراً."
وضع هوارد السماعة على أذنه محاولًا أن يفهم. قال: "لا أعرف أي شيء عن قالب كعك. يا يسوع. ما الذي تتحدث عنه؟"

قال الصوت: "لا تقل لي هذا".
أغلق هوارد السماعة. ذهب إلى المطبخ وصبّ لنفسه بعض الويسكي. اتصل بالمستشفى. لكن وضع الطفل لم يتغيّر؛ كان لا يزال نائمًا. وفيما كان الماء ينسكب في الحوض، وضع هوارد الرغوة على ذقنه وحلق. كان قد تمدد لتوه في الحوض وأغمض عينيه حين رنّ الهاتف مرة ثانية. رفع نفسه، أمسك منشفة وأسرع عبر المنزل قائلاً: "غبي، غبي،" لأنه ترك المستشفى. لكن حين التقط السماعة وصاح: "آلو،" لم يكن هناك صوت في الطرف الآخر من الخط. ثم أغلق المتصل السماعة.

عاد إلى المستشفى بعد منتصف الليل بقليل. كانت آن جالسة على كرسي قرب السرير. نظرت إلى هوارد ثم نظرت إلى الطفل. بقيت عينا الصبي مغمضتين، وكان الرأس ما زال ملفوفًا بالضمادات. تنفّسُه هادئ ومنتظم. ومن جهاز فوق السرير عُلّقت زجاجة من الغلوكوز بأنبوب يمتدّ من الزجاجة إلى ذراع الفتى.
قال هوارد: "كيف هو؟ ما كل هذا؟" مشيرًا إلى الغلوكوز والأنبوب.
قالت: "هذه أوامر الدكتور فرانسيس. يحتاج إلى تغذية. يحتاج إلى الحفاظ على قوته. لا أفهم لماذا لا يستيقظ، يا هوارد، إذا كان على ما يرام".
وضع هوارد يده على قفا رأسها. مرّر أصابعه في شعرها. "سيكون على ما يرام. سيستيقظ بعد قليل. إن الدكتور فرانسيس يعرف ماذا يفعل".
وبعد قليل، قال: "ربما يجب أن تذهبي إلى البيت وترتاحي قليلًا. سأبقى هنا. فقط لا تردي على ذلك الشخص الكريه الذي يواصل الاتصال. أغلقي السماعة فوراً".

سألت: "من الذي يتصل؟"
"لا أعرف، مجرد شخص لا شيء يفعله أفضل من الاتصال بالناس. اذهبي الآن."
هزّت رأسها. قالت: "كلا. أنا بخير".
قال: "حقًّا. اذهبي وهلة، ثم عودي وتناوبي معي في الصباح. سيكون الأمر على ما يرام. ما الذي قاله الدكتور فرانسيس؟ قال إن سكوتي سيكون بخير. يجب ألا نقلق. إنه نائم فحسب الآن، هذا كل شيء".
فتحت ممرضة الباب. هزّت رأسها لهما وهي تتجه إلى طرف السرير. تناولت الذراع اليسرى من تحت الأغطية ووضعت إصبعها على الرسغ، عثرت على النبض، ثم نظرت إلى ساعتها. بعد وهلة قصيرة، أعادت الذراع إلى تحت الأغطية وسارت إلى قدم السرير، حيث كتبت شيئًا على حافظة مثبّتة إلى السرير.
"كيف هو؟" سألت آن. شعرت بيد هوارد ثقيلة على كتفها. كانت واعية لأصابعه التي تضغط عليها.
قالت الممرضة: "إنه مستقرّ." ثم قالت: "سيأتي الطبيب ثانية بعد وقت قصير. عاد الطبيب إلى المستشفى. يقوم بجولات الآن".
"طلبتُ منها أن تذهب إلى البيت وترتاح قليلًا" قال هوارد، "بعد أن يأتي الطبيب."
قالت الممرضة: "تستطيع أن تفعل هذا. أعتقد أنكما أنتما الاثنان يجب أن تشعرا بالحرية للقيام بذلك، إذا رغبتما." الممرضة امرأة اسكندنافية كبيرة بشعر أشقر. هناك لكنة في كلامها.
قالت آن: "سنرى ما يقوله الطبيب. أريد أن أتحدث مع الطبيب. لا أظن أنه يجب أن يواصل النوم هكذا. لا أعتقد أن هذه علامة جيدة." رفعت

يديها إلى عينيها وجعلت رأسها ينحني إلى الأمام قليلًا. اشتدت قبضة هوارد على كتفها، ثم ارتفعت يده إلى عنقها، حيث بدأت أصابعه تعجن العضلات هناك.

قالت الممرضة: "سيأتي الدكتور فرانسيس إلى هنا بعد بضع دقائق." ثم غادرت الغرفة.

حدّق هوارد في ولده فترة، الصدر الصغير يرتفع بهدوء وينزل تحت الأغطية. وللمرة الأولى منذ تلك الدقائق المريعة بعد اتصال آن به في المكتب، شعر بخوف حقيقي دبّ في أعضائه. هزّ رأسه. سكوتي بخير، لكن بدلًا من النوم في المنزل في سريره، ينام في سرير مستشفى بضمادات حول رأسه وأنبوب في ذراعه. لكن هذه المساعدة هي ما يحتاج إليه الآن.

دخل الدكتور فرانسيس وصافح هوارد، على الرغم من أنهما التقيا منذ بضع ساعات. نهضت آن عن الكرسي: "دكتور؟"

قال وهزّ رأسه: "آن، سنرى أوّلًا كيف وضعه،" قال الطبيب. سار إلى جانب السرير وقاس نبض الفتى. رفع جفنًا إلى الخلف ثم الآخر. كان هوارد وآن يقفان إلى جانب الطبيب ويراقبان. ثم رفع الطبيب الأغطية وأصغى إلى قلب الفتى ورئتيه بسماعته. ضغط بأصابعه هنا وهناك على البطن. حين انتهى ذهب إلى نهاية السرير ودرس الخريطة، ثم نظر إلى هوارد وآن.

قال هوارد: "كيف هو يا دكتور؟ ما المشكلة معه بالضبط؟"

قالت آن: "لماذا لا يستيقظ؟"

كان الطبيب رجلًا أنيقًا عريض الكتفين بوجه محمرّ إلى مصفرّ. يرتدي بذلة زرقاء من ثلاث قطع، ربطة عنق مخطّطة وثمة أزرار معدنية عاجية عند طرفي الكمّين. شعره الشائب ممشط على طرفي رأسه، وبدا كأنه

أتى لتوّه من حفلة. قال الطبيب: "إنه بخير. لا شيء يدعو للقلق، يمكن أن يكون أفضل، على ما أعتقد. لكنه بخير. أرغب في أن يستيقظ. سيستيقظ في الحال." نظر الطبيب إلى الفتى ثانية. "سنعرف المزيد في غضون ساعتين، بعد نتائج بعض الاختبارات الإضافية. لكنه بخير، صدّقاني، باستثناء الكسر الشعري في الجمجمة. إنه مصاب بهذا."

قالت آنا: "آه، كلا."

"وقليل من الارتجاج في المخ كما قلت سابقًا. بالطبع تعرفون أنه مصاب بصدمة،" قال الطبيب. "أحيانًا ترون هذا في حالات الصدمة. هذا النوم".

قال هوارد: "لكنه بمنأى عن أي خطر حقيقي؟ قلتَ هذا قبل أن يدخل في الغيبوبة. لن تسمي هذه غيبوبة، هل ستسميها هكذا يا دكتور؟" ثم انتظر هوارد. نظر إلى الطبيب.

"كلا، لا أريد أن أدعوها غيبوبة،" قال الطبيب ثم نظر إلى الفتى مرة أخرى. "إنه في نوم عميق جدًا فحسب. إنه إجراء تجديدي يقوم به الجسد بنفسه. إنه بعيد عن أي خطر حقيقي، أنا متأكد من ذلك، نعم. لكننا سنعرف المزيد حين يستيقظ وتصدر نتائج الاختبارات الأخرى،" قال الطبيب.

قالت آنا: "إنها غيبوبة. من أنواعها".

قال الطبيب: "إنها ليست غيبوبة بعد، ليس بالضبط، على أي حال. لقد عانى من صدمة. في حالات الصدمة، هذا النوع من رد الفعل شائع بما يكفي؛ إنه رد فعل مؤقت على الصدمة الجسدية. غيبوبة. حسناً، إن الغيبوبة غياب للوعي عميق ومطوّل، شيء يمكن أن يتواصل أياماً، أو حتى أسابيع. إن سكوتي ليس في تلك المنطقة، على حدّ علمنا. أنا متأكد

من أنّ وضعه سيظهر تحسنًا في الصباح. أراهن أنه سيتحسن. سنعرف المزيد حين يستيقظ، الأمر الذي لن يستغرق طويلًا الآن. بالطبع، يمكن أن تفعلا ما يحلو لكما، ابقيا هنا أو اذهبا إلى المنزل بعض الوقت. لكن اشعرا بالحرية في مغادرة المستشفى فترة من الوقت إذا أردتما. أعرف أن هذا ليس سهلاً." حدق الطبيب بالفتى ثانية، راقبه، ثم التفت إلى آن وقال: "لا تقلقي، أيتها الأم الصغيرة. صدّقيني، إننا نفعل ما بوسعنا. إنها مسألة وقت إضافي قليل فحسب الآن." هزّ رأسه لها، صافح هوارد ثانية، ثم غادر الغرفة.

وضعت آن يدها على جبين الطفل. "على الأقل هو لا يعاني من الحمّى" قالت، "يا إلهي، إنه بارد جداً، يا هوارد؟ هل من المفترض أن يشعر هكذا؟ تحسّس رأسه".

لمس هوارد صدغي الفتى. أبطأ تنفّسه. "أعتقد أنه من المفترض أن يشعر بهذا الآن،" قال. "إنه يعاني من الصدمة، أتذكرين؟ هذا ما قاله الطبيب. كان الطبيب لتوه هنا. كان سيقول شيئًا لو أن سكوتي لم يكن على ما يرام".

وقفت آن هناك فترة أطول، محركة أسنانها على شفتيها. ثم سارت إلى كرسيها وجلست.

جلس هوارد على الكرسي التالي لكرسيها. تبادلا النظرات. أراد أن يقول شيئًا آخر ويُطمئنها، لكنه كان خائفًا أيضًا. أمسك يدها ووضعها في حضنه، وهذا جعله يشعر بالتحسّن، كون يدها هناك. التقط يدها وعصرها. ثم أمسك يدها فقط. جلسا هكذا فترة، يراقبان الفتى دون أن يتحدثا. كان يضغط يدها بين وهلة وأخرى. أخيرًا انتزعتْ يدها.

قالت: "كنتُ أصلي".

هزّ رأسه.

قالت: "اعتقدتُ تقريبًا أنّي نسيتُ لكنها جاءت إليّ. كان كلّ ما عليّ فعله هو أن أغمض عينيّ وأردد: ساعدنا من فضلك، يا إلهي! ساعدْ سكوتي، ثم كانت البقية سهلة. كانت الكلمات تمامًا هناك. ربما إذا صلّيت أيضًا،" قالت له.

قال: "لقد صلّيتُ. صلّيتُ هذا الأصيل، أعني بعد أن اتّصلتِ، بينما كنتُ أسوق إلى المستشفى. كنتُ أصلّي".

قالت: "هذا جيد." ولأول مرة شعرتْ أنهما كانا معًا في هذه المشكلة. أدركت مجفلةً أنه حتى الآن، كان الأمر يحدث لها ولسكوتي فحسب. لم تُدخل هوارد في الأمر رغم أنه هناك وثمة حاجة له طوال الوقت. شعرتْ بالسعادة أن تكون زوجته.

جاءت الممرضة نفسها وقاست نبض الفتى ثانية وفحصت التدفق من الزجاجة المعلّقة فوق السرير.

بعد ساعة جاء طبيب آخر. قال إن اسمه بارسونز، من قسم الأشعة. له شارب غزير. يرتدي حذاء بدون كعب، وقميصًا من الغرب الأميركي، وبنطال جينز.

قال لهما: "سننزله إلى الأسفل من أجل المزيد من الصور. نحتاج إلى صور أكثر ونريد أن نجري فحصًا دقيقًا بالأشعة فوق الصوتية".

قالت آن: "ما هذا؟ فحص؟" وقفت بين الطبيب والسرير. "اعتقدتُ أنكم قمتم بأخذ صور أشعة سينيّة".

قال: "أخشى أننا بحاجة إلى المزيد من الصور. لا داعي للذعر. نحن بحاجة إلى بعض الصور الإضافية، ونريد أن نجري فحصًا بالأشعة للدماغ".

قالت آن: "يا إلهي".

قال الطبيب الجديد: "هذا إجراء عادي جدًا في حالات كهذه. نحتاج أن نعرف على نحو مؤكد لماذا لم يستيقظ بعد. إنه إجراء طبي عادي، ولا شيء يدعو للذعر حياله. سننزله بعد بضع دقائق".
بعد وهلة، دخل ممرّضان إلى الغرفة بنقالة لها دواليب. شعرهما أسود، وبشرتهما سوداء ويرتديان ملابس بيضاء، تبادلا بضع كلمات بلغة أجنبية وهما يفكّان الطفل عن الأنبوب وينقلانه من سريره إلى النقالة. ثم نقلاه خارج الغرفة. دخل هوارد وآن في المصعد نفسه. حدقت آن إلى الصبيّ. أغمضتْ عينيها حين بدأ المصعد بالنزول. وقف الممرضان كُلٌّ على طرف من النقالة دون أن يقولا أي شيء، رغم أن أحدهما قام مرة بتعليق للآخر بلغتهما، وهزّ الرجل الآخر رأسه ببطء كردّ.
فيما بعد في ذلك الصباح، وفيما كانت الشمس تبدأ بإضاءة النوافذ في غرفة الانتظار خارج قسم الأشعة السينيّة، أخرجوا الطفل وأعادوه إلى غرفته. صعد هوارد وآن معه في المصعد نفسه مرة أخرى، ومرة أخرى احتلا مكانَيهما إلى جانب السرير.

انتظرا النهار كلّه، لكن الصبي لم يستيقظ. كان أحدهما يغادر الغرفة أحيانًا، ينزل الدرج إلى الكافتيريا كي يشرب القهوة. ثم، كما لو أنه يتذكر فجأة أو يشعر بالذنب، ينهض عن الطاولة ويسرع عائدًا إلى الغرفة. جاء الدكتور فرانسيس مرة أخرى في ذلك الأصيل وفحص الصبيّ ثمّ غادر بعد أن أخبرهما أنه يتحسن ويمكن أن يستيقظ في أيّ لحظة الآن. ممرضات، مختلفات عن اللواتي جئن البارحة، كن يأتين بين فترة وأخرى. ثم قرعت امرأة شابة من المخبر الباب ودخلت إلى الغرفة. ترتدي بنطالًا أبيض وبلوزة بيضاء وتحمل صينية صغيرة من الأشياء التي وضعتها على

المنضدة قرب السرير. وبدون أن تقول لهما أية كلمة، أخذت دمًا من ذراع الصبي. أغمض هوارد عينيه فيما كانت المرأة تعثر على المكان الصحيح في ذراع الفتى وتدفع الإبرة.

قالت آن للمرأة: "لا أفهم هذا".

قالت الشابة: "إنها أوامر الطبيب. أفعل ما يأمرونني به. يقولون اسحبي دمًا من هذا، فأسحب. ما مشكلته، بأية حال؟ إنه رائع".

قال هوارد: "صدمته سيارة. صدمته وهربت".

هزّت الشابة رأسها ونظرتْ ثانية إلى الفتى. ثم أخذت الصينية وغادرت الغرفة.

قالت آن: "لماذا لا يستيقظ؟ هوارد، أريد بعض الأجوبة من هؤلاء الناس".

لم يقل هوارد أي شيء. جلس مرة ثانية على الكرسي ووضع ساقًا فوق أخرى. حك وجهه. نظر إلى ولده ثم استقر على كرسيه، أغمض عينيه ونام.

سارت آن إلى النافذة ونظرتْ إلى مكان صف السيارات. خيّم الليل والسيارات تدخل وتخرج ومصابيحها مضاءة. وقفت أمام النافذة ويداها تمسكان حافّتها، وعرفتْ في قلبها أنهما يواجهان الآن شيئًا جديدًا وقاسيًا. كانت خائفة، وبدأت أسنانها تصطكّ إلى أن أحكمت شدّ فكّيها. رأت سيارة كبيرة تقف أمام المستشفى وشخصًا، امرأة في معطف طويل، تدخل إلى السيارة. تمنت لو أنها كانت تلك المرأة ويقودها شخص ما، أي شخص، بعيدًا إلى مكان آخر، مكان تجد فيه سكوتي بانتظارها حين تخرج من السيارة، مستعدًا أن يقول: "ماما!" ويتركها تضمه بين ذراعيها.

استيقظ هوارد بعد فترة قصيرة. نظر إلى الفتى مرة ثانية. ثم نهض عن الكرسي، تمدد، وذهب كي يقف قربها عند النافذة. حدّق كلاهما إلى باحة

صفّ السيارات. لم يقولا أي شيء. لكن بدا كأن كلاً منهما يشعر بدخيلة الآخر، كما لو أن القلق جعلهما شفافين بطريقة طبيعية على نحو تام.
فُتحَ الباب ودخل الدكتور فرانسيس. كان يرتدي بذلة مختلفة وربطة عنق هذه المرّة. شعره الشائب ممشط على طرفي رأسه، وبدا كما لو أنه حلق لتوّه. ذهب مباشرة إلى السرير وفحص الفتى. قال: "ينبغي أن يستيقظ الآن. لا يوجد سبب جيد لهذا فحسب. لكنّي أستطيع أن أخبركما بأننا جميعًا مقتنعون بأنه بعيد عن أي خطر. سنشعر جميعًا بالتحسن حين يستيقظ. لا يوجد سبب على الإطلاق لعدم استيقاظه. في الحال. آه، سيشعر بصداع رهيب حين يستيقظ. لكن جميع الأعراض والعلامات لديه جيدة وطبيعية."
قالت آن: "إذاً، هذه غيبوبة."
حكّ الطبيب خدّه الناعم وقال: "سندعوها هكذا في هذا الوقت، إلى أن يستيقظ. لكن لا بدّ أنك منهكة. هذا صعب. أعرف أن هذا ينطوي على صعوبة. اشعري بالحرية للخروج قليلًا. سيكون هذا جيدًا. سأضع ممرضة هنا في غيابك إذا شعرت بالتحسّن حيال الخروج. اخرجا وتناولا بعض الطعام".
قالت آن: "لا أستطيع أن آكل أيّ شيء".
قال الطبيب: "افعلا ما يطيب لكما. على أي حال، أردتُ أن أخبركما أن جميع العلامات جيدة، الاختبارات سلبية، لم يظهر أيّ شيء مطلقاً، وحالما يستيقظ سيكون على ما يرام".
قال هوارد: "شكرًا يا دكتور." صافحه مرة ثانية، ربت على كتف هوارد وخرج.
قال هوارد: "أفترض أن أحدنا يجب أن يذهب إلى المنزل ويطمئن على

الأمور. يحتاج سلاغ إلى الطعام".
قالت آن: "اتصل بأحد الجيران. اتصل بآل مورغانز. إن أي شخص سيطعم كلبًا إذا طلبت منه ذلك".
قال هوارد: "حسنًا." بعد فترة قال: "حبيبتي، لماذا لا تفعلين ذلك؟ لماذا لا تذهبين إلى المنزل وترين الوضع، ثم تعودين؟ سيكون هذا جيدًا لك. سأظل معه. يجب أن نحافظ على قوتنا من أجل ذلك. سنحتاج للبقاء هنا فترة حتى بعد أن يستيقظ".
قالت: "لماذا لا تذهب أنت؟ أطعمْ سلاغ. وأطعمْ نفسك".
قال: "سبق أن ذهبت. ذهبت ساعة وربع بالضبط. اذهبي إلى المنزل ساعة وارتاحي ثم عودي".
حاولت أن تفكّر في الأمر، لكنها كانت متعبة جدًا. أغمضتْ عينيها وحاولت أن تفكّر في المسألة مرة أخرى. بعد فترة، قالت: "ربما سأذهب بضع دقائق. ربما إذا لم أكن جالسة هنا أراقبه كل ثانية فإنه سيستيقظ ويكون على ما يرام. ربما سيستيقظ إذا لم أكن هنا. سأذهب إلى المنزل وأستحمّ وأرتدي ثيابًا نظيفة. سأطعم سلاغ وأعود".
قال: "ستكون الأمور على ما يرام فاذهبي إلى المنزل يا حبيبتي. سأراقب الأمور هنا." كانت عيناه محتقنتين بالدم وصغيرتين، كما لو أنه كان يشرب لوقت طويل. ثيابه مجعّدة. نبتت لحيته قليلًا. لمستْ وجهه، ثم أعادت يدها. فهمت أنه يريد أن يبقى وحده فترة، غير مضطر للحديث أو مشاطرة قلقه معها. التقطت محفظتها عن المنضدة، وساعدها في ارتداء المعطف.
قالت: "لن أغيب طويلاً".
قال: "اجلسي واستريحي قليلًا فحسب حين تصلين إلى المنزل. كلي شيئًا.

استحمّي. بعد أن تنتهي من الحمام اجلسي قليلًا واستريحي فحسب. سيكون هذا جيدًا جدًا لك، سترين. ثم عودي. لنتجنّب القلق. سمعتِ ما قاله الدكتور فرانسيس".

وقفت بمعطفها دقيقة محاولة أن تتذكر كلمات الطبيب، باحثة عن أية فوارق دقيقة، أي تلميح خلف كلماته غير ما قاله. حاولت أن تتذكر ما إذا لاحظَت أي تغيّر في تعابيره حين انحنى كي يفحص الطفل. تذكرت كيف تشكّلت ملامحه حين انحنى كي يفحص الطفل، حين رفع جفنيه ثم أصغى إلى تنفّسه.

ذهبت إلى الباب، حيث استدارت ونظرت إلى الخلف. نظرتْ إلى الطفل، ثمّ إلى الأب. هزّ هوارد رأسه. خطتْ خارج الغرفة وأغلقت الباب خلفها. عبرتْ في طريقها مكتب الممرضات ثم سارت إلى نهاية الممرّ، باحثة عن المصعد. في نهاية الممر انعطفت إلى اليمين ودخلت إلى غرفة انتظار حيث كانت أسرة من الزنوج تجلس على كراس من الأماليد المجدولة. هناك رجل متوسط العمر يرتدي قميصًا وبنطالًا خاكيين، وقبعة بيسبول مدفوعة إلى الخلف فوق رأسه. امرأة ضخمة ترتدي فستانًا منزليًا وشبشبًا مسترخية على أحد الكراسي. فتاة في سن المراهقة تلبس الجينز، شعرها مجدول في دزينة من الخصل تتمدّد على أحد الكراسي تدخن سيجارة، ساقاها فوق بعضهما عند الكاحلين. نظرت الأسرة إلى آن حين دخلت الغرفة. الطاولة الصغيرة منقّطة بلفافات الهامبرغر وأكواب الستايروفوم.

قالت المرأة الضخمة وهي ترفع نفسها: "فرانكلين، هل الأمر عن فرانكلين؟" اتسعت عيناها. أضافت المرأة: "أخبريني الآن أيتها السيدة. هل الأمر يتعلّق بفرانكلين؟" حاولت النهوض عن كرسيّها، لكن الرجل

وضع يده على ذراعها.
قالت: "هنا، هنا. إيفلن".
قالت آن: "أنا آسفة. أنا أبحث عن المصعد. ابني في المستشفى، والآن لا أستطيع العثور على المصعد".
قال الرجل وهو يشير بإصبعه: "إن المصعد في نهاية هذا الممر، انعطفي إلى اليسار".
سحبتْ الفتاة من سيجارتها ونظرتْ إلى آن. عيناها ضيّقتان كشقّ، وشفتاها العريضتان افترقتا ببطء حين أخرجتْ الدخان. أسندت المرأة السوداء رأسها على كتفها ونظرت بعيدًا عن آن، ولم تعد مهتمة.
"لقد صدمتْ سيارة ابني،" قالت آن للرجل. بدتْ وكأنها بحاجة إلى تقديم شرح عن نفسها. "يعاني من ارتجاج في المخ وشِعِر في الجمجمة، لكنه سيكون على ما يرام. إنه مصدوم الآن، لكنّه ربما دخل في غيبوبة أيضًا. وهذا ما يقلقنا في الحقيقة، الجزء المتعلق بالغيبوبة. سأخرج قليلاً، لكن زوجي بقي معه. ربما سيستيقظ في غيابي".
"هذا سيء جدًّا،" قال الرجل وغيّر موقع كرسيّه. هزّ رأسه. نظر إلى الطاولة، ثم نظر من جديد إلى آن. كانت ما تزال تقف هناك. قال: "إن ابننا فرانكلين على طاولة العمليات. جرحه أحدهم. حاول قتله. نشب شجار في حفلة. يقولون إنه كان يقف ويراقب فحسب ولم يزعج أحدًا. لكن هذا لا يعني شيئًا هذه الأيام. إنه على طاولة العمليات. نحن نأمل ونصلي فحسب، هذا كل ما نستطيع فعله الآن". حدّق إليها بثبات.
نظرت آن مرة ثانية إلى الفتاة التي كانت ما تزال تراقبها، وإلى المرأة الأكبر سنًّا، التي أخفضت رأسها، وأغمضت عينيها. رأت آن الشفتين تتحركان بصمت، تلفظان كلمات. كان لديها دافع كي تسأل ما هي تلك الكلمات.

أرادت أن تتحدث أكثر مع أولئك الأشخاص الذين ينتظرون نوع الانتظار نفسه مثلها. كانت خائفة، وكانوا خائفين. تشترك معهم في هذا. تود أن تقول شيئًا آخر عن الحادث، وتحدثهم أكثر عن سكوتي، أن ذلك حدث في يوم عيد ميلاده، الاثنين، وأنه ما زال غائبًا عن الوعي. لكنها لم تعرف كيف تبدأ. وقفت وهي تنظر إليهم دون أن تقول أي شيء إضافي.
سارت إلى أسفل الممر الذي أشار إليه الرجل وعثرت على المصعد. انتظرت دقيقة أمام الأبواب المغلقة، وما فتئت تتساءل إن كانت تفعل الصواب. ثم رفعت إصبعها ولمستْ الزرّ.

توقّفت في المدخل الخاص وأطفأت المحرك. أغمضتْ عينيها وأسندت رأسها إلى المقود دقيقة. أصغت لأصوات المحرك المتكتكة فيما كان يبرد. ثم خرجتْ من السيارة. كان بوسعها سماع الكلب وهو ينبح داخل المنزل. ذهبت إلى الباب الأمامي، الذي لم يكن مقفلًا. دخلت وأشعلت الأضواء ووضعت إبريق الماء على النار كي تعدّ الشاي. فتحت بعض علب طعام الكلب وأطعمت سلاغ في الرواق الخلفي. أكل الكلب بطريقة سريعة تدل على جوعه. واصل الجري إلى داخل المطبخ كي يرى إن كانت ستبقى. حين جلست على الأريكة كي تحتسي كوب الشاي رنّ الهاتف.
قالت حين أجابت: "نعم! آلو."
قال صوت رجل: "السيدة وايس." كانت الساعة الخامسة صباحاً، واعتقدت أنها سمعت صوت آلات أو تجهيزات من نوع ما في الخلفية.
قالت: "نعم، نعم، ما الأمر؟ أنا السيدة وايس. هذه هي. ما الأمر، من فضلك؟" أصغت لما هو في الخلفية أيًّا كان. "هل هو سكوتي، بحق يسوع؟"
قال صوت الرجل: "سكوتي. نعم، يتعلق الأمر بسكوتي. يتعلق بسكوتي،

تلك المشكلة. هل نسيت الأمر عن سكوتي؟" قال الرجل ثم أغلق السماعة.

اتصلت بالمستشفى وطلبت الطابق الثالث. طلبت معلومات عن ابنها من الممرضة التي ردّت. ثم طلبت أن تتحدث مع زوجها. قالت إن الأمر طارئ. انتظرت، مقلبة بطاقة الهاتف في يدها. أغمضت عينيها وشعرت بألم في معدتها. يجب أن تجبر نفسها على تناول الطعام. دخل سلاغ من الرواق الخلفي واستلقى عند قدميها. كان يهزّ ذيله. شدّت أذنه فيما كان يلعق أصابعها. كان هوارد على الخط.

قالت: قالت وهي تلفّ سلك الهاتف بيدها وتبكي: "اتصل شخص ما. إن الأمر يتعلق بسكوتي".

قال لها هوارد: "سكوتي بخير. أعني أنه ما زال نائمًا. لم يحدث أي تغيير. دخلت الممرضة مرتين منذ أن ذهبتِ. ممرضة أو طبيب. إنه على ما يرام".

قالت له: "اتصل هذا الرجل وقال إن الأمر يتعلق بسكوتي".

"حبيبتي، استريحي قليلاً، أنت في حاجة إلى الراحة. لا بدّ أنه الشخص نفسه الذي اتصل بي. انسي الأمر فحسب. وتعالي إلى هنا بعد أن ترتاحي. ثم سنتناول الفطور معًا".

قالت: "فطور، لا أريد أيّ فطور".

قال: "تعرفين ما أعنيه. عصير، شيء ما. لا أعرف. لا أعرف أيّ شيء يا آن. يا يسوع، أنا لست جائعًا أيضًا. آن، من الصعب التحدث الآن. أنا أقف في المكتب. سيأتي الدكتور فرانسيس في الساعة الثامنة صباحًا. سيكون لديه شيء يقوله لنا آنذاك، شيء أكثر تحديدًا. هذا ما قالته إحدى الممرضات. لا تعرف أكثر من هذا. في الثامنة. تعالي إلى هنا قبل

الثامنة. في غضون ذلك أنا هنا وسكوتي على ما يرام. ما زال على الحالة نفسها."

قالت: "كنت أتناول كوبًا من الشاي حين رنّ الهاتف. قال إنه عن سكوتي. هناك ضجة في الخلفية. هل كان هناك ضجة في خلفية المكالمة التي تلقّيتها يا هوارد؟"

قال: "لا أذكر. ربما سائق السيارة، ربما مريض نفسيًا وعرف ما حدث لسكوتي. لكنّي هنا معه. استريحي فحسب كما كنت ستفعلين. استحمي وتعالي في السابعة، وسنتحدث مع الطبيب سوية حين يصل إلى هنا. سيكون الأمر على ما يرام، يا حبيبتي. أنا هنا، وهناك ممرضات وأطباء موجودون. يقولون إن حالته مستقرة".

قالت: "أنا خائفة جدًّا".

فتحت الماء، تعرّت ودخلت في حوض الاستحمام. اغتسلت ونشّفت نفسها بسرعة، دون أن تأخذ الوقت كي تغسل شعرها. ارتدت ملابس داخلية نظيفة، وبنطالًا قطنيًا وكنزة. دخلت إلى غرفة الجلوس حيث نظر الكلب إليها إلى الأعلى وترك ذيله يضرب الأرض مرة أخرى. كان الضوء قد بدأ ينتشر في الخارج وخرجت إلى السيارة.

ساقت إلى باحة صفّ السيارات في المستشفى وعثرت على مكان قريب من الباب الأمامي. شعرت بأنها كانت بطريقة ما غامضة مسؤولة عمّا حدث للصبي. تركت أفكارها تنتقل إلى العائلة الزنجية. تذكرت اسم فرانكلين والطاولة التي كانت مغطاة بأوراق الهامبرغر، والفتاة المراهقة التي حدقتْ إليها وهي تسحب من سيجارتها. "ليس لديك أطفال،" قالت لصورة الفتاة حين دخلت الباب الرئيسي للمستشفى، "كُرمى لله لا تنجبي".

استقلت المصعد إلى الطابق الثالث مع ممرضتين ذاهبتين إلى أداء واجبهما. كان صباح يوم الأربعاء، والساعة قبل السابعة ببضع دقائق. سمعتْ نداء للدكتور ماديسون حين فُتح الباب في الطابق الثالث. سارت وراء الممرضتين اللتين انعطفتا إلى الجهة الأخرى وتابعتا المحادثة التي قاطعتْها حين دخلت المصعد. سارت عبر الممر إلى المكان الصغير المظلل حيث كانت العائلة الزنجية تنتظر. كانوا قد رحلوا الآن، لكن الكراسي مبعثرة بطريقة توحي أن الأشخاص قفزوا عنها قبل دقيقة. الطاولة منقّطة بالأكواب والأوراق نفسها، والمنفضة مليئة بأعقاب السجائر. توقفت عند مكتب الممرضات. ثمة ممرضة تقف خلف الطاولة، تمشط شعرها وتتثاءب.

قالت آن: "كان هنا فتى زنجيّ في الجراحة ليلة أمس. اسمه فرانكلين. كانت عائلته في غرفة الانتظار. أودّ أن أعرف عن وضعه".

نظرت الممرضة التي تجلس وراء الكاونتر إلى الأعلى رافعة بصرها عن الجدول الذي أمامها. رنّ الهاتف ورفعت السماعة، لكنها أبقت عينها على آن.

"لقد مات،" قالت الممرضة. كانت تحمل فرشاة الشعر وتواصل النظر إليها. "هل أنت صديقة للعائلة، أم ماذا؟"

قالت آن: "التقيت بالعائلة ليلة أمس. ابني في المستشفى. أظن أنه يعاني من صدمة. لكننا غير متأكدين ما هي المشكلة. أردت أن أستفسر فقط عن فرانكلين، هذا كل ما في الأمر. شكرًا لك". سارت نحو أسفل الممر. انفتحت أبواب المصعد التي لها لون الحائط نفسه، ورجل نحيل أصلع يرتدي بنطالًا أبيض وحذاءً قماشيًّا أبيض يدفع عربة ثقيلة من المصعد. لم تلاحظ هذه الأبواب ليلة أمس. دفع الرجل العربة عبر الممرّ وتوقف

أمام الغرفة الأقرب إلى المصعد ودقّق في حافظة، ثم مدّ يده وأخرج صينية من العربة. دقّ بخفّة على الباب ودخل الغرفة. استطاعت أن تشمّ الروائح غير الطيّبة للطعام الساخن حين مرت قرب العربة. أسرعت دون أن تنظر إلى أي من الممرضات ودفعت الباب إلى غرفة طفلها.

كان هوارد يقف أمام النافذة ويداه خلف ظهره. استدار حين دخلت.

"كيف هو؟" قالت. سارت إلى السرير. رمت محفظتها على الأرض إلى جانب المنضدة. بدا لها أنها غابت وقتًا طويلًا. لمست وجه الفتى.

"هوارد؟"

قال فرانسيس: "كان الطبيب فرانسيس هنا منذ وهلة،" نظرت إليه بتفحّص وظنّت أن كتفيه ناتئان قليلًا.

قالت بسرعة: "اعتقدت أنه لن يأتي حتى الثامنة هذا الصباح".

"كان معه طبيب آخر. طبيب أمراض عصبية".

قالت: "طبيب أمراض عصبية؟"

هزّ هوارد رأسه. كتفاه ناتئان. بوسعها أن ترى ذلك. "ماذا قالا، يا هوارد؟ بحق المسيح، ماذا قالا؟ ما الأمر؟"

"قالا إنهما سينزلانه كي تُجرى عليه مزيد من الاختبارات، يا آن. يعتقدان أنهما سيجريان عملية يا حبيبتي. حبيبتي، سيجريان عملية. لا يستطيعان معرفة لماذا لا يستيقظ. إن الأمر أكثر من صدمة وارتجاج، يعرفان هذا الشيء الآن. إنها جمجمته، الشقّ، الأمر يتعلق بهذا، كما يعتقدان. ولهذا سيجريان عملية. حاولتُ الاتصال بكِ، لكنك كنت قد غادرت المنزل كما خمّنت".

قالت: "آه يا إلهي. من فضلك يا هوارد، من فضلك،" وأمسكت ذراعيه.

قال هوارد: "انظري! سكوتي! انظري، يا آن!" أدارها نحو السرير.

فتح الفتى عينيه، ثم أغمضهما. فتحهما ثانية. حدقت العينان بشكل مستقيم نحو الأمام دقيقة، ثم تحرّكتا ببطء في رأسه إلى أن استقرّتا على هوارد وآن، ثم سافرتا بعيدًا.

"سكوتي،" قالت أمه، متحركة إلى السرير.

قال والده: "هيه، سكوت، هيه، يا ولدي".

انحنيا فوق السرير. وضع هوارد يد الطفل في يده وبدأ يربت ويضغط. انحنت آن فوق الصبي وقبّلت جبينه مرة بعد أخرى. وضعتْ يديها على جانبي وجهه. "سكوتي، حبيبي، هنا أمك وأبوك" قالت، "سكوتي".

نظر الفتى إليهما، لكن دون أية إشارة تدل على أنه يعرفهما. ثم فتح فمه، أُطبقتْ عيناه، وصرخ حتى لم يتبق هواء في رئتيه. بدا كأن وجهه يسترخي ويهدأ عندئذ. افترقت شفتاه فيما نُفخ نفسه الأخير عبر حنجرته وزفر بلطف عبر أسنانه المشدودة.

دعاه الأطباء انسداد أوعية مخفيًّا، وقالوا إنه واحد من بين مليون حالة. ربما لو تم كشفه بطريقة ما وأُجريت العملية الجراحية على الفور لكان من المحتمل أن ينقذوه. لكن من المرجّح أكثر لا. على أي حال، ما الذي كانوا سيبحثون عنه؟ لم يظهر أي شيء في الفحوصات أو صور الأشعة السينية.

ارتجف الدكتور فرانسيس وقال وهو يقودهما إلى غرفة الطبيب: "لا أستطيع إخباركما كم أشعر بالسوء. أنا آسف جداً، لا أعرف ماذا أقول لكما." كان هناك طبيب يجلس على الكرسي وساقاه معلّقتان على قفا كرسي آخر، يشاهد عرضًا باكرًا في التلفزيون. يرتدي ملابس غرفة ولادة خضراء، بنطالًا فضفاضًا أخضر وبلوزة خضراء، وقلنسوة خضراء تغطي شعره. نظر إلى هوارد وآن ثم نظر إلى الدكتور فرانسيس. نهض

على قدميه وأطفأ الجهاز وخرج من الغرفة. وجّه الدكتور فرانسيس آن إلى الأريكة، وجلس بجانبها، وبدأ يتحدث بصوت منخفض. وفيما هو يتحدث مال نحوها وعانقها. استطاعت أن تشعر بصدره يعلو ويهبط بشكل مستو على كتفها. أبقت عينيها مفتوحتين وتركته يمسك بها. ذهب هوارد إلى الحمام، لكنه ترك الباب مفتوحًا. وبعد نوبة عنيفة من البكاء، غسل وجهه بالماء. ثم خرج وجلس على الطاولة الصغيرة التي وُضع عليها الهاتف. نظر إلى الهاتف وكأنه يقرر ما الشيء الأول الذي ينبغي أن يفعله. استخدم الطبيب فرانسيس الهاتف بعد فترة.

سألهما: "هل هناك شيء آخر أستطيع فعله لكما؟"

هزّ هوارد رأسه. حدقت آن إلى الدكتور فرانسيس كأنها غير قادرة على استيعاب كلماته.

مشى معهما الطبيب إلى الباب الأمامي للمستشفى. الناس يدخلون ويخرجون منه. الساعة الحادية عشرة صباحًا. كانت آن واعية كيف أنها حرّكت قدميها ببطء وبتردد. بدا لها وكأن الدكتور فرانسيس يدفعهما إلى المغادرة فيما شعرت أنهما يجب أن يبقيا، فيما سيكون الشيء الصحيح الذي يجب فعله هو البقاء. حدقت إلى الخارج نحو باحة صفّ السيارات ثم استدارت ونظرت إلى واجهة المستشفى. بدأت تهزّ رأسها. قالت: "كلا. كلا. لا أستطيع تركه هنا، كلا". سمعتْ نفسها تقول هذا وفكرت كم هو غير عادل أن الكلمات الوحيدة التي خرجت هي من نوع الكلمات التي استُخدمت في العروض التلفزيونية حيث كان الناس يُذهلون من الميتات العنيفة أو المفاجئة. أرادت أن تكون كلماتها لها. "كلا،" قالت، ولسبب ما جاءت إليها ذكرى رأس المرأة الزنجية وهو يسترخي على كتفها، "كلا" قالت مرة ثانية.

كان الطبيب يقول لهوارد: "سأتصل بكما فيما بعد اليوم. هناك بعض الأمور التي يجب أن تُنجز، يجب أن توضّح الأمور بالشكل الذي يرضينا. هناك بعض الأمور التي تحتاج إلى تفسير".

قال هوارد: "تشريح".

هزّ الدكتور فرانسيس رأسه.

"أفهم،" قال هوارد. ثم قال: "آه يا يسوع، كلا يا دكتور، كلا. لا أستطيع، لا أستطيع. فقط لا أستطيع".

وضع الدكتور فرانسيس يده حول كتفي هوارد وقال: "أنا آسف، يا إلهي، أنا آسف." ترك كتفي هوارد ومد يده. نظر هوارد إلى اليد، ثم صافحها. وضع الدكتور فرانسيس ذراعيه حول آنا مرة أخرى. بدا مليئًا بطيبة ما لم تفهمها. تركت رأسها يستريح على كتفه، لكن عينيها بقيتا مفتوحتين. واصلت النظر إلى المستشفى. وفيما كانا يقودان السيارة خارج ساحة الصف، نظرت إلى الخلف، إلى المستشفى.

في المنزل، جلست على الأريكة ويداها في جيبي معطفها. أغلق هوارد باب غرفة الولد. أدار جهاز إعداد القهوة ثم عثر على علبة فارغة. فكّر في التقاط بعض أشياء الفتى المبعثرة في أنحاء غرفة الجلوس. لكن بدلًا من ذلك جلس إلى جانبها على الأريكة، دفع العلبة جانباً، ومال إلى الأمام، وذراعاه بين ركبتيه. بدأ يبكي. دفعت برأسه إلى حضنها وربتت على كتفيه. "لقد رحل،" قالت. واصلت التربيت على كتفه. وفيما كانت تجهش استطاعت سماع هسيس جهاز إعداد القهوة في المطبخ. "هناك، هناك" قالت برقّة، "هوارد، لقد رحل. لقد رحل والآن يجب أن نعتاد على الأمر. على أن نكون وحيدين."

بعد فترة نهض هوارد وبدأ يتحرك بلا هدف في الغرفة مع العلبة، دون أن يضع فيها أيّ شيء، بل كان يرفع بعض الأشياء عن الأرض في أحد طرفي الأريكة. واصلت الجلوس ويداها في جيبي معطفها. وضع هوارد العلبة وأحضر القهوة إلى غرفة الجلوس. فيما بعد، اتصلت آن بالأقرباء. بعد أن كانت تقوم بكل اتصال ويجيب الطرف الآخر كانت آن تتفوه ببعض الكلمات وتبكي لدقيقة، ثم تشرح بهدوء، وبصوت مدروس، ما حدث وتخبرهم عن الترتيبات. أخرج هوارد العلبة إلى المرآب، حيث رأى دراجة الفتى الهوائية. أسقط العلبة وجلس على الرصيف إلى جانب الدراجة. أمسك الدراجة بشكل مرتبك بحيث مالت على صدره. أمسكها، وكانت الدواسة المطاطية تضرب على صدره. أدار العجلة.

أغلقتْ آن السماعة بعد أن تحدَّثتْ مع أختها. كانت تبحث عن رقمٍ آخر حين رنَّ الهاتف. التقطتْهُ من الرنّة الأولى.

"آلو" قالت، وسمعتْ شيئًا في الخلفية، صوت طنين. "آلو!" قالت، "كرمى لله! من هذا؟ ماذا تريد؟"

"سكوتي الخاص بك. لقد جهّزته لك،" قال صوت الرجل "هل نسيتيه؟"

صاحت في السماعة: "أيها الوغد الشرير! كيف تجرؤ على هذا، يا بن العاهرة الشرير!"

قال الرجل: "سكوتي. هل نسيتِ عن سكوتي؟"

أغلق الرجل السماعة.

سمع هوارد الصياح وجاء كي يجدها واضعة رأسها بين ذراعيها فوق الطاولة وهي تبكي. التقط السماعة وأصغى إلى صوت الهاتف.

بعد وقت طويل، وقبل منتصف الليل تمامًا، وبعد أن تعاملا مع أمور

كثيرة، رنّ الهاتف مرة ثانية.
قالت: "ردّ أنت عليه. إنه هو يا هوارد، أعرف." كانا يجلسان على طاولة المطبخ بفنجاني قهوة أمامهما. تناول هوارد كأسًا صغيرًا من الويسكي مع الفنجان. أجاب لدى الرنة الثالثة. قال: "آلو. من؟ آلو! آلو!" لكن المتّصل أغلق الخط. "لقد أغلق السماعة" قال هوارد، "أيًا كان".
قالت: "إنه هو. الوغد. أودّ أن أقتله. أود أن أطلق عليه النار وأراقبه وهو يسقط مرعوبًا".
قال: "آن، يا إلهي".
قالت: "هل تستطيع سماع أي شيء؟ في الخلفية. ضجة، آلات، شيء يطن؟"
قال: "لا شيء في الحقيقة. لا شيء كهذا. لم يكن هناك الكثير من الوقت. أعتقد أنني سمعت موسيقا من راديو، هذا ما استطعت أن أميّزه. لا أعرف ما الذي يجري قسمًا بالله".
هزّت رأسها. "لو كنت أستطيع الإمساك به." خطر لها عندئذ. عرفت من هو. سكوتي، قالب الكعك، رقم الهاتف. دفعت الكرسي بعيدًا عن الطاولة ونهضت. "سُقْ بي إلى مركز التسوّق" قالت، "هوارد."
"ماذا تقولين؟"
"مركز التسوّق. أعرف من الذي يتصل. أعرف من هو. إنه الخباز، الخباز ابن العاهرة، يا هوارد. طلبت منه أن يعدّ قالب كعك لعيد ميلاد سكوتي. إنه هو من يتصل. هو من لديه الرقم ويواصل الاتصال. كي يضايقنا بسبب قالب الكعك. الخباز، الوغد."
ساق بها إلى مركز التسوق. كانت السماء صافية ومليئة بالنجوم، والجو باردًا فأدارا المكيّف في السيارة. صفّا أمام الفرن. جميع الحوانيت

والمحلات مغلقة، لكن هناك سيارات في الطرف البعيد لباحة الصفّ أمام السينما. نوافذ المخبز مظلمة، لكن حين نظرا من الزجاج استطاعا رؤية ضوء في الغرفة الخلفية، وبين فترة وأخرى رجلًا ضخمًا في مئزر يتحرك إلى داخل وخارج ضوء أبيض، مستو. عبر الزجاج، استطاعت أن ترى علب العرض وبعض الطاولات الصغيرة مع كراس. حاولت فتح الباب. دقت على الزجاج. لكن لو سمعهما الخباز، فإنه لم يصدر أية إشارة. لم ينظر في جهتهما.

ساقا حول المخبز وصفّا. خرجا من السيارة. هناك نافذة مضاءة عالية جدًا لا يستطيعان النظر من خلالها. ثمة لافتة إلى جانب الباب الخلفي كُتب عليها "مخبز البانتري، طلبات خاصة." استطاعت أن تسمع على نحو خفيف مذياعًا يصدر موسيقا في الداخل وأحدهم يصدر صوتًا كالصرير من باب فرن حين سحب للأسفل. دقت على الباب وانتظرت. ثم دقت بصوت أكثر ارتفاعًا. خُفِّض صوت الراديو وكان هناك صوت كشط الآن، الصوت المميّز لشيء ما، دُرج، فُتحَ ثم أُغلق.

أدار أحدهم قفل الباب وفتحه. وقف الخباز في الضوء وحدق فيهما. "المحل مغلق الآن" قال، "ماذا تريدان في هذه الساعة؟ إنه منتصف الليل. هل أنتما ثملان أم ماذا؟"

خطت إلى الضوء الذي سقط عبر الباب المفتوح. طرف بجفني عينيه الثقيلين حين تعرف عليها. "هذه أنت!" قال.

قالت: "نعم، أنا. أم سكوتي. وهذا والد سكوتي. نود أن ندخل".

قال الخباز: "أنا مشغول الآن. لدي عمل أقوم به".

لكنها خطت إلى الداخل. لحقها هوارد. وتراجع الخباز إلى الخلف. "تفوح رائحة كرائحة الفرن هنا. أليست كرائحة الفرن يا هوارد؟"

قال الخباز: "ماذا تريدان. ربما تريدان قالب الكعك الخاص بكما؟ هذا هو الأمر، قررتما أنكما تريدان القالب. لقد طلبتما قالب كعك، أليس كذلك؟"

قالت: "أنت أكثر ذكاء من أن تكون خبازًا. هوارد، هذا هو الرجل الذي يتصل بنا." شدّت قبضتيها. حدقت إليه بوحشية. هناك نار تشتعل فيها وغضب جعلها تشعر بأنها أكبر من نفسها، أكبر من أي من هذين الشخصين.

قال الخباز: "انتظرا دقيقة فحسب. تريدان قالب الكعك الذي طلبتماه منذ ثلاثة أيام؟ هذا هو الأمر؟ لا أريد أن أتجادل معكما. إنه هناك، صار قديمًا. سأعطيه لكما بنصف السعر الذي حددته. كلّا. أتريدانه؟ يمكنكما أخذه. ليس جيدًا لي الآن أو لأي شخص. لقد كلّفني الأمر وقتًا ونقودًا كي أعدّ ذلك القالب. إذا كنتما تريدانه، فهذا جيد، وإذا كنتما لا تريدانه، فما من مشكلة. يجب أن أعود إلى العمل." نظر إليهما وحرّك لسانه خلف أسنانه.

"مزيدًا من القوالب،" قالت. عرفت أنها مسيطرة على الموقف، على ما كان يزداد في داخلها. باتت هادئة.

"سيدتي، أنا أعمل ستّ عشرة ساعة كلّ يوم في هذا المكان كي أكسب رزقي،" قال الخباز. مسح يديه بمئزره. "أعمل هنا نهارًا وليلاً، كي أكسب رزقي". عبرت نظرة وجه آن جعلت الخباز يتراجع ويقول: "ما من مشكلة الآن". مدّ يده إلى الطاولة وحمل مرقاق عجين بيده اليمنى وبدأ يربت به على راحة يده الأخرى. "تريدان القالب أم لا؟ أريد أن أعود إلى العمل. الخبازون يعملون في الليل،" قال. عيناه صغيرتان، ووضيعتا النظرة، كما ظنّت، وضائعتان تقريبًا في اللحم الخشن لخديه. عنقه

سميك من الدهون.
قالت آن: "أعرف أن الخبازين يعملون في الليل. يقومون باتصالات في الليل أيضًا. أيها الوغد".
واصل الخباز التربيت بمرقاق العجين على يده. نظر إلى هوارد. "احترس، احترس!" قال لهوارد.
"مات ولدي،" قالت بطريقة جازمة وباردة. "لقد دهسته سيارة صباح الاثنين. كنا ننتظر معه إلى أن توفي. لكن من غير المتوقع أن تعرف هذا، أليس كذلك؟ لا يستطيع الخبازون معرفة كلّ شيء، أليس كذلك يا سيد خباز؟ لكنه مات. مات أيها الوغد!" وكما فار فيها فجأة الغضب بردَ، فسح المجال لشيء آخر، شعور بالدّوار والغثيان. اتّكأت على الطاولة الخشبية التي كان الطحين مرشوشًا عليها، وضعت يديها على وجهها، وبدأت تبكي، وكتفاها يهتزان إلى الأمام والخلف. قالت: "هذا ليس عادلاً، ليس عادلاً." وضع هوارد يده على الجزء الضيّق من ظهرها ونظر إلى الخباز: "عيب عليك، عيب!"
وضع الخباز مرقاق العجين على الطاولة. فكّ مئزره ورماه على الطاولة. نظر إليهما، ثم هزّ رأسه ببطء. سحب كرسيًّا من تحت طاولة ورق لعب، انتثرت فوقها أوراق وفواتير، آلة حاسبة، ودليل هاتف. قال: "من فضلكما اجلسا. دعني أحضر لك كرسيًّا،" قال لهوارد. "اجلسا من فضلكما." دخل الخباز إلى مقدمة الفرن، وعاد بكرسيين صغيرين مشغولين من الحديد. "من فضلكما، اجلسا."
مسحت آن عينيها ونظرت إلى الخباز وقالت: "أردت أن أقتلك. أردتك ميتًا."
أفسح الخباز مجالًا لهما على الطاولة. دفع الآلة الحاسبة جانبًا مع

أكداس أوراق تدوين الملاحظات والفواتير. دفع دليل الهاتف إلى الأرض، حيث سقط مصدرًا صوت خبطة. جلس هوارد وآن وقرّبا كرسيهما إلى الطاولة. جلس الخباز، أيضًا.

قال الخباز: "اسمحا لي أن أعبّر عن أسفي الشديد". وضع كوعيه على الطاولة. "لا يعرف إلا الله كم أنا آسف. أصغيا إلي. أنا مجرد خباز. لا أزعم أنّي أي شيء آخر. ربما مرة، منذ سنوات، كنت إنسانًا مختلفًا. لقد نسيت، أنا غير متأكد. لكنّي لم أعد هكذا. الآن أنا خباز فقط. هذا لا يبرر فعلي، أعرف. لكنّي آسف جدًا. آسف على ابنكما، وعلى دوري في هذا،" قال الخباز. فرش يديه على الطاولة وقلبهما كي يكشف راحتي كفيه. "ليس لدي أطفال، وهكذا أستطيع أن أتصور كيف تشعران. كل ما أستطيع قوله لكما الآن هو إنّي آسف. سامحاني، إذا كان بوسعكما،" قال الخباز. "أنا لست شريراً، لا أعتقد ذلك. لست شريرًا كما قلت على الهاتف. يجب أن تفهما أن ما حصل هو أنّي لم أعد أعرف كيف أتصرف. من فضلكما، لذلك أرجو إن كنتما تستطيعان، أن تسامحاني من قلبكما؟"

كان الجو دافئًا في المخبز. نهض هوارد عن الطاولة ونزع معطفه. ساعد آنا على نزع معطفها. نظر إليهما الخباز دقيقة ثم هز رأسه ونهض عن الطاولة. ذهب إلى الفرن وأطفأ بعض المفاتيح. عثر على أكواب وصب قهوة من إناء كهربائي. وضع علبة كريم على الطاولة وإناء سكر.

قال الخباز: "ربما تحتاجان إلى أن تأكلا شيئًا ما. آمل أن تأكلا بعض لفافاتي الساخنة. يجب أن تأكلا وتواصلا الحياة. إن الأكل شيء جيد في وقت كهذا".

قدم لهما كعكات قرفة ساخنة خرجت لتوها من الفرن، ما زالت الكريمة

سائلة عليها. وضع الزبدة على الطاولة والسكاكين لفرش الزبدة. ثم جلس الخباز إلى الطاولة معهما. انتظر. انتظرا إلى أن أخذ كلّ منهما لفافة من الطبق وبدآ يأكلان. "من الجيد أن نأكل شيئًا ما،" قال، وهو يراقبهما. "هناك المزيد. كُلا. كُلا كل ما تريدان. هنا جميع كعك العالم".

أكلا اللفافات وشربا القهوة. شعرت آن فجأة بالجوع، وكانت اللفافات ساخنة وحلوة. أكلت ثلاثًا منها، مما أسرّ الخباز. ثم بدأوا يتحدثون. أصغيا بدقة. رغم أنهما كانا متعبين ومتألمين، أصغيا لما قاله الخباز. هزّا رأسيهما حين بدأ الخباز يتحدث عن الوحدة، والإحساس بالشك والحدود الذي جاء إليه في منتصف العمر. أخبرهما كيف يكون الأمر حين يكون المرء بلا أطفال طوال تلك السنين. كرر أيامه في أفران مليئة إلى ما لا نهاية، وفارغة أيضًا إلى ما لا نهاية، حدثهما عن حفلات الطعام، والاحتفالات التي عمل من أجلها، عن وضع الكريمة وتثبيت الزوجين الصغيرين على قوالب الكعك لتزيينها. المئات منها، كلّا، الآلاف حتى الآن. أعياد ميلاد. تخيّلا فحسب كل تلك الشموع وهي تشتعل. لديه تجارة ضرورية. إنه خباز. وهو سعيد أنه ليس بائع أزهار. من الأفضل أن يكون المرء مُطْعِمًا للناس. كانت هذه رائحة أفضل من عطر الأزهار في أي وقت.

"شمّا هذه الرائحة،" قال الخباز، فاتحًا رغيفًا داكنًا. "إنه خبز ثقيل، لكنه غني". شمّاه، ثم جعلهما يتذوّقانه. كان له طعم دبس السكّر والحبوب الخشنة. أصغَيا إليه. أكَلا ما قدرا عليه. ابتلعا الخبز الداكن. كان هناك ضوء يشبه ضوء النهار تحت الصينيات المشعّة. تحدثوا حتى الصباح الباكر، ذلك الانعكاس العالي والشاحب للضوء في النوافذ، ولم يفكّرا في المغادرة.

فيتامينات

كانت لديّ وظيفة، لكنّ باتي ليست موظّفة. أعمل بضع ساعات في الليل في مستشفى. لم يكن عملًا له قيمة. أنجز بعض العمل، أوقّع بطاقة أنّي داومت ثماني ساعات، ثم أذهب لتناول الشراب مع الممرضات. بعد فترة، أرادت باتي وظيفة. قالت إنها في حاجة إلى الوظيفة لأسباب تتعلق باحترامها لنفسها. وهكذا بدأت تبيع الفيتامينات المتعددة طارقةً باباً تلو الآخر.

كانت مجرد فتاة أخرى تذهب إلى حارات غريبة، تقرع الأبواب لكن لبعض الوقت. فقد تعلّمت أساسيّات العمل. كانت سريعة ومتفوّقة في المدرسة وتمتلك شخصيّة. وفي الحال رقّتها الشركة. ووُضعت بعض الفتيات اللواتي لم يكنّ يعملْن جيدًا تحت إدارتها. وبعد مدة قصيرة، صار لها طاقم ومكتب صغير في مجمع للتسوّق. لكنّ الفتيات اللواتي يعملن لها يتغيّرن على الدوام. بعضهن يترك العمل بعد يومين، أو بعد ساعتين أحيانًا. كان هناك أحيانًا فتيات جيدات في العمل بوسعهنّ بيع الفيتامينات. وكنّ أولئك الفتيات اللواتي بقين مع باتي. شكّلن لبّ فريقها. لكن كان هناك فتيات لم يستطعن بيع الفيتامينات.

إن الفتيات اللواتي لم يكنّ يستطعْن بيعها كنّ يغادرْن فورًا. لا يأتين إلى

العمل فحسب. إذا كان لديهنّ هاتف فلا يرفعن السماعة ولا يجبن على قرع الباب. كانت باتي تنظر إلى هذه الخسائر بشكل جدي، وتعتبرهنّ فتيات جديدات جيّدات ضللْن طريقهن. لامسْ نفسها. لكنها تغلبت على الأمر. هناك كثيرات لم يتغلبن على الأمر.

مرة كلّ فترة ستتجمد فتاة ولن تقدر على رنّ جرس الباب. أو ربما ستصل إلى الباب ويحدث شيء لصوتها. أو ستحصل على التحية مختلطة بشيء ما يجب ألا تقوله حتى تدخل. إن فتاة مثل هذه، ستقرر ترك العمل، تأخذ علبة العيّنات، تتجه إلى السيارة، تتجول إلى تنتهي باتي والأخريات. سيُعقد اجتماع، ثم يركبْن عائدات إلى المكتب. سيقلْن أمورًا لرفع معنوياتهنّ: حين يصبح الهدف قويًا فإن التعب يذهب،" أو "افعل الأشياء الصحيحة وستحدث الأشياء الصحيحة،" وأُخرى من ذاك القبيل.

أحيانًا تختفي فتاة في الميدان، مع علبة العيّنات وكل شيء. تطلب توصيلة إلى البلدة، ثم ترحل على الفور. لكن هناك دومًا فتيات يأخذن مكانها. كانت الفتيات يأتين ويذهبن في تلك الأيام. مع باتي قائمة. تنشر كل بضعة أسابيع إعلانًا صغيرًا في جريدة بنيسيفر. سيكون هناك مزيد من الفتيات ومزيد من التدريب. لم تكن هناك نهاية للفتيات.

تشكّلت المجموعة الجوهرية من باتي ودونا وشيلا. باتي جميلة وجذابة، أما جمال دونا وشيلا فمتوسط. في ليلة ما قالت شيلا لباتي إنها تحبّها أكثر من أي شيء آخر على وجه الأرض. قالت لي باتي الكلمات كما نطقتها تمامًا. أوصلت باتي شيلا بالسيارة إلى منزلها وكنّ أمام منزل شيلا. قالت باتي لشيلا إنها تحبها، أيضًا. قالت باتي لشيلا إنها تحب جميع فتياتها لكن ليس بالطريقة التي تتصورها شيلا في ذهنها. ثم لمست شيلا صدر باتي. قالت باتي إنها أخذت يدها وأمسكتها. قالت إنها أخبرتها أنها لا تميل

إلى تلك الطريقة. قالت إن شيلا لم ترف لها عين، فقط هزت رأسها، أمسكت يد باتي، قبلتها وخرجت من السيارة.

حدث هذا في وقت قريب من عيد الميلاد. كانت تجارة الفيتامينات سيئة في ذلك الوقت، وهكذا اعتقدنا بأننا سنقيم حفلة كي نبهج الجميع. بدت فكرة جيدة آنذاك. كانت شيلا أول من ثملَ وفقد وعيه. فقدت وعيها وهي على قدميها، سقطت على الأرض، ولم تستيقظ لساعات. في دقيقة كانت تقف في منتصف غرفة الجلوس، ثم انطبقت عيناها، انثنت الساقان وسقطت والكأس في يدها. اليد التي تحمل الكأس صفعت الطاولة أثناء السقوط. لم تصدر صوتًا بخلاف ذلك. انسكب الشراب على السجادة. سحبتُها أنا وباتي وشخص آخر إلى الردهة الخلفية ووضعناها على سرير نقال وفعلنا ما بوسعنا كي ننساها.
ثمل الجميع وذهبوا إلى المنزل. نامت باتي. أردت أن أواصل السهر، وهكذا جلستُ إلى الطاولة مع كأس إلى أن بدأ الضوء ينتشر في الخارج. ثم دخلت شيلا من الردهة وبدأت بالكلام. قالت إنها تعاني من صداع مزعج كما لو أن أحدهم يدخل أسلاكًا في دماغها. قالت إنه صداع تخشى أن يتركها بحَوَل دائم وإنها متأكدة من أن خنصرها مكسور. أرتني إيّاه. بدا أرجوانيًّا. بدأت تصيح بنا لتركها نائمة طوال الليل بعدساتها. أرادت أن تعرف إن اكترث أحد بها. هزت رأسها. أبعدت الخنصر قدر استطاعتها وأمعنت النظر. بدا الأمر كما لو أنها لم تستطع تصديق الأشياء التي لا بدّ أنها حدثت لها ليلة أمس. كان وجهها منتفخًا، وشعرها مشوّشًا. سكبتْ ماء باردًا على إصبعها. "يا إلهي،" قالت، وبكت قليلًا فوق المغسلة. لقد قامت بمحاولة جنسية جادة مع باتي، بإعلان حب، ولذا لم أحمل نحوها

أدنى تعاطف.

كنت أشرب الويسكي والحليب مع قطعة من الثلج. شيلا منحنية فوق المغسلة. راقبتني من شقّي عينيها. تناولت رشفة من كأسي. لم أقل أي شيء. عادت كي تخبرني كيف كان شعورها سيئًا. قالت إنها بحاجة لطبيب وإنها ستوقظ باتي. قالت إنها ستترك العمل، وتغادر الولاية وتذهب إلى بورتلاند. ويجب أن تودّع باتي أولًا. واصلت الحديث، أرادت أن توصلها باتي بالسيارة إلى المستشفى من أجل إصبعها وعينيها.

قلت: "سأوصلك أنا". لم أرغب بفعل هذا، لكنّي سأفعله.

قالت شيلا: "أريد أن تُوصلني باتي".

كانت تمسك رسغ يدها المتألمة بيدها السليمة، وكان الخنصر منتفخًا كمصباح جيب يدوي. "بالإضافة إلى ذلك، يجب أن نتحدث. أريد أن أخبرها أنني ذاهبة إلى بورتلاند. أريد أن أودّعها".

قلت: "أعتقد أنّي يجب أن أخبرها عنك. إنها نائمة".

صارت شيلا وضيعة. قالت: "نحن صديقتان. ينبغي أن أتحدث معها. يجب أن أخبرها بنفسي".

هززتُ رأسي. "إنها نائمة. قلتُ هذا لتوّي".

قالت شيلا: "نحن صديقتان ونحب بعضنا بعضًا. يجب أن أودّعها".

حاولت شيلا مغادرة المطبخ.

بدأت بالنهوض. قلت: "قلت إنّي سأوصلك".

"أنت ثمل! لم تنم بعد". نظرت إلى إصبعها مرة ثانية وقالت: "اللعنة، لماذا كان يجب أن يحدث هذا؟"

قلت: "لست ثملًا جدًا بحيث لا أستطيع أن أوصلك إلى المستشفى".

صاحت شيلا: "لا أريد توصيلة منك".

قلت: "تأدبي. لن أسمح لك بإيقاظ باتي أيتها العاهرة السحاقيّة".
قالت: "وغد".
هذا ما قالته، ثم خرجت من المطبخ ومن الباب الخارجي دون أن تستخدم الحمام أو تغتسل. نهضتُ ونظرتُ من النافذة. كانت تسير على الطريق نحو يوكليد. لم يكن هناك أحد مستيقظًا. كان الوقت باكرًا جدًا.
أنهيتُ كأسي وفكرت بإعداد واحد آخر.
أعددتُه.
لم ير أحد شيلا أبدًا بعد ذلك. لم يرها أحد منا نحن المرتبطين بتجارة الفيتامينات بأية حال. سارت إلى جادة يوكليد، ثم خارج حياتنا.
فيما بعد قالت باتي: "ما الذي حدث لشيلا؟" فقلت: "ذهبت إلى بورتلاند".

أثارتني دونا، العضو الآخر في الفريق، جنسيًا. رقصنا على بعض تسجيلات ديوك إلنغتون في تلك الليلة من الحفلة. أمسكتُها بشكل محكم وشممتُ شعرها، أبقيتُ يدي في أسفل ظهرها وأنا أحركها فوق السجادة. كان رقصًا عظيمًا معها. كنتُ الذكر الوحيد في الحفلة، وكان هناك سبع فتيات، ستٌّ منهنّ يرقصْ بعضهنّ مع بعض. كان عظيمًا مجرد النظر في أنحاء غرفة الجلوس.
كنتُ في المطبخ حين دخلتْ دونا بكأسها الفارغ. بقينا لوحدنا قليلًا. عانقْتُها قليلًا. بادلتْني العناق. وقفنا هناك وتعانقنا.
ثم قالت: "لا تفعل. ليس الآن".
حين سمعتُ "ليس الآن،" أفلتّها. خلتُ أن كلامها هذا نقود في البنك.
كنت جالسًا إلى الطاولة أفكّر بالضمّ حين دخلت شيلا بإصبعها.
فكّرت قليلًا أكثر في دونا. أنهيتُ الكأس. نزعت خطّ التلفون وذهبت إلى

غرفة النوم. تعريت ونمت إلى جانب باتي. استلقيت قليلاً، وقد بدأت أهدأ. ثم شعرت بالإثارة. لكنها لم تستيقظ. فيما بعد أغمضتُ عيني. كان بعد الظهر حين فتحتُهما ثانية. كنتُ في السرير وحدي والمطر يهبّ على النافذة. على مخدة باتي فطيرة من السكّر، وكأس ماء قديم على المنضدة. ما أزال ثملًا ولم أستطع التفكير في أي شيء. عرفت أن اليوم كان الأحد وأن عيد الميلاد قد اقترب. عدتُ إلى النوم إلى أن سمعتُ باتي تُدير المكنسة الكهربائية. دخلت إلى غرفة النوم وسألَت عن شيلا. هذا حين قلتُ لها إنها ذهبت إلى بورتلاند.

بعد أسبوع أو هكذا من العام الجديد كنتُ أنا وباتي نتناول شرابًا. كانت قد عادتْ لتوّها من العمل. ولم يكن الوقت متأخراً، لكن الجو بدا مظلمًا وماطرًا. كنتُ سأذهب إلى العمل مُدّة ساعتين. لكن كنا في البداية نتناول بعض الويسكي ونتحدث. باتي متعبة. لم تكن سعيدة، وقد بدأت كأسها الثالث. لم يكن أحد يشتري الفيتامينات، وكل من تبقى لديها دونا وبام، وهي فتاة شبه جديدة تحمل ميولًا للسرقة. كنا نتحدث عن أمور مثل الطقس السيء وعدد مخالفات ركن السيارة التي يمكن أن تتجنبها. ثم بدأنا نتحدث عن مدى تحسّن أمورنا لو انتقلنا إلى أريزونا، أو مكان كهذا. سكبت لي ولها كأسًا آخر. نظرتُ من النافذة. لم تكن أريزونا فكرة جيدة. قالت باتي: "الفيتامينات". رفعت كأسها وحركت الثلج. "من أجل الخراء!" قالت. "أعني حين كنتُ فتاة، كان هذا آخر شيء تصوّرت أنّي سأفعله. يا يسوع. لم أتخيّل أنني سأكبر كي أبيع الفيتامينات. هذا ينهي كل شيء. إن هذا في الحقيقة يفجّر عقلي".
قلت: "ولم أفكّر أنا هكذا يا حبيبتي".

قالت: "هذا صحيح. قلتَها باختصار".

"حبيبتي".

قالت: "لا تخاطبني هكذا. هذا صعب يا أخي. إنّ هذه الحياة ليست سهلة، بأية طريقة عالجْتها".

بدتْ وكأنها تفكّر في الأمور قليلًا. ثم أنهت كأسها. قالت: "إنّي أحلم بالفيتامينات حتى وأنا نائمة. لا أرتاح أبدًا. لا توجد راحة! على الأقل بوسعك أن تترك عملك وراءك. أراهن أنه لم يكن لديك حلم واحد متعلق به. سأراهن أنك لا تحلم بتلميع الأرضيات أو أي شيء تفعله هناك. بعد أن تترك ذلك المكان الملعون لا ترجع إلى المنزل وتحلم به، أليس كذلك؟" صرخت.

قلت: "لا أستطيع تذكر ما أحلم به. ربما لا أحلم. لا أتذكر أي شيء حين أستيقظ". هززتُ كتفي استهجانًا. لم أكن أتابع ما يدور في رأسي حين أنام. لم يكن يهمني.

قالت باتي: "أنت تحلم! حتى لو لم تتذكر. الجميع يحلمون. إذا لم تحلم فإنّك تفقد عقلك. قرأت عن هذا. إنه مخرَج. البشر يحلمون حين ينامون وإلا سيُصابون بالجنون. لكن حين أحلم، أحلم بالفيتامينات. أتفهم ما أقوله؟" ثبّتت عينيها عليّ.

قلت: "نعم، أفهم".

لم تكن مسألة سهلة.

قالت: "أنا أحلم أنّي أبيع الفيتامينات. أبيع الفيتامينات نهارًا وليلًا. يا يسوع، أية حياة هذه".

قلت: "كيف حال بام؟ أما تزال تسرق؟" أردتُ أن نتخلص من هذا الموضوع. لكن لم يكن هناك أي موضوع آخر استطعت التفكير فيه.

قالت باتي: "خراء،" ثم هزّت رأسها كما لو أنّي لا أعرف شيئًا. أصغينا للمطر.
قالت باتي: "لا أحد يبيع الفيتامينات". تناولت كأسها. لكنه كان فارغًا.
"لا أحد يشتري الفيتامينات. هذا ما أقوله لك. ألم تسمعني؟"
نهضتُ كي أصب لكلّ منّا كأسًا آخر. قلت: "هل تفعل دونا أي شيء؟"
قرأت المطبوع على الزجاجة وانتظرت.
قالت باتي: "قامت ببعض المبيعات منذ يومين. هذا كل شيء. هذا كل ما فعله أي منا هذا الأسبوع. لن أُفاجَأ إذا تركتْ العمل. لن ألومها. لو كنتُ مكانها لتركت. لكن إذا تركت، ماذا إذاً؟ عندئذ سأكون في البداية مجدّدًا، هذا ما سيحدث. من الصفر. منتصف الشتاء، الناس مرضى في كل أنحاء الولاية، الناس يموتون ولا أحد يفكّر أنهم في حاجة إلى الفيتامينات. أنا مريضة جدًّا".
"ما المشكلة يا حبيبتي؟" وضعتُ الكأسين على الطاولة وجلست. تابعتْ كما لو أنّي لم أقل أي شيء. ربما لم أفعل.
قالت: "أنا زبوني الوحيد. أعتقد أن تناول كل تلك الفيتامينات يفعل شيئًا لبشرتي. هل تبدو بشرتي جيدة لك؟ هل يمكن للشخص أن يفرط في تناول الفيتامينات؟ لا أستطيع التبرز كمثل شخص سويّ."
قلت: "حبيبتي..."
قالت باتي: "لا يهمّك إن تناولتُ الفيتامينات. هذه هي النقطة. لا تكترث بأيّ شيء. ماسح الزجاج الأمامي للسيارة تعطّل بعد الظهر أثناء المطر. كنت على وشك الاصطدام. اقتربت كثيرًا من هذا."
واصلنا تناول الشراب والتحدث إلى أن حان وقت ذهابي إلى العمل. قالت باتي إنها ستغمر نفسها في حوض الاستحمام إذا لم تنم. "أنا نائمة على قدميّ،" قالت. "الفيتامينات. كل هذا سينتهي". نظرت حولها في المطبخ.

نظرت إلى كأسها الفارغ. كانت ثملة. لكنها سمحت لي بتقبيلها. ثم غادرتُ إلى العمل.

كان هناك مكان ذهبت إليه بعد العمل. بدأت التردّد عليه من أجل الموسيقا، ولأنّي أستطيع تناول كأس هناك بعد ساعات الإغلاق. كان مكانًا يُدعى أوف برودواي، للسّود، في حارة للسّود، ويديره أسود اسمه خاكي. كان الناس يأتون إليه بعد أن تتوقف الأمكنة الأخرى عن الخدمة، يسألون عن المشروبات الخاصة بالبار، وكولا آر سي المخلوطة بالويسكي، أو يحضرون مشروبهم الخاص تحت معاطفهم، يطلبون آر سي، ويحضّرون شرابهم الخاص. يأتي الموسيقيون كي يرتجلوا، والشاربون الذين يريدون أن يواصلوا الشرب والاستماع إلى الموسيقا. أحيانًا كان الناس يرقصون. لكنهم كانوا هناك أساسًا كي يجلسوا ويشربوا ويستمعوا.
بين فترة وأخرى يضرب زنجيٌّ زنجيًّا آخر على رأسه بزجاجة. وانتشرتْ قصة مرة أن أحدًا ما تَبع أحدًا ما إلى الجينتز وحزّ رقبته فيما كانت يداه في الأسفل وهو يتبوّل. لكنّي لم أشهد أية مشكلة قط هناك، لم أر شيئًا لا يستطيع خاكي معالجته. كان خاكي زنجيًا كبيرًا برأس أصلع يضيء بشكل غريب تحت الأضواء المشعّة. يرتدي قمصانًا من هاواي تتدلّى فوق بنطاله. أعتقد أنه يحمل شيئًا تحت حزامه، ربما سلاحًا يدويًّا مغطى بالجلد على الأقل. إذا بدأ شخص ما بتجاوز الحدود، يذهب خاكي إليه حين تبدأ الأمور. يضع يده الكبيرة على كتف الشخص ويقول بضع كلمات ويكون هذا كافيًا. كنت أذهب إلى هناك على نحو متقطّع لشهور. كنتُ مسرورًا من أنه يقول لي أمورًا مثل: "كيف أحوالك الليلة يا صديقي؟" أو "صديقي، لم أرك منذ وقت طويل..."

كان أوف برودواي هو المكان الذي أخذتُ إليه دونا في موعدنا الأول. كان الموعد الوحيد بيننا.

سرتُ خارجًا من المستشفى تمامًا بعد منتصف الليل. صحا الجو وبانت النجوم. وكان ما زال لدي تلك الإثارة من الويسكي التي تناولتها مع باتي. لكنّي كنتُ أفكر بأن أتناول كأسًا في نيو جيمي بسرعة في الطريق إلى المنزل. كانت سيارة دونا مركونة في المكان الذي يلي سيارتي، ودونا داخلها. تذكرت ذلك العناق في المطبخ بيننا. قالت: "ليس الآن."

أنزلت الزجاج ونفضت سيجارتها.

قالت: "لم أستطع أن أنام. في ذهني أمور، ولم أستطع النوم."

قلت: "دونا، تسرّني رؤيتك."

قالت: "لا أعرف ما المشكلة لدي."

قلت: "أتريدين الذهاب إلى مكان ما لتناول كأس."

قالت: "إن باتي صديقتي."

قلت: "إنها صديقتي أيضاً". ثم قلت: "لنذهب."

قالت: "فقط لتناول كأس."

قلت: "هناك مكان للسّود. لديهم موسيقا. نستطيع أن نتناول كأسًا، ونصغي إلى بعض الموسيقا."

قالت دونا: "هل تريد أن تقود السيارة؟"

قلت: "غادري المقعد."

بدأت فورًا بالحديث عن الفيتامينات. الفيتامينات في انحدار، الفيتامينات تهاوت. تراجع سوق الفيتامينات إلى أدنى درجة.

قالت دونا: "أكره أن أفعل هذا لباتي. إنها أفضل صديقة لديّ، وتحاول

أن تبني الأمور لنا. لكن يمكن أن أضطرّ لترك العمل. هذا بيننا. احلفْ! لكن يجب أن آكل. يجب أن أدفع الإيجار. أحتاج إلى حذاء جديد ومعطف جديد. الفيتامينات لا تستطيع تأمين ذلك،" قالت دونا. "لا أعتقد أن الفيتامينات هي حيث هي بعد الآن. لم أقل أي شيء لباتي. قلت إنّي ما أزال أفكر في الأمر".

وضعت دونا يدها قرب ساقي. مددت يدي وضغطتُ على أصابعها. ردّت الضغط. ثم أبعدت يدها وضغطت على الولاعة، وبعد أن أشعلت سيجارتها، أعادت يدها. "الأسوأ من كل شيء هو أنّي أكره أن أخذل باتي. تفهم ما أقوله؟ نحن فريق". ناولتني سيجارتها. "أعرف أنه نوع مختلف، لكن جرّبه، هيّا،" قالت.

أوقفت السيارة في باحة ركن السيارات التابعة لأوف برودواي. كان هناك ثلاثة زنوج قرب سيارة كرايسلر قديمة ببلور أمامي مشقوق. كانوا يتسكّعون، يمررون الزجاجة في كيس. فحصونا. خرجت واستدرت كي أفتح لدونا. فحصت الأبواب، أمسكت ذراعها، وانطلقنا نحو الشارع. راقبنا الزنوج فحسب.

قلت: "أنت لا تفكرين بالانتقال إلى بورتلاند، أليس كذلك؟"

كنا على الرصيف. وضعت ذراعي حول خصرها.

"لا أعرف أي شيء عن بورتلاند. لم تعبر بورتلاند في ذهني من قبل".

كان النصف الأمامي من أوف برودواي مثل مقهى وحانة عاديّة. كان بعض الزنوج يجلسون إلى طاولة ومزيد منهم يأكلون من صحون موضوعة على طاولات مغطاة بمشمع أحمر. دخلنا عبر المقهى ثم إلى الغرفة الكبيرة في الخلف. كان هناك طاولة طويلة في مقصورة إزاء الحائط وبعيدًا في الخلف منصة حيث يستطيع الموسيقيون أن يقفوا. أمام المنصة ممرّ كأرضية

رقص. الحانات والأندية الليلية لا تزال مفتوحة، ولهذا لم يكتمل العدد بعد. ساعدتُ دونا في نزع معطفها. انتقينا طاولة ووضعنا سيجارتينا عليها. جاءت النادلة السوداء التي تُدعى حنا وتبادلنا التحية بهزّ الرأس. طلبت لنا كأسَي آر سي، وقررنا أن نشعر بالتحسّن حيال الأمور.

بعد أن جاء الكأسان ودفعتُ، وتناول كلّ منا رشفة، رحنا نتعانق. واصلنا هكذا لفترة، نضغط ونربت، نقبل وجه كلّ منّا. وكل وهلة دونا تتوقف وتنسحب، تدفعني بعيدًا قليلاً، ثم تمسكني من رسغيّ. تحدق في عينيّ. ثم ينطبق جفناها ببطء وندخل في التقبيل مرة ثانية. في الحال بدأ المكان يمتلئ. توقفنا عن التقبيل. لكنّي أبقيت ذراعي حولها. وضعت أصابعها على ساقي. بدأ زوج من عازفي الأبواق الزنوج وقارع طبل أبيض يعزفون بحماقة متجولين. ظننت أنّي ودونا سنتناول كأسًا آخر ونصغي إلى المجموعة. ثم نغادر ونذهب إلى شقتها كي ننهي الأمور.

كنت قد طلبتُ الكأسين من هنّا حين جاء الزنجي الذي يُدعى بيني مع ذلك الزنجيّ الآخر، ذلك الزنجي الكبير الذي يلبس على نحو جيد. كان لذلك الزنجي الكبير عينان حمراوان صغيرتان ويلبس بزة ثلاثية القطع. يرتدي قميصًا وردي اللون، وربطة عنق، ومعطفاً وقبعة ناعمة خفيفة، وما إلى ذلك.

قال بيني: "كيف رجلي؟"

مدّ بيني يده من أجل مصافحة أخ. تحدثت أنا وبيني. كان يعرف أنّي أحب الموسيقا، واعتاد أن يأتي للتحدث كلّما تواجدنا معًا في المكان. كان يحب أن يتحدث عن جوني هودجز، كيف كان يعزف الساكسفون لدعم جوني. كان يقول أمورًا مثل: "حين قمت أنا وجوني بذلك الأداء الحيّ في مدينة ماسون..."

قالت: "مرحبًا يا بيني."
قال بيني: "أريدك أن تقابل نلسون. عاد لتوّه من نامْ اليوم. هذا الصباح. جاء إلى هنا كي يستمع إلى بعض هذه الأصوات الجيدة. ارتدى حذاء الرقص الخاص به في حال أن..." نظر بيني إلى نلسون وهزّ رأسه. "هذا نلسون".
كنتُ أنظر إلى حذاء نلسون الملمّع، ثم نظرتُ إلى نلسون. ثم أرخى ابتسامة متدحرجة كشفت عن أسنانه.
قلت: "هذه دونا. دونا هذا بيني، وهذا نلسون. نلسون، هذه دونا".
قال نلسون: "مرحبًا يا فتاة". فردت دونا مباشرة: "مرحبًا نلسون، مرحبًا بيني".
قال بيني: "ربما سننزلق فقط وننضم إليكما. هل هذا ملائم؟"
قلت: "بالتأكيد."
لكنّي شعرت بالانزعاج من أنهما لم يعثرا على مكان آخر.
قلت: "لن نجلس هنا طويلًا. فقط ما يكفي لإنهاء هذا الكأس. هذا كل شيء."
قال بيني: "أعرف يا رجل، أعرف." جلس قبالتي بعد أن دخل نلسون إلى المقصورة الصغيرة. "أشياء للقيام بها، أمكنة للذهاب إليها. نعم سيدي، بيني يعرف،" قال بيني وطرف بعينه.
نظر نلسون عبر الحجيرة إلى دونا. ثم نزع قبّعته. بدا وكأنه يبحث عن شيء في الحافة وهو يدوّر القبعة في يديه الكبيرتين. أفسح مجالًا للقبعة على الطاولة. نظر إلى دونا. ابتسم ورفع كتفيه. كان عليه أن يرفع كتفيه كل بضع دقائق. بدا كما لو أنه متعب جدًا من حملهما.
قال نلسون لدونا: "أراهن أنك صديقة حقيقية جيدة له."

قالت دونا: "تجمعنا صداقة جيدة."
جاءت هنّا. طلب بيني كأسَيْ آر سي. ذهبت هنّا بعيدًا، وأخرج نلسون نصف لتر من الويسكي من معطفه العلوي.
قال نلسون: "صديقان جيدان. صديقان حقيقيان جيدان." فكّ غطاء زجاجة الويسكي التي له.
قال بيني: "احترس يا نلسون. أخْفِ هذا عن البصر. نزل نلسون لتوه من الطائرة القادمة من نامْ."
رفع نلسون الزجاجة وشرب بعض الويسكي. أغلق الزجاجة من جديد، وضعها على الطاولة، ووضع قبعته فوقها. قال: "صديقان جيدان حقيقيان."
نظر إليّ بيني ودوّر عينيه. كان ثملاً، أيضًا. قال لي: "يجب أن أتوازن". شرب الآر سي من كلا كأسيهما ثم أمسك الكأسين تحت الطاولة وصبّ الويسكي. وضع الزجاجة في معطفه. "يا رجل، لم أضع الفلوت على شفتيّ لمدة شهر الآن. عليّ أن أتدبّر أمري."
كنا نشكّل زحمة في المقصورة، والكؤوس أمامنا، وقبعة نلسون على الطاولة. قال نلسون موجّهًا كلامه إليّ: "أنت، أنت مع شخص آخر، أليس كذلك؟ هذه المرأة الجميلة، ليست زوجتك؟ أعرف هذا. لكن تجمعك صداقة جيدة مع هذه المرأة. ألستُ مصيبًا؟"
تناولت القليل من كأسي. لم أستطع تذوّق الويسكي. لم أستطع تذوّق أيّ شيء. قلت: "هل كلّ ذلك الخراء الذي نراه عن فيتنام على شاشة التلفزيون صحيح؟"
ثبّت نلسون عينيه عليّ. قال: "ما أريد أن أقوله هو: هل تعرف أين زوجتك؟ أراهن أنها خرجت مع شخص متأنّق وربما تمسك حلمتيه

وتخرج عضوه له بينما تجلس هنا في هذا المكان مع صديقتك الجيدة. أراهن أنها هي صديقة جيدة، أيضًا."

قال بيني: "نلسون."

قال نلسون: "نلسون لا شيء."

قال بيني: "نلسون، لنترك هذين الشخصين. هناك شخص ما في تلك الحجيرة الأخرى حدثتك عنه. لقد نزل نلسون لتوّه من الطائرة هذا الصباح."

قال نلسون: "أراهن أنّي أعرف ما الذي تفكّر فيه. أراهن أنك تفكّر، الآن هناك زنجيّ كبير ثمل وما الذي سأفعل به؟ ربما عليّ أن أجلد مؤخرته! هذا ما تفكّر فيه؟"

نظرتُ حولي في الغرفة. رأيت خاكي يقف قرب المنصة، والموسيقيين يعملون بعيدًا خلفه. كان بعض الراقصين على الأرض. اعتقدتُ أن خاكي نظر مباشرة نحوي، لكن إذا كان قد فعل فإنه نظر بعيدًا مرة أخرى.

قال نلسون: "ألم يحن دورك كي تتكلم؟ كنت أمزح معك فحسب. لم أمزح منذ أن غادرت نامْ. مزحتُ مع الآسيويين قليلاً". ابتسم مرة ثانية، وتراجعت شفتاه الكبيرتان إلى الخلف. ثم توقف عن الابتسام وحدّق فحسب.

قال بيني: "أرهما تلك الأذن،" وضع كأسه على الطاولة. "حصل نلسون على أذن أحد أولئك المتأنقين الصغار،" قال بيني. "يحملها معه. أرهما، يا نلسون."

كان نلسون يجلس هناك. ثم بدأ يتحسّس جيوب معطفه. أخرج الأشياء من جيبٍ. أخرج بعض المفاتيح وعلبة قطرة للسعال.

قالت دونا: "لا أريد أن أرى أذنًا. هذا مقرف، يا يسوع!" نظرتُ إليّ.

قلت: "يجب أن نذهب."
كان نلسون ما زال يتحسّس جيوبه. أخرج محفظة من جيب داخل المعطف ووضعها على الطاولة. ربت عليها. قال لدونا: "اسمعي. هنا خمسة آلاف دولار. سأعطيك ورقتين. وتكونين معي؟ أعطيك ورقتين كبيرتين، ثم تلعقينه لي. تمامًا كما تفعل زوجته مع شخص كبير آخر. أتسمعين؟ تعرفين أنها تضع فمها على عضو شخص آخر تمامًا في هذه اللحظة التي يضع فيها يده على تنورتك. العدل هو العدل. هنا." نزع زوايا الأوراق النقدية من محفظته. "يا للجحيم، هناك مئة أخرى لصديقك الجيّد، وهكذا لن يشعر بأنه هُجر. ليس عليه أن يفعل أي شيء. ليس عليك فعل أيّ شيء،" قال لي ولسون. "تجلس هناك وتشرب وتُصغي إلى الموسيقا. موسيقا جيدة. نسير أنا وهذه المرأة إلى الخارج كصديقين جيدين. وتسير في الخلف لوحدها. لن نغيب طويلاً، ستعود."
قال بيني: "نلسون، ليست هذه طريقة للتحدث، نلسون."
ابتسم نلسون وقال: "انتهيت من الكلام."
عثر على ما كان يبحث عنه. كانت علبة سجائر فضية. فتحها. نظرتُ إلى الأذن في الداخل. كانت متوضعة على لفافة من القطن. بدت كفطر جافّ. لكنها كانت أذنًا حقيقية، معلقة بسلسلة مفاتيح.
قالت دونا: "يا يسوع! مقرف."
قال نلسون: "أليس هذا شيئًا ما؟" كان يراقب دونا.
قالت دونا: "كلا. اللعنة."
قال نلسون: "يا فتاة!"
"نلسون،" قلت. ثم ثبّت نلسون عينيه الحمراوين عليّ. دفع القبعة والمحفظة وعلبة السجائر خارج طريقه.

قال نلسون: "ما الذين تريده؟ لقد أعطيتك ما تريد."

وضع خاكي يدًا على كتفي واليد الأخرى على كتف بيني. انحنى على الطاولة، ورأسه يلمع تحت الأضواء. "كيف أحوالكم؟ هل تستمتعون؟"
قال بيني: "كل شيء على ما يرام يا خاكي. كل شيء تمام. الشخصان هنا يتهيآن للرحيل فحسب. وأنا ونلسون سنجلس ونصغي إلى الموسيقا."
قال خاكي: "هذا جيد. إن شعاري هو: كونوا سعداء أيها الناس."
نظر في أنحاء المقصورة. نظر إلى محفظة نلسون على الطاولة وإلى علبة السجائر المفتوحة إلى جانب المحفظة. شاهد الأذن.
قال خاكي: "أهي حقيقية؟"
قال بيني: "نعم. أره تلك الأذن، يا نلسون. لقد نزل نلسون لتوّه من الطائرة القادمة من نامْ مع هذه الأذن. سافرت هذه الأذن نصف المسافة حول العالم كي تكون على هذه الطاولة الليلة. أره إيّاها، يا نلسون."
التقط نلسون العلبة وسلّمها لخاكي.
فحص خاكي الأذن. أمسك السلسلة ودلّى الأذن أمام وجهه. نظر إليها. تركها تتأرجح إلى الأمام والخلف من السلسلة. "سمعتُ عن هذه الآذان المجفّفة والأعضاء وغير ذلك."
قال نلسون: "لقد انتزعتُها من أحد الآسيويين. لم يعد يستطيع أن يسمع بها. أردتُ لنفسي ذكرى."
أدار خاكي الأذن على سلسلتها.
بدأت أنا ودونا بالخروج من الحجيرة.
قال نلسون: "لا تذهبي، يا فتاة."
قال بيني: "نلسون."

كان خاكي يراقب نلسون الآن. وقفت إلى جانب الحجيرة مع معطف دونا. كانت ساقاي ترتجفان.

رفع نلسون صوته. قال: "تذهبين مع هذا الفاسق، وتتركينه يضع وجهه على عضوك، أنتما يجب أن تتعاملا معي."

بدأنا نبتعد عن الحجيرة. كان الناس ينظرون.

سمعت بيني يقول: "لقد نزل نلسون لتوه من الطائرة القادمة من نامْ هذا الصباح. كنا نشرب طوال اليوم. كان هذا أطول يوم في السجلّ. لكن أنا وهو سنتصرف بشكل لائق، يا خاكي."

صرخ نلسون شيئًا ما حول الموسيقا. صرخ: "لن تفعل أي شيء جيد! مهما كان ما تفعله، لن تساعد أحدًا!" سمعتهُ يقول ذلك، ثم لم أتمكّن من سماع أي شيء آخر. توقفت الموسيقا ثم بدأت من جديد. لم ننظر إلى الخلف. تابعنا السير. وخرجنا إلى الرصيف.

فتحتُ لها الباب. عدنا إلى المستشفى. بقيت دونا في جانبها. استخدمت الولاعة لإشعال سيجارة، لكنها لم تتحدث.

حاولتُ أن أقول شيئًا ما. قلت: "انظري يا دونا، لا تكتئبي من الأمر. أنا آسف لما حدث."

قالت دونا: "كان في وسعي أن آخذ النقود. هذا ما كنت أفكر فيه."

واصلت القيادة ولم أنظر إليها.

قالت: "هذا صحيح. كان يمكن أن آخذ النقود". هزّت رأسها. "لا أعرف،" قالت. أخفضت رأسها وبكت.

قلت: "لا تبكي."

قالت: "لن أذهب إلى العمل غدًا، اليوم، حين يصيح المنبّه. لن أذهب.

سأغادر البلدة. لقد فهمتُ ما حدث هناك كإشارة." ضغطت على الولاعة وانتظرت أن تشتعل.

توقفت قرب سيارتي وأطفأت المحرك. نظرتُ في المرآة الخلفية، معتقدًا أنّي سأرى سيارة الكرايسلر القديمة تدخل المكان خلفي ونلسون في المقعد. أبقيت يدي على المقود دقيقة، ثم أنزلتهما إلى حضني. لم أرغب بلمس دونا. كان العناق بيننا في المطبخ تلك الليلة والقبل التي تبادلناها في أوف برودواي كل شيء.

قلت: "ما الذي ستفعلينه؟" لكنّي لم أكترث. كان يمكن أن تموت في هذه اللحظة من نوبة قلبية ولن يعني هذا لي أيّ شيء.

قالت: "ربما أستطيع الذهاب إلى بورتلاند. يجب أن يكون هناك شيء ما في بورتلاند. إن بورتلاند في أذهان الجميع هذه الأيام. إن بورتلاند ورقة رابحة. بورتلاند هي هذا، بورتلاند هي ذاك. بورتلاند مكان جيد كأي مكان. إن الأمكنة متشابهة كلها."

قلت: "من الأفضل أن أذهب يا دونا."

بدأت بالخروج. فتحت الباب فاشتعل ضوء سقف السيارة.

"أطفئ الضوء، كرمى للمسيح!"

خرجت بسرعة. قلت: "عمت مساء يا دونا" وأغلقت الباب.

تركتها تحدّق في لوحة عدّاد السيارة. أدرت محرك سيارتي وأشعلت الأضواء. شغلتها وضغطت على دواسة البنزين.

سكبتُ كأس ويسكي، شربتُ بعضه، وأخذتُ الكأس إلى الحمام. فرشتُ أسناني. ثم فتحت دُرجًا. نادت باتي من غرفة النوم. فتحت باب الحمام. كانت لا تزال ترتدي ثيابها. لقد نامت مرتدية ثيابها، كما خمّنت.

صاحت: "كم الساعة؟ لقد أفرطتُ في النوم! يا يسوع، آه يا إلهي! تركتني أفرط في النوم، اللعنة عليك!"
كانت متوحشة. وقفت في المدخل وهي ترتدي ثيابها. ربما كانت تجهز نفسها كي تذهب إلى العمل لكن لم يكن هناك علبة عيّنات واحدة ولا فيتامينات. رأت أحلامًا سيئة، هذا كل شيء. بدأت تهزّ رأسها من جانب إلى آخر.
لم يكن بوسعي تحمل المزيد الليلة، فقلت: "اذهبي إلى النوم، يا حبيبتي. أنا أبحث عن شيء ما" أخرجتُ بعض الأشياء من صندوق الأدوية. تدحرجت العبوّات في المغسلة وسقطت. قلت: "أين حبوب الأسبرين؟" ثمّ أسقطتُ بعض الأشياء الأخرى. لم أكترث. لقد واصلَت الأشياء سقوطها.

محترس

بعد كلام كثير قِيلَ تقديرًا للموقف، كما برّرَت زوجتُه إنيس، غادر لويد المنزل وانتقل إلى بيته. لديه غرفتان وحمام في الطابق العلوي من بناء مؤلف من ثلاثة طوابق. في داخل الغرف، السقف منخفض جدًا. إذا سار، يجب أن يحني رأسه. عليه أن ينحني كي ينظر من النافذة ويحترس أثناء دخوله وخروجه من السرير. هناك مفتاحان: مفتاح يدخله إلى المنزل نفسه، ثم يصعد بعض الدرجات التي تمرّ عبر المنزل إلى فسحة. يصعد مجموعة من الدرجات إلى باب غرفته ويستخدم المفتاح الآخر ليفتح ذلك القفل.

مرة، في طريق عودته إلى منزله في الأصيل، وهو يحمل كيسًا يحتوي على ثلاث زجاجات شمبانيا من نوع أندريه وبعض اللحم للغداء، توقف في الفسحة ونظر إلى غرفة جلوس صاحبة المنزل. شاهد العجوز تستلقي على ظهرها على السجادة. بدت كأنها نائمة. ثم خطر له أنها ربما كانت ميتة. لكن التلفاز كان مُدارًا، وهكذا اختار أن يعتقد أنها نائمة. لم يعرف ماذا يتصرف حيال الأمر. نقل الكيس من يد إلى أخرى. آنذاك سعلت المرأة بخفّة، وضعت يدها إلى جانبها، ثم عادت إلى هدوئها وثباتها. واصل لويد صعود الدرج وفتح بابه. في ما بعد ذلك اليوم، حوالي المساء، شاهد

العجوز في الفناء، تعتمر قبعة من القش وتضع يدها على جانبها. كانت تستخدم صفيحة لريّ بعض أزهار البنفسج.

في مطبخه، كان لديه برّاد وموقد. كان البراد والموقد صغيرين ومحشورين في موضع بين المغسلة والحائط. كان عليه أن ينحني، تقريبًا على ركبتيه، كي يخرج أيّ شيء من البراد. ولكن لم تكن هذه مشكلة لأنه لا يحفظ الكثير هناك، بأية حال، عدا عصير الفاكهة واللحم للغداء والشمبانيا. للموقد عينان. يسخّن الماء بين فترة وأخرى في قدر صغير ويعدّ القهوة السريعة. ولكن في بعض الأيام لا يشرب القهوة أبدًا. ينسى، أو لا يرغب في القهوة. استيقظ في صباح يومٍ ما وبدأ يأكل على الفور قطع الكعك ويشرب الشمبانيا. مرّ وقت، منذ بضع سنوات، كان يضحك فيه من تناول فطور كهذا. الآن، لم يبد كأن هناك أي شيء غير عاديّ جدًا حيال الأمر. في الحقيقة، لم يفكّر في أي شيء من ذلك إلى أن كان في السرير وحاول أن يتذكّر الأشياء التي فعلها ذلك اليوم، بادئًا حين استيقظ ذلك الصباح. في البداية، لم يستطع أن يتذكّر أي شيء مهم. ثم تذكّر أنه أكل قطع الكعك تلك وشرب الشمبانيا. مرَّ وقت عدّ فيه هذا فعلًا جنونياً، شيئًا يخبر عنه الأصدقاء. ثم، كلما فكّر في الأمر، رأى أنه لا يهم بطريقة أو أخرى. لقد تناول قطع الكعك والشمبانيا على الفطور. ما المشكلة إذاً؟ في غرفتيه المفروشتين لديه أيضًا عدّة طعام تشمل أريكة صغيرة وكرسيًا قديمًا مريحًا وجهاز تلفاز ينتصب على طاولة. لم يكن يدفع فاتورة الكهرباء هنا، والتلفاز ليس له، وهكذا كان يترك الجهاز مُدارًا طيلة النهار والليل أحيانًا. لكنه يخفض الصوت إلا إذا رأى أن هناك شيئًا يريد أن يشاهده. لم يكن عنده هاتف، وكان هذا ملائمًا له. لم يرغب في هاتف. هناك غرفة نوم بسرير مزدوج، ومنضدة، وخزانة أدراج، وحمام.

عندما جاءت إنيس لزيارته زيارتها الوحيدة، كانت الساعة حينها الحادية عشرة صباحًا. مرّ على انتقاله إلى مكانه الجديد أسبوعان، وتساءل إن كانت ستزوره. حاول أن يفعل شيئًا ما حيال تناوله الكحول، أيضًا، لهذا كان مسرورًا لأنه وحده. لقد أوضح ذلك كثيرا: إن ما هو في أمس الحاجة إليه هو الوحدة. يومَ جاءت كان على الأريكة، يرتدي بيجامته، يضرب بقبضته على الجانب الأيمن من رأسه. وتمامًا قبل أن يستطيع ضرب نفسه مرة ثانية، سمع أصواتًا في الأسفل في فسحة الدرج. استطاع أن يميّز صوت زوجته. كان الصوت مثل همهمة حشد بعيد، ولكنه عرف أنها إنيس، وعرف نوعًا ما أن الزيارة مهمة. وجّه ضربة أخرى إلى رأسه بقبضته، ثم نهض.

استيقظ ذلك الصباح واكتشف أن شمع أذنه قد سدّها. لم يستطع أن يسمع أي شيء بوضوح، وبدا كأنه فقد إحساسه بالتوازن. في الساعة الأخيرة، كان على الأريكة، يعمل بشكل محبط على أذنه، مكررًا ضرب رأسه بقبضته. أحيانًا يمسّد الجزء الغضروفي السفلي من أذنه، أو يشدّ شحمتها. ثم يحفر بغضب في أذنه بإصبعه الصغير ويفتح فمه، محفّزًا التثاؤب. جرّب كل ما يستطيع التفكير فيه، وكان يقترب من نهاية قدرته على التحمل. استطاع سماع الأصوات في الأسفل تقطع تمتمتها. ضرب رأسه ضربة جيدة وأنهى كأس الشمبانيا. أطفأ التلفاز وحمل الكأس إلى المغسلة. التقط زجاجة الشمبانيا المفتوحة عن المغسلة وأخذها إلى الحمام، حيث وضعها خلف المقعدة. ثم ذهب كي يفتح الباب.

قالت إنيس: "مرحبًا يا لويد". لم تبتسم. توقفّت في المدخل في لباس ربيعيّ متألق. لم ير هذه الملابس من قبل. تحمل حقيبة يدوية من القماش وفيها أزهار دوار شمس مطرّزة على جانبيها. لم ير تلك الحقيبة

من قبل، أيضًا.
قالت: "لم أعتقد أنك سمعْتني. ظننتُ أنك ذهبت أو لا أدري. ولكن المرأة في الأسفل ما اسمها؟ السيدة ماثيوس ظنت أنك مستيقظ هنا".
قال لويد: "لقد سمعْتكِ. ولكن بالكاد فحسب". ربط بيجامته ومرر يده في شعره. "بالفعل، أنا في حالة سيئة. ادخلي".
قالت: "إنها الحادية عشرة". دخلت وأغلقت الباب خلفها. تصرّفتْ كما لو أنها لم تسْمعه. ربما لم تسمعه.
قال: "أعرف كم الساعة. كنتُ مستيقظًا لوقت طويل. منذ الثامنة. شاهدتُ جزءًا من عرض: اليوم. ولكنّي على وشك الجنون من شيء ما الآن. إن أذني مسدودة. أتذكرين تلك المرة التي حدث فيها هذا؟ كنا نعيش في ذلك المكان قرب ذلك المحل الصيني الرخيص الذي يبيع الطعام. حيث عثر الأطفال على كلب البلدغ الذي يجرّ سلسلته؟ اضطررتُ للذهاب إلى الطبيب آنذاك كي ينظّف أذنيّ. أعرف أنك تتذكرين. أنت التي قدت السيارة وكان علينا الانتظار وقتًا طويلًا. حسناً، الأمر الآن مثلما حدث. أعني إنه بذلك السوء. إلا أنني لا أستطيع الذهاب إلى الطبيب هذا الصباح. كما أنه ليس لدي طبيب. أنا على وشك الجنون، أشعر وكأنّي أريد أن أقطع رأسي أو أفعل شيئًا ما".
جلس على أحد طرفي الأريكة، وجلست على الطرف الآخر. لكنها أريكة صغيرة، وما زالا يجلسان قريبًا من بعضهما. كانا قريبين جدًا بحيث يستطيع أن يمد يده ويلمس ركبتها. ولكنه لم يفعل. نظرت حولها في الغرفة ثم ثبّتتْ عينيها عليه مرة ثانية. يعرف أنه لم يحلق ذقنه وانتصب شعره. ولكنها زوجته، وتعرف كل ما تجب معرفته عنه.
قالت: "ماذا جربت؟" نظرت في محفظتها وأخرجت سيجارة. "أعني، ما

الذي فعلت من أجل الموضوع حتى الآن؟"
"ماذا تقولين؟" أدار الجانب الأيسر من رأسه إليها. "إنيس، أقسم لك إنّي لا أبالغ. إن هذا الشيء يدفعني إلى الجنون. حين أتحدث أشعر كأنّي أتحدث داخل برميل. إن رأسي يطنّ. ولا أستطيع أن أسمع جيدا. أيضًا حين تتحدثين تشعرين كأنك تتحدثين عبر أنبوب من الرصاص."
قالت إنيس: "هل لديك أي قطن طبيّ، أو زيت ويسّون؟"
قال: "حبيبتي، هذا خطير. ليس لدي أي قطن أو زيت ويسون. هل تمزحين؟"
قالت: "إذا كان لدينا بعض زيت ويسون، أستطيع أن أسخّنه وأضعه في أذنك. اعتادت أمي أن تفعل ذلك، يمكن أن ينعّم الأشياء في الداخل هناك."
هزّ رأسه. شعر أن رأسه مليء كما لو أنه يصطخب بالسائل. شعر كأنه كما حين اعتاد أن يسبح قرب قاع المسبح البلدي ويخرج وأذناه مليئتان بالماء. لكن آنذاك كان من السهل إخراج الماء. كل ما كان عليه فعله هو أن يملأ رئتيه بالهواء، يغلق فمه، ويشدّ على أنفه. ثم سينفخ خديه ويجبر الهواء على الدخول في رأسه. ستنتأ أذناه، ولبضع ثوانٍ سيشعر بإحساس ظريف من الماء الذي يجري خارج رأسه ويقطر على كتفيه. ثم سيخرج من المسبح.
أنهت إنيس سيجارتها وأطفأتها. "لويد، ثمة أمور يجب أن نتحدث عنها. ولكنّي أظنّ أننا يجب أن نتناول الأمور بالتسلسل. اذهب واجلس على الكرسي. ليس ذاك، بل الكرسي في المطبخ. سنتمكّن هناك من أن نلقي بعض الضوء على الموقف."
ضرب رأسه مرة أخرى. ثم ذهب كي يجلس على كرسي الطعام. تحركت

وتوقفت أمامه. لمست شعره بأصابعها. ثم أزاحت الشعر بعيدًا عن أذنيه. مدّ يده كي يمسك يدها، لكنها دفعتها بعيدًا.

قالت: "أي أذن هي التي تحدثت عنها؟"

قال: "اليمنى. اليمنى".

قالت: "أولاً، يجب أن تجلس هنا ولا تتحرك. سأعثر على دبوس شعر ومنديل ورقي. سأحاول إدخاله. ربما سيقوم بالخدعة."

ذُعر من فكرة أن تضع دبوس شعر داخل أذنه. قال شيئًا يتعلق بهذا الأمر.

قالت: "ماذا؟ يا يسوع، لا أستطيع سماعك أيضًا. ربما هذا مُعْدٍ."

قال لويد: "حين كنتُ طفلًا في المدرسة كان لدينا أستاذة الصحّة تلك. كانت مثل الممرضة، أيضًا. قالت يجب ألا نضع أبدًا أي شيء أصغر من كوع في أذننا". تذكر بغموض خريطة على الحائط تظهر مخططًا كبيرًا للأذن، مع نظام معقد من الأقنية، والممرات والجدران.

قالت: "حسناً، لم تواجه ممرضتك أبدًا هذه المشكلة. على أي حال، يجب أن نجرّب شيئًا ما. سنجرب هذا أولًا. إذا لم يعمل سنجرب شيئًا آخر. هذه هي الحياة، أليس كذلك؟"

قال لويد: "هل لهذا معنى خفي أم شيء ما؟"

"يعني ما قلته فقط. ولكنك حرّ في أن تفكّر كما يسرّك. أعني أنّنا في بلاد حُرّة..." قالت. "والآن دعني أعثر على ما أريد. اجلس هناك فحسب".

بحثت في محفظتها، ولكنها لم تعثر على ما تريده. أخيراً، أفرغت المحفظة على الأريكة. قالت: "لا يوجد دبابيس شعر، اللعنة. ولكن بدا كما لو أنها تنطق الكلمات من غرفة أخرى. وبطريقة ما، بدا تقريبًا كما لو أنه تخيّلها تقولها. كان هناك وقت، منذ زمن بعيد، اعتادا أن يشعرا فيه أن

لديهما قدرة على إدراك الحواس بالتوازي، حين يتعلق الأمر بما يفكّر فيه الآخر. كان بوسعهما إنهاء الجمل التي بدأها الآخر.

التقطت مقصّ أظافر، عملت لدقيقة، ثم رأى الأداة منفصلة بين أصابعها، ورأى جزءًا منها منفصلًا عن الجزء الآخر. نتأ مبرد الأظافر من المقص. بدا له كما لو أنها تحمل خنجرًا صغيرًا.

قال: "ستضعين هذا في أذني؟"

قالت: "ربما لديك فكرة أفضل. إنها هذه، أو بالأحرى لا أعرف ماذا. ربما لديك قلم رصاص؟ هل تريدني أن أستخدم هذا؟ أو ربما لديك مفك براغ،" قالت وهي تضحك. "لا تقلق. أصْغ يا لويد، لن أؤذيك. قلت إنّي سأكون حذرة. سألفّ منديلًا حول نهايته. سيكون الأمر على ما يرام. سأكون حذرة، كما قلت. ابْقَ حيث أنت فحسب، وسأحضر منديلًا من أجل هذا. سأصنع قطنة".

ذهبت إلى الحمام. غابت بعض الوقت. بقي حيث هو على الكرسي. بدأ يفكّر في أمور ينبغي أن يقولها لها. أراد أن يقول لها إنه يقتصر على الشمبانيا والشمبانيا فقط. كانت مسألة وقت فحسب الآن. ولكنها حين عادت إلى الغرفة لم يستطع قول أي شيء. لم يعرف أين يبدأ. لم تنظر إليه، بأية حال. أخرجت سيجارة من كومة الأشياء التي أفرغتها على مخدة الأريكة. أشعلتها بولاعتها وذهبت كي تقف قرب النافذة التي تواجه الشارع. قالت شيئًا ما، لكنه لم يستطع فهم الكلمات. حين توقفت عن الحديث، لم يسألها ماذا قالت. مهما كان ما قالته، عرف أنه لا يريدها أن تكرره ثانية. أطفأت السيجارة. ولكنها واصلت الوقوف عند النافذة، منحنية إلى الأمام، وكان منحدر السقف على بعد إنشات من رأسها.

قال: "إنيس."

التفتتْ وجاءت إليه. استطاع أن يرى منديلًا في رأس مبرد الأظافر. قالت: "أدر رأسك جانبًا وأبقه هكذا. هذا صحيح. اجلس هادئًا ولا تتحرك. لا تتحرك،" قالت ثانية.

قال: "كوني حذرة. كُرمى ليسوع".

لم تجبه.

"من فضلك، من فضلك،" قال. ثم لم يقل أي شيء. كان خائفًا. أغمض عينيه وحبس أنفاسه حين شعر بالمبرد يمرّ في الجزء الداخلي من أذنه ويبدأ بحثه. كان متأكدًا من أن قلبه سيتوقف عن الخفقان. ثم دخلت إلى أبعد وبدأت تقلب المبرد إلى الخلف والأمام، عاملة على أي شيء هناك. في داخل أذنه، سمع صوت صرير.

قال: "آخ!".

"هل آلمتك؟" أخرجت المبرد من أذنه وتراجعت خطوة إلى الخلف. "هل شعرت بالتحسن يا لويد؟"

قال: "إن الأمر نفسه".

نظرت إليه وعضت شفتيها.

قال: "دعيني أذهب إلى الحمام. قبل أن نواصل، يجب أن أذهب إلى الحمام."

قالت إنيس: "اذهب. أعتقد أنّي سأنزل وأرى إن كان لدى صاحبة البيت زيت ويسون أو أي شيء من هذا القبيل. قد أعثر على القطن الطبي لديها. لا أعرف لماذا لم أفكّر في هذا من قبل. أي أن أسألها."

قال: "هذه فكرة جيدة. سأذهب إلى الحمام."

توقفت عند الباب ونظرتْ إليه، ثم فتحت الباب وخرجت. عبر غرفة الجلوس، دخل إلى غرفة نومه، ثم فتح باب الحمام. مد يده وراء المقعدة

وأخرج زجاجة الشمبانيا. وتناول جرعة كبيرة. كانت ساخنة ولكنها نزلت إلى الأسفل. تناول المزيد. في البداية اعتقد أنه يستطيع مواصلة الشرب إذا اقتصر على الشمبانيا. لكنه اكتشف في الحال أنه يشرب ثلاث أو أربع زجاجات في اليوم. كان يعرف أن عليه أن يتعامل مع هذا الأمر في الحال. لكن يجب أن يستعيد سمعه أولًا. في كل مرة شيء ما، كما قالت. أنهى بقية الزجاجة ووضع الزجاجة الفارغة في مكانها خلف المقعدة. ثم فتح صنبور الماء ونظف أسنانه بالفرشاة. وبعد أن استخدم المنشفة، عاد إلى الغرفة الأخرى.

عادت إنيس وكانت قرب الموقد تسخّن شيئًا ما في مقلاة صغيرة. نظرت إلى جهته، لكنها لم تقل أي شيء في البداية. نظر من فوق كتفها ومن خارج النافذة. حلّق عصفور من شجرة إلى أخرى فارشًا ريشه الجميل. لكنه لم يسمع إن أصدر الطائر أي صوت.

قالت شيئًا ما لم يسمعه.

قال: "قولي مرة أخرى."

هزّت رأسها واستدارت إلى الفرن. ثم استدارت ثانية وقالت بصوت مرتفع وبطيء بما يكفي كي يسمعه: "عثرتُ على مخبئك في الحمام."

قال: "إنّي أحاول التخفيف".

قالت شيئًا آخر. "ماذا؟" قال. "ماذا قلت؟" لم يسمعها في الحقيقة.

قالت: "سنتحدث فيما بعد. لدينا أشياء نناقشها يا لويد. المال أحدها. ولكن هناك أمور أخرى، أيضًا. أولًا يجب أن نعتني بهذه الأذن." وضعت أصابعها في المقلاة ثم رفعتها عن الموقد، ثم قالت: "سأتركه يبرد دقيقة، إنه حار جدًا الآن. اجلس. وضع هذه المنشفة حول كتفيك".

فعل كما قالت له. جلس على كرسي ووضع المنشفة حول عنقه وكتفيه

ثم ضرب جانب رأسه بقبضته.

قال: "اللعنة".

لم تنظر إليه. وضعت إصبعها في المقلاة مرة ثانية كي تختبر الزيت. ثم سكبت السائل من المقلاة في الكأس البلاستيكي. حملت الكأس وجاءت إليه.

قالت: "لا تخف. إنه بعض زيت الأطفال من صاحبة منزلك، هذا كل شيء. شرحتُ لها المشكلة، واعتقدت أن هذا يمكن أن يساعد. لا يوجد ضمانات ولكن ربما سيخفف الأشياء في الداخل. قالت إن هذا كان يحدث لزوجها، رأت قطعة من شمع الأذن تسقط من أذنه، وكانت كمثل سدادة كبيرة من شيء ما. كان هذا صملاخ الأذن. قالت جرّب هذا. ولم يكن لديها القطن الطبي. إن هذا الجزء يفاجئني في الحقيقة."

قال: "حسنًا. تمام، أنا راغب في تجريب أي شيء، يا إنيس، إذا كان عليّ الاستمرار هكذا، أعتقد إنّي سأموت بالأحرى. تعرفين؟ أعني هذا، يا إنيس."

قالت: "أملْ رأسك بشكل كامل جانبًا الآن. لا تتحرك. سأسكب هذا إلى أن تمتلئ أذنك، ثم سأسدها بهذه الفوطة. وعليك أن تجلس هناك لمدة عشر دقائق. ثم سنرى. إذا لم يحسّن هذا الأمور، فإنّي لا أمتلك حلولًا أخرى. فقط لا أعرف ماذا أفعل عندئذ."

قال: "سيعمل هذا. إذا لم يعمل هذا، سأعثر على بندقية وأطلق النار على نفسي. أنا جدي. هذا ما أشعر أنّي سأفعله الآن، بأية حال."

أدار رأسه جانبًا وتركه يتدلى. نظر إلى الأشياء في الغرفة من هذا المنظور الجديد. ولكنه لم يكن مختلفًا عن الطريقة القديمة في النظر، باستثناء أن كل شيء كان على جانبه.

"إلى أبعد،" قالت. تمسّكَ بالكرسي من أجل التوازن وأخفض رأسه أكثر. كانت جميع الأشياء التي في مدى بصره، جميع الأشياء في حياته، كما بدا، في نهاية الغرفة هذه. شعر بالسائل الساخن ينسكب في أذنه. ثم أحضرت الفوطة وأمسكتها هناك. بعد وهلة، بدأت تدلك المنطقة حول أذنه. ضغطت داخل الجانب الناعم من اللحم بين فكه وجمجمته. حركت أصابعها إلى المنطقة فوق أذنه وبدأت تُعمل رؤوس أصابعها جيئة وذهابًا. بعد وهلة، لم يعرف كم مضى على جلوسه هناك. ربما عشر دقائق. وربما أكثر. كان ما يزال متمسّكًا بالكرسي، وبين فترة وأخرى، وفيما أصابعها تضغط جانب رأسه، شعر بالزيت الساخن الذي سكبتْهُ هناك يتحرك ذهابًا وإيابًا في القنوات داخل أذنه. حين ضغطتْ بطريقة معيّنة تخيّل أنه سمع صوت حفيف ناعم داخل رأسه.

قالت إنيس: "اجلس بشكل مستقيم". جلس منتصبًا وضغط قفا يده على رأسه بينما كان السائل يخرج من أذنه. عالجته بالمنشفة. ثم مسحت حول أذنه.

كانت إنيس تتنفّس من أنفها. سمع لويد صوت نفسها في دخوله وخروجه. سمع سيارة تمرّ في الشارع خارج المنزل، تحت نافذة مطبخه، صوت مقصّات التقليم.

قالت إنيس: "حسنًا؟" انتظرت ويداها على ردفيها، عابسة.

قال: "أستطيع أن أسمعك. أنا بخير! أعني، أستطيع أن أسمع. لا يبدو الأمر وكأنك تتحدثين تحت الماء. الأمر رائع الآن. تمام. يا إلهي، اعتقدتُ وهلة أنّي سأفقد عقلي. لكني بخير الآن. أستطيع سماع كل شيء. أصغ، يا حبيبتي، سأعدّ القهوة. ثمة بعض العصير، أيضًا."

قالت: "ينبغي أن أذهب. أنا متأخرة على شيء ما. ولكنّي سأعود. سنذهب

إلى الغداء في وقت ما. يجب أن نتحدث."
"لا أستطيع النوم فحسب على هذا الجانب من رأسي، هذا كل شيء،" تابع الكلام. تبعها إلى غرفة الجلوس. أشعلت سيجارة. "هذا ما حدث. نمتُ طول الليل على هذا الجانب من رأسي، وانسدت أذني. أعتقد أني سأكون بخير طالما لا أنسى وأنام على هذا الجانب من رأسي. إذا كنتُ حريصًا. تعرفين ما أقوله؟ أستطيع أن أنام على ظهري فحسب، أو على جانبي الأيسر".
لم تنظر إليه.
"ليس إلى الأبد، بالطبع كلا، أعرف هذا. لا أستطيع فعل ذلك. لا أستطيع فعله بقية حياتي. لكن لبعض الوقت على أي حال. جانبي الأيسر فحسب، أو بشكل مسطّح على ظهري".
لكن حالما قال هذا بدأ يخاف من الليل الذي كان قادمًا. بدأ يخاف من اللحظة التي سيبدأ فيها بالقيام بتحضيراته للسرير في الليل وما يمكن أن يحدث فيما بعد. كان ذلك الوقت يبعد ساعات، لكنه كان خائفًا. ماذا لو، في منتصف الليل، انقلب بالصدفة على جانبه الأيمن، وضغط ثقل رأسه على المخدة بحيث يسدّ الصملاخ ثانية القنوات المظلمة لأذنه؟ ماذا لو استيقظ عندئذ، غير قادر على الإصغاء، والسقف على بعد إنشات من رأسه؟
قال: "يا إلهي! يا يسوع! هذا كريه. إنيس، لقد رأيت لتوي شيئًا كالكابوس. إلى أين أنت ذاهبة يا إنيس؟"
قالت: "قلتُ لك،" فيما كانت تعيد كل شيء إلى محفظتها وتستعد للمغادرة. نظرت إلى ساعتها. "أنا متأخرة عن موعد". ذهبت إلى الباب. ولكن على الباب التفتت وقالت له شيئًا ما لم يسمعه. لم يرد أن يسمع.

راقب شفتيها تتحركان إلى أن قالت ما قالتْهُ. حين انتهت، قالت: "وداعًا،" ثم فتحت الباب وأغلقتْهُ خلفها.

دخل إلى غرفة النوم كي يرتدي ثيابه. لكن بعد دقيقة أسرع إلى الخارج، مرتديًا بنطاله فقط، وذهب إلى الباب. فتحه وتوقّف هناك، مصغيًا. في الفسحة في الأسفل، سمع إنيس تشكر السيدة ماثيوس من أجل الزيت. سمع المرأة العجوز تقول: "على الرحب والسعة". ثم سمعها تعقد صلة بين زوجها المرحوم وبينه. سمعها تقول: "اتركي لي رقم هاتفك. سأتصل إن حدث شيء. فأنت لا تعرفين أبدًا."

قالت إنيس: "آمل ألا تضطري لذلك. ولكن سأعطيك الرقم بأية حال. هل لديك شيء ما تكتبين عليه؟"

سمع لويد السيدة ماثيوس تفتح درجًا وتبحث فيه. ثم قال صوتها النسوي: "حسنًا."

أعطتْها إنيس رقمها في المنزل. قالت: "شكرًا."

قالت السيدة ماثيوس: "سرّني لقاؤك."

أصغى فيما كانت إنيس تنزل الدرج وتفتح الباب الخارجي. ثم سمعه يُغلق. انتظر إلى أن سمعها تُدير محرّك السيارة وتنطلق مبتعدة. ثم أغلق الباب وعاد إلى غرفة النوم كي ينهي ارتداء ثيابه.

بعد أن انتعل حذاءه وربطه استلقى على السرير ورفع الغطاء إلى ذقنه. ترك ذراعيه تستريحا تحت الغطاء إلى جانبيه. أغمض عينيه وتظاهر أن الوقت ليل وأنه سينام. ثم رفع ذراعيه وصالبهما فوق صدره كي يرى كيف ستناسبه هذه الوضعية. بقيَ مغمضًا، مجرّبًا الأمر. حسناً، فكّر. حسناً، إذا لم يرد تلك الأذن أن تنسدّ مرة ثانية فعليه أن ينام على ظهره، هذا كل شيء. عرف أنه يستطيع فعل ذلك. يجب ألا يستدير إلى الجانب

الخطأ حتى أثناء نومه. كان كل ما يحتاج إليه هو أربع أو خمس ساعات من النوم كل ليلة، بأية حال. سيتدبّر الأمر. إن أشياء سيئة يمكن أن تحصل للإنسان. كان هذا تحديًا بطريقة ما. وهو قادر على هذا. يعرف أنه قادر. بعد دقيقة، دفع الأغطية إلى الخلف ونهض.

ما زال لديه الجزء الأفضل من اليوم أمامه. دخل إلى المطبخ، انحنى أمام البراد الصغير، وأخرج زجاجة شمبانيا جديدة. نزع السدادة البلاستيكية بقدر ما يستطيع من الحذر، لكن سُمعتْ الفرقعة الاحتفالية لزجاجة الشمبانيا التي فُتحت. غسل كأسه من زيت الأطفال ثم ملأه بالشمبانيا. أخذ الكأس إلى الأريكة وجلس. وضع الكأس على المنضدة، ومدّ عليها قدميه إلى جانب كأس الشمبانيا. اتكأ إلى الخلف. ولكن بعد فترة بدأ يقلق أكثر من الليل القادم. ماذا لو، رغم جهوده، قرر الصملاخ أن يسدّ الأذن الأخرى؟ أغمض عينيه وهزّ رأسه. نهض في الحال ودخل إلى غرفة النوم. خلع ثيابه وارتدى بيجامته من جديد. ثم عاد إلى غرفة الجلوس. جلس على الأريكة مرة أخرى، ورفع قدميه. مدّ يده وشغّل التلفاز. عدّل الصوت. عرف أنه لا يستطيع التخلص من القلق مما يمكن أن يحدث حين يذهب إلى السرير. كان هذا فقط شيئًا ما عليه أن يتعلم العيش معه. بطريقة ما، ذكّره هذا العمل كلّه بالشيء المتعلق بقطع الكعك والشمبانيا. لم يكن هذا لافتًا مطلقاً، إذا فكر المرء في الأمر. تناول بعض الشمبانيا. ولكن لم يكن مذاقها طيّبًا. مرّر لسانه على شفتيه، ثم مسح فمه بكميّه. نظر فرأى غطاء رقيقًا من الزيت فوق الشمبانيا.

نهض وحمل الكأس إلى المغسلة، حيث سكبه. أخذ زجاجة الشمبانيا إلى غرفة الجلوس وجلس بشكل مريح على الأريكة. حمل الزجاجة من عنقها فيما كان يشرب. لم يكن معتادًا على الشرب من الزجاجة، ولكن لم يبد

هذا خارج المألوف كثيرًا. قرر أنه لو نام وهو جالس على الأريكة في منتصف النهار، فلن يكون الأمر غريبًا غرابةَ أن على شخص الاستلقاء على ظهره لساعات. أخفض رأسه كي يحدق خارج النافذة، مخمّنًا من زاوية ضوء الشمس والظلال التي دخلت إلى الغرفة أن الساعة حوالي الثالثة.

المكان الذي أتصل منه

كنت أنا وجي. بي في الردهة الأمامية في مركز التأهيل التابع لفرانك مارتن. وكمثل بقيتنا في مركز التأهيل، إنّ جي. بي هو أولًا وقبل كل شيء سكّير. ولكنّه أيضًا منظّف مداخن. وهو هنا لأول مرة وخائف. أما أنا فقد كنتُ هنا مرة من قبل. ماذا أقول؟ لقد عدت. إن اسم جي. بي الحقيقي هو جو بيني، ولكنه قال إنّي يجب أن أدعوه جي. بي. إنه في حوالي الثلاثين من عمره. كان أصغر مني. ليس أصغر بكثير، ولكن قليلًا. روى لي كيف قرر الدخول في مهنته، وكان يحب أن يستخدم يديه وهو يتحدث، ولكن يديه ترتجفان. أعني، لن تبقيا هادئتين. "لم يحدث لي هذا قط،" قال. يعني الارتجاف. قلت له إنّي أتعاطف معه وإن الرجفة ستهدأ. وسوف تهدأ. ولكن هذا يستغرق وقتًا.

مرّ على وجودنا هنا في مركز التأهيل يومان فحسب، أي لم نخرج من الغابات بعد! يعاني جي. بي من هذه الارتجافات، وفي كل فترة يرتعش عصب. ربما ليس عصبًا، بل شيء ما في كتفي. أحيانًا يكون في طرف عنقي. حين يحدث هذا، يجفّ فمي. عندئذ أبذل جهدًا للبلع فقط. أعرف أن شيئًا ما على وشك الحدوث وأريد منعه. أريد أن أختبئ منه، هذا ما أريد فعله. أغمضُ عينيَّ وأتركه يمرّ، أتركه يأخذ الرجل التالي. يستطيع جي. بي أن ينتظر لحظة.

شاهدتُ نوبةً صباح أمس. شخص يُدعى تايني، شخص كبير وسمين، كهربجي من سانتا روزا. قالوا إنه أتى إلى هنا منذ أسبوعين تقريبًا وإنه تجاوز مرحلة الخطر. سيذهب إلى منزله بعد يوم أو يومين وسيمضي سهرة رأس السنة مع زوجته أمام التلفاز. في سهرة رأس السنة، خطط تايني أن يشرب الشوكولاتة الحارة ويأكل البسكويت. في صباح أمس بدا رائعًا فحسب حين جاء لتناول الفطور. كان يصدر أصواتًا كأصوات البط ويظهر لأحد الأشخاص كيف يفعل ذلك موقوفًا في أذنيه مباشرة. كان شعر تايني مبللًا وثمة شقّ في قفا جانبي رأسه. كان قد استحمّ لتوّه. جرح نفسه أيضًا عند الذقن بموسه. وما المشكلة؟ الجميع في مركز فرانك مارتن لديهم أثلام في وجوههم. هذا شيء يحدث. تدبّر تايني مكانه على رأس الطاولة وبدأ يتحدث عن شيء ما حصل في إحدى نوبات تناوله الشراب. ضحك الجالسون إلى الطاولة وهزّوا رؤوسهم وهم يغرفون بيضهم. قال تايني شيئًا ما، ابتسم، ثم نظر حول الطاولة من أجل إشارة تعرّف. فعلنا جميعًا أشياء كهذه سيئة وجنونية، وأكيد لهذا ضحكنا. مزج تايني البيض في صحنه، وبعض البسكويت والعسل. كنت جالسًا إلى الطاولة، ولكنّي لم أكن جائعًا. يوجد بعض القهوة أمامي. فجأة، لم يعد هناك تايني. سقط على الأرض مصدرًا قعقعة قوية. كان على ظهره على الأرض وعيناه مغمضتين، وكعباه ينقران المشمّع. نادى الناس فرانك مارتن. ولكنه كان هناك. نزل شخصان إلى الأرض إلى جانب تايني. وضع أحد الأشخاص أصابعه داخل فم تايني وحاول إمساك لسانه. صرخ فرانك مارتن: "ليتراجع الجميع!" ثم لاحظتُ أن مجموعتنا كانت تنحني فوق تايني، تنظر إليه فحسب، غير قادرين على إبعاد نظرنا عنه. "دعوه يتنفّس!" قال فرانك مارتن. ثم ركض إلى المكتب

واتصل بسيارة الإسعاف.
إن تايني معنا اليوم. قال إنه يتعافى. في هذا الصباح قاد فرانك مارتن عربة المحطة إلى المستشفى لإحضاره. عاد تايني متأخرًا جدًا على بيضه، ولكنه أخذ بعض القهوة إلى غرفة الطعام وجلس إلى الطاولة بأية حال. أعدّ له أحد ما في المطبخ التوست، ولكن تايني لم يتناوله. جلس مع قهوته فحسب ونظر في كوبه. وبين فينة وأخرى كان يحرك كوبه أمامه جيئة وذهابًا.
وددتُ أن أسأله إن كانت لديه أية إشارة قبل أن يحدث له هذا. أردتُ أن أعرف إن شعر أن قلبه فوّت نبضة، أو أنه بدأ بالتسارع؟ هل ارتعش جفنه؟ ولكنّي لم أقل أي شيء. ولكن ما حدث لتايني هو شيء ما لن أنساه أبدًا. كان العجوز تايني مسطّحًا على الأرض، يرفس بكعبيه. وهكذا في كلّ مرة تبدأ فيها تلك الارتعاشة الصغيرة في أي مكان، أسحب بعض النفس وأنتظر كي أجد نفسي على ظهري، أنظر إلى الأعلى، وأصابع شخص ما في فمي.

على كرسيّه في الردهة الأمامية، يبقي جي. بي يديه في حضنه. أدخّن السجائر وأستخدم دلْوًا للفحم كمنفضة. أصغي إلى جي. بي وهو يهذي. إنها الحادية عشرة صباحاً، وتبقى على موعد الغداء ساعة ونصف. لم يكن أيّ منا جائعًا. ولكن كنا نتطلع فقط إلى الدخول والجلوس إلى الطاولة. ربما سنشعر بالجوع. ما الذي يتحدث عنه جي. بي بأية حال؟ قال إنه في الثانية عشرة من عمره سقط في بئر في جوار المزرعة التي ترعرع فيها. كانت بئرًا جافة، لحسن حظه. "أو ربما لم أكن محظوظاً،" قال، ناظرًا حوله وهازًّا رأسه. قال إنه في وقت متأخر في ذلك الأصيل، بعد أن

عُثِرَ عليه، رفعه والده بحبل. بلل جي. بي سرواله هناك. عانى من جميع أنواع الرعب في تلك البئر، وقد هذى طالبًا المساعدة، منتظرًا ثم هاذيًا مرة أخرى. قال إن صوته بحّ قبل أن تنتهي المسألة. ولكنه أخبرني أن وجوده في قاع تلك البئر أحدث أثرًا دائمًا. جلس هناك ونظر إلى فوهة البئر. عاليًا في القمة، استطاع أن يرى دائرة من السماء الزرقاء. في كل فترة تمرّ غيمة بيضاء. سرب من الطيور طار عابرًا، وبدا لجي. بي أن خفق أجنحتها هو الذي أحدث ذاك الهياج الغريب. سمع أصواتًا أخرى. سمع أصوات هياج خفيفة فوقه في البئر، مما جعله يتساءل عن احتمال سقوط أشياء في شعره. كان يفكّر بالحشرات. سمع الريح تهبّ فوق فتحة البئر، وأحدث ذلك الصوت تأثيرًا فيه، أيضًا. باختصار، كان كل شيء في حياته مختلفًا بالنسبة له في قاع تلك البئر. ولكن لم يسقط عليه أي شيء، ولم يغلق أي شيء دائرة الزرقة الصغيرة تلك. ثم جاء والده بالحبل، ولم يمض وقت طويل حتى عاد جي. بي إلى العالم الذي عاش فيه دومًا.

قلت: "واصل الحديث يا جي. بي. ثم ماذا؟"

حين كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة وانتهى من المدرسة الثانوية ولم يكن لديه أي شيء من أي نوع يريد أن يفعله في حياته، غادر المدينة في أصيل أحد الأيام كي يزور صديقًا. كان هذا الصديق يعيش في منزل فيه موقد. جلس جي. بي وصديقه يشربان البيرة ويتحدثان دون هدف. أصغيا إلى بعض الأشرطة. ثم رنّ باب المنزل. ذهب الصديق إلى الباب. كانت تلك الفتاة منظّفة المدخنة هناك مع عدة التنظيف. تعتمر قبعة رسمية، صدم مشهدها جي. بي بقوّة. قالت لصديق جي. بي أن لديها موعدًا كي تنظّف المدفأة. أدخلها الصديق وانحنى. لم تنتبه إليه

الشابة أبدًا. فرشت شرشفًا على الموقد ووضعت معداتها. كانت ترتدي ذلك البنطال الأسود، والقميص الأسود، والحذاء الأسود والجورب الأسود. وبالطبع كانت قد نزعت قبعتها الآن. قال جي. بي إن النظر إليها جنّنه. قامت بالعمل، ونظّفت المدخنة بينما جي. بي وصديقه يصغيان إلى الأشرطة ويشربان البيرة. ولكنهما كان يراقبان ما تفعله. وبين فينة وأخرى يتبادل جي. بي وصديقه النظر ويبتسمان، أو يتغامزان. يرفعان حاجبيهما حين يختفي النصف الأعلى للشابة في المدخنة. كان لا بأس بشكلها كما قال جي. بي.

حين أنهت العمل، لفّت عدّتها بالشرشف. وأخذتْ من صديق جي. بي شيكًا أعدّه لها والداه. ثم طلبت من صديقه إن كان يريد تقبيلها. قالت: "من المفترض أن يجلب هذا الحظ الجيد". وهذا ما فعله لجي. بي. أدار الصديق عينيه. تصرف كمهرج أكثر بقليل. ثم، وهو على الأرجح محمرّ من الخجل، قبّلها على الخدين. في هذه اللحظة، اتخذ جي. بي قرارًا حيال شيء ما. نهض عن الأريكة. وضع بيرته على الأرض. ثم اتجه إلى الفتاة الشابة وهي تهمّ بالخروج من الباب.

قال جي. بي لها: "وأنا، أيضاً؟"

فحصته بعينيها. قال جي. بي إنه شعر بأن قلبه يقرع. تبيّن أن اسم الشابة هو روكسي.

قالت روكسي: "بالتأكيد. لمَ لا؟ لقد حصلتُ على مزيد من القبل". ثم قبّلته قبلة جيدة على الشفتين واستدارت كي ترحل.

وبسرعة البرق لحق بها جي. بي إلى المدخل. أمسك باب المدخل الذي من المنخل لها. نزل الدرجات معها وخرج إلى المدخل الخاص، حيث تركن شاحنتها الصغيرة. كان هذا شيئًا خارج سيطرته. لا شيء آخر في العالم كانت

له أية أهمية. عرف أنه قابل شخصًا ما يمكن أن يجعل ساقيه ترتجفان. استطاع أن يشعر بقبلتها تشتعل على شفتيه، الخ. لم يكن بوسع جي. بي أن يفهم الأمور. كان مليئًا بالإحساسات التي تقوده في كل الطرق.

فتح الباب الخلفي للشاحنة الصغيرة لها. وساعدها في وضع عدّتها في الداخل. "شكراً،" قالت له. ثم لفظها قائلًا إنه يودّ أن يراها ثانية. هل تذهب معه إلى السينما في وقت ما؟ أدرك أيضًا ما الذي يريد أن يفعله بحياته. أراد أن يفعل ما تفعله. ولكنه لم يقل لها هذا عندئذ.

قال جي. بي إنها وضعت يديها على شفتيها وتفحّصته. ثم عثرت على بطاقة عمل في المقعد الأمامي لشاحنتها. أعطته البطاقة وقالت: "اتصل بهذا الرقم بعد العاشرة الليلة. يمكننا التحدث. عليّ أن أذهب الآن". اعتمرت قبّعتها الرسمية ثم نزعتها. نظرت إلى جي. بي مرة أخرى. لا بدّ أنها أحبّت ما رأتْهُ، لأنها ابتسمتْ هذه المرة. قال لها إن هناك لطخة قرب فمها. ثم صعدت إلى الشاحنة، زمّرتْ، وقادت السيارة مبتعدة.

قلت: "ثمّ ماذا؟ لا تتوقف الآن، يا جي. بي".

كنتُ مهتمًا. ولكنّي كنتُ سأصغي لو واصل حول كيف أنه قرر في أحد الأيام أن يبدأ بلعب لعبة رمي حدوات الأحصنة.

أمطرتْ ليلة أمس. كانت الغيوم متجمّعة على التلال عبر الوادي. تنحنح جي. بي ونظر إلى التلال والغيوم. شدّ ذقنه. ثم واصل ما كان يقوله.

بدأت روكسي تخرج معه. وبالتدريج تحدث معها طالبًا منها أن تدعه يذهب معها إلى العمل. ولكن روكسي تعمل مع والدها وشقيقها وحصلوا على الكمية المناسبة من العمل فحسب. لا يحتاجون إلى أي شخص آخر. فضلًا عن ذلك، من هو هذا الشخص جي. بي؟ جي. بي، ماذا؟

وحذّروها طالبين منها الاحتراس.
وهكذا شاهدت هي وجي. بي بعض الأفلام معًا. ذهبا إلى بعض الرقصات. ولكن الغزل تمحور حول تنظيفهما للمداخن معًا فحسب. أضاف جي. بي أنهما تحدثا بسرعة عن الزواج. وبعد فترة قاما بالأمر، تزوّجا. وبدأ حمْو جي. بي يأخذه معه إلى العمل كشريك كامل. بعد حوالي سنة، أنجبت روكسي طفلًا. تركت العمل كمنظفة مداخن. على أي حال، توقّفتْ عن القيام بالعمل. وفي الحال أنجبت ولدًا ثانيًا. كان جي. بي في منتصف العشرينات الآن. قال إنه كان يقوم بشراء منزل وإنه سعيد في حياته. قال: "كنت سعيدًا من الطريقة التي تسير بها الأمور. كان لدي كلّ ما أريده. كان لدي زوجة وأطفال أحبيتهم، وأفعل ما أريد فعله بحياتي". ولكن لسبب ما: من يعرف لماذا نفعل ما نفعله؟ ازداد تناوله للكحول. كان لا يشرب إلا البيرة لوقت طويل. أي نوع من البيرة. لم يكن يهمه الأمر. قال إنه كان يستطيع أن يشرب البيرة 24 ساعة في اليوم. يشرب البيرة وهو يشاهد التلفاز في الليل. أكيد أنه بين فترة وأخرى كان يشرب أنواعًا قويّة. ولكنه لم يكن يفعل هذا إلا إذا غادروا البلدة، ولم يكن يحدث هذا في غالب الأحيان، أو حين يكون لديهم رفقة. ثم جاء وقت، لا يعرف لماذا، حين قام بالنقلة من البيرة إلى الجن والتونك. وكان يتناول المزيد من الجن والتونك بعد العشاء، وهو جالس أمام التلفاز. يحمل دومًا كأسًا من الجن والتونك في يده. قال إنه يحبّ طعْمه. وبدأ يذهب بعد العمل لتناول الكحول قبل أن يذهب إلى المنزل ليتناول المزيد من الشراب. ثم بدأ يغيب عن العشاء أحيانًا. كان فقط لا يأتي. أو يأتي، ولكن دون أن يطلب أي شيء كي يأكله. يكتفي بالوجبات الخفيفة في الحانات. أحيانًا يدخل من الباب ودون سبب يرمي علبة طعامه عبر غرفة الجلوس.

حين تصرخ روكسي به يستدير ويخرج ثانية. نقل وقت تناوله للشراب إلى بداية بعد الظهر، الوقت الذي من المفترض أنه يعمل فيه. قال لي إنه كان يبدأ الصباح بكأسين. يتناول الكحول بسرعة قبل أن يفرش أسنانه. ثم يتناول قهوته. ويذهب إلى العمل بترمس من الفودكا في علبة غدائه.

يتوقف جي. بي عن الحديث. يصمت فحسب. ما الذي يجري؟ أنا أصغي. هذا يساعدني على الاسترخاء، لسبب واحد. إنه يأخذني بعيدًا عن موقفي. بعد دقيقة قلت: "ماذا بحق الجحيم؟ تابع يا جي. بي". يشدّ ذقنه. ولكنه يواصل الكلام في الحال.

بدأ الشجار الحقيقي بين جي. بي وروكسي الآن. أعني المعارك. قال جي. بي إنها ضربته مرة على وجهه بقبضتها وكسرتْ أنفه. قال: "انظرْ إلى هذا. هنا تماماً". أراني خطًا عبر جسر أنفه. "هذا أنف محطّم". أعاد عمل المعروف. خلع كتفها لها. في وقت آخر شقّ شفتها. كانا يضربان بعضهما أمام الأطفال. فلتت الأمور من السيطرة. ولكنه واصل تناول الكحول. لم يستطع التوقف. ولا شيء يستطيع جعله يوقف ذلك. وليس حتى تهديد والد روكسي وأخيها بأنهما سيضربانه بحدّة. طلبوا من روكسي أن تأخذ الأولاد وتتركه. ولكن روكسي قالت إن هذه مشكلتها. هي التي دخلت فيها، ويجب أن تحلّها.

هدأ جي. بي تمامًا الآن. حدّب كتفيه وتمدد على الكرسي. راقب سيارة تسير على الطريق بين هذا المكان والهضاب.

قلت: "أريد أن أسمع بقية القصة يا جي. بي. من الأفضل أن تواصل الحديث."

قال: "لا أعرف فحسب". ثم هزّ كتفيه.

قلت: "حسنًا." وكنت أعني أنه لا بأس أن يروي القصة. "واصل يا جي. بي."

قال جي. بي إن إحدى الطرق التي حاولت أن تحل بها المشكلة هي العثور على حبيب. وكان جي. بي يريد أن يعرف كيف عثرت على الوقت بسبب المنزل والأولاد.

نظرتُ إليه مندهشًا. إنه رجل ناضج. قلت: "إذا أردتَ أن تفعل هذا، أن تعثر على الوقت، فإنك ستصنع الوقت."

هزّ جي. بي رأسه، وقال: "أظنّ."

على أي حال، اكتشف أمر صديق روكسي وجنّ جنونه. نجح في إخراج خاتم زفاف روكسي من إصبعها. وحين فعل هذا، قطّعه إلى قطع عديدة بقطّاعة أسلاك. كانت هذه متعة حقيقية. قاما بجولتين من القتال في هذه المناسبة. في طريقه إلى العمل في الصباح التالي، اعتُقل بتهمة السّكر. فقد رخصة القيادة. لم يعد بوسعه قيادة الشاحنة إلى العمل بعد ذلك. هذا ما كان ينقصني أيضًا. كان قد سقط عن السقف الأسبوع السابق وكسر إبهامه. وقال إن كسر عنقه هي مسألة وقت فقط.

جاء إلى هنا، إلى مركز فرانك مارتن كي يقدر على ترك الكحول ويفكر كيف يعيد حياته إلى سابق عهدها. ولكنه لم يأت إلى هنا ضد إرادته، أكثر مني. لم نكن محجوزين. كان بوسعنا المغادرة متى شئنا. ولكن البقاء لمدة أسبوع كحد أدنى زُكِّيَ، "ونُصح بقوة" بالبقاء أسبوعين أو شهراً، كما عبّروا عن الأمر.

وكما قلت، كانت هذه المرّة الثانية لي في مركز فرانك مارتن. حين كنتُ أحاول توقيع شيك كي أدفعه مقدمًا للبقاء لمدة أسبوع، قال فرانك مارتن: "إن العطل دومًا سيئة. ربما يجب أن تفكر بالبقاء هنا فترة أطول هذه المرة. فكر بمدة أسبوعين. هل بوسعك أن تمكث أسبوعين؟ فكّر

بالأمر، بأية حال. ليس عليك أن تقرّر أي شيء الآن،" قال. ختم بإبهامه على الشيك ووقعت اسمي. ثم رافقت صديقتي إلى الباب الأمامي وودّعتُها. قالت: "وداعاً،" ثم سارت متمايلة نحو الباب ثم إلى الرواق. كان الوقت أواخر بعد الظهر. المطر يتساقط. انتقلتُ من الباب إلى النافذة. أزحت الستارة وراقبتها وهي تقود سيارتها مبتعدة. إنها في سيارتي وهي ثملة. ولكنّي ثمل أيضًا وما من شيء أستطيع فعله. اتجهت إلى كرسي كبير قريب من أنابيب التدفئة المركزية وجلست. نظر بعض الأشخاص إلى الأعلى رافعين أعينهم عن جهاز تلفازهم. ثم انتقلوا إلى ما كانوا يشاهدونه. جلستُ هناك فحسب. أنظر بين فينة وأخرى إلى شيء ما يحدث على الشاشة. فيما بعد، في بعد الظهر ذاك، فُتح الباب الأمامي وجيء بجي. بي بين ذينك الشخصين الكبيرين: حموه ونسيبه، كما اكتشفتُ فيما بعد. وجّها جي. بي عبر الغرفة. سجّل العجوز اسمه وقدّم الشيك لفرانك مارتن. ثم ساعدا جي. بي على صعود الدرج. خمّنتُ أنهما وضعاه في السرير. في الحال نزل العجوز والشخص الآخر الدرج وأسرعا إلى الباب الأمامي. لم يصدقا متى يخرجان من المكان. بدا الأمر وكأنهما لا يستطيعان الانتظار كي يغسلا أيديهما من كلّ هذا. لم ألُمهما. إلى الجحيم، كلا. لا أعرف ما الذي سأفعله لو كنتُ مكانهما.

بعد يوم ونصف التقيتُ أنا وجي. بي في المدخل الأمامي. تصافحنا وعلّقنا على الطقس أمام المدخل. كان جي. بي مصابًا بالرجفة. جلسنا ووضعنا أرجلنا على الحاجز. اتكأنا إلى الخلف على كراسينا كما لو أننا نسترخي، ونستعد للتحدث عن كلاب صيدنا. في هذا الوقت بدأ جي. بي يروي حكايته. الجو بارد في الخارج، غير أن البرودة ليست شديدة. الجو معتم قليلًا. خرج فرانك مارتن إلى الخارج كي ينهي سيجاره. يرتدي كنزة مزرّرة إلى

الأعلى. فرانك مارتن قصير، ضخم الجثة. شعره رمادي ملتفّ ورأسه صغير. رأسه صغير جدًا بالمقارنة مع بقية جسده. يضع فرانك مارتن السيجار في فمه ويقف طاويًا ذراعيه فوق صدره. يحرك السيجار في فمه وينظر عبر الوادي. يقف هناك كملاكم، كشخص يعرف النتيجة. يهدأ جي. بي ثانية. أعني، بالكاد يتنفّس. أرمي سيجارتي في سطل الفحم وأنظر بحدة إلى جي. بي، الذي يتمدد أكثر إلى الأسفل على كرسيه. يشدّ جي. بي ياقته. ما الذي يجري بحق الجحيم؟ أتساءل. يفك فرانك مارتن تصالب ذراعيه ويسحب سحبة من السيجار. يترك الدخان يخرج من فمه. ثم يرفع ذقنه نحو الهضاب ويقول: "كان جاك لندن يملك منزلًا كبيرًا في الجانب الآخر من الوادي. هناك خلف التل الأخضر الذي تنظر إليه. ولكن الكحول قتله. ليكن هذا درسًا لك. كان أفضل منا جميعًا. ولكنه لم يستطع معاجلة أمر الكحول". ينظر فرانك مارتن إلى ما تبقى من سيجاره. لقد انتهى. يقذف به في السطل. "أنتما بحاجة إلى قراءة شيء ما وأنتما هنا، اقرآ كتابه: نداء البراري. تعرفان الكتاب الذي أتحدث عنه؟ إنه موجود في الداخل إذا أردتما أن تقرآ شيئًا ما. إنه عن هذا الحيوان الذي هو نصف كلب ونصف ذئب. نهاية موعظة،" قال، ثم رفع بنطاله إلى الأعلى وشدّ كنزته في الداخل. قال: "سأدخل. أراكما أثناء الغداء".

قال جي. بي: "أشعر أني كالحشرة حين يكون موجودًا. يجعلني أشعر أنّي حشرة". يهزّ جي. بي رأسه. ثم يقول: "جاك لندن. يا له من اسم! أتمنى لو كان لي اسم كهذا بدلًا من الاسم الذي حصلتُ عليه".

أحضرتْني زوجتي إلى هنا في المرة الأولى. حدث هذا حين كنا ما زلنا معًا، نحاول دفع الأمور لتنجح. أحضرتني إلى هنا وبقيت ساعة أو ساعتين،

وقد تحدثت سرًا مع فرانك مارتن. ثم غادرت. في صباح اليوم التالي أخذني فرانك مارتن جانبًا وقال: "نستطيع أن نساعدك. إذا كنتَ تريد المساعدة وتريد أن تصغي لما نقوله". ولكنّي لم أعرف إن كان بوسعهم مساعدتي أم لا. كان هناك جزء مني يريد المساعدة. ولكن كان هناك جزء آخر.

في حوالي هذا الوقت، كانت صديقتي هي التي قادتني إلى هنا. كانت تقود سيارتي. قادت عبر العاصفة المطرية. شربنا الشمبانيا طيلة الطريق. كنا ثملين حين ضغطت المكابح في المدخل الخاص. كانت تنوي أن تنزلني، تستدير، ثم تقود إلى المنزل. لديها أمور كي تقوم بها. وأحد الأشياء التي يجب أن تقوم بها هو أن تذهب إلى العمل في اليوم التالي. كانت سكرتيرة. لديها عمل لا بأس به في شركة قطع الغيار الإلكترونية. لديها أيضًا ذلك الابن المراهق الثرثار. أردتها أن تستأجر غرفة في البلدة، تمضي الليلة، ثم تقود إلى المنزل. لا أعرف إن استأجرت الغرفة أم لا. لم أسمع منها منذ أن قادتني على الدرجات الأمامية في ذلك اليوم وأدخلتني إلى مكتب فرانك مارتن وقالت: "احذرْ مَن هنا".

ولكنّي لم أغضب منها. ففي المقام الأول لم تكن تملك أية فكرة ما الذي ستواجه حين قالت إنّي أستطيع المكوث معها بعد أن طردتني زوجتي. شعرت بالأسف نحوها. والسبب في أنّي شعرتُ بالأسف نحوها هو أنه قبل يوم من عيد الميلاد جاءت نتيجة فحص عنق رحمها ولم تكن الأنباء جيدة. كان عليها أن تعود إلى الطبيب، وفي الحال. كان ذلك النوع من الأنباء سببًا كافيًا لكلينا كي نبدأ بالشراب. وهذا ما فعلناه: الاستمتاع والسّكر. وفي يوم عيد الميلاد كنا ما نزال ثملين. كان علينا أن نخرج إلى المطعم كي نأكل، لأنها لم ترغب بالطبخ. فتحت أنا وهي وولدها الثرثار

المراهق بعض الهدايا، ثم ذهبنا إلى مطعم شرائح لحم البقر قرب شقتها. لم أكن جائعًا. تناولتُ بعض الحساء ولفافة حارة. شربتُ زجاجة نبيذ مع الحساء. شربتُ بعض النبيذ، أيضًا. ثم بدأنا بالبلودي ماري. في اليومين التاليين، لم آكل أي شيء إلا الجوز المملّح. ولكنّي شربتُ الكثير من البوربون. ثم قلت لها: "حبيبتي، من الأفضل أن أجمع أغراضي. من الأفضل أن أعود إلى مركز فرانك مارتن".

حاولتُ أن تشرح لابنها أنها ستغيب فترة قصيرة وعليه أن يحضّر طعامه. ولكن فيما كنا نخرج من الباب صرخ علينا ذاك الفتى الثرثار قائلاً: "إلى الجحيم! آمل ألا تعودا أبدًا. آمل أن تقتلا نفسيكما!" تصوّروا هذا الفتى! قبل أن نغادر البلدة، تركتها تتوقف عند دكان الخمور واشترت لنا الشمبانيا. توقفنا في مكان آخر من أجل الكؤوس البلاستيكية. ثم اشترينا علبة دجاج مقلي. وانطلقنا إلى مركز سان مارتن في تلك العاصفة المطرية، ونحن نشرب ونصغي إلى الموسيقا. هي التي قادت السيارة. كنت أعتني بالراديو وأملأ الكأسين. حاولنا أن نصنع حفلة صغيرة من الأمر. ولكننا كنا حزينين أيضًا. كان هناك الدجاج المقليّ، ولكننا لم نأكل.

أعتقد أنها وصلت إلى المنزل سالمة. وأظن أنّي كنت سأسمع لو أنها لم تصل. ولكنها لم تتصل بي، ولم أتصل بها. ربما حصلت على بعض الأنباء عن نفسها الآن. ثم ثانية، ربما لم تسمع أي شيء. ربما الأمر كلّه خطأ. ربما كان اختبارًا لشخص آخر. ولكن سيارتي معها، ولدي أشياء في منزلها. أعرف أننا سنلتقي ثانية.

يرنّون جرس مزرعة قديم هنا كي يجمعونا لتناول الطعام. نهضت أنا وجي. بي عن الكرسيين ودخلنا. بدأ البرد يشتدّ في الردهة أيضًا، بأية حال. كان بوسعنا أن نرى نَفَسَنا يندفع منا ونحن نسير.

حاولت في صباح عشية رأس السنة أن أتصل بزوجتي. إنها بخير. ولكن حتى لو لم تكن بخير ما الذي من المفترض عليّ فعله؟ في المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها بالهاتف، منذ أسبوعين، صرخنا على بعضنا. دعوتها ببعض الأسماء. قالت: "مختلّ الدماغ!" ووضعت الهاتف حيث كان.

ولكنّي أردتُ أن أتحدث معها الآن. يجب أن يُفعل شيء ما حيال أغراضي. ما أزال أملك أشياء في منزلها، أيضًا.

إن أحد الأشخاص هنا شخص يسافر. يذهب إلى أوروبا وأمكنة أخرى. هذا ما يقوله، بأية حال. يقول إنه العمل. يقول دومًا إنه يسيطر على شرابه وإنه لا يمتلك فكرة لماذا هو هنا في مركز فرانك مارتن. ولكنه لا يتذكر الوصول إلى هنا. يضحك على الأمر، على عدم تذكره. قال: "إن أي شخص يمكن أن يُصاب بفقدان الوعي. هذا لا يبرهن على أي شيء". إنه ليس ثملاً، يقول لنا هذا ونحن نصغي. قال: "هذه تهمة خطيرة تُوجّه. إن هذا النوع من الحديث يمكن أن يدمّر إمكانيات رجل جيد". يقول إنه لو يتقيّد فقط بالويسكي والماء، دون ثلج، فإنه لن يُصاب أبدًا بفقدان الوعي هذا. إن الثلج الذي يضعونه في شرابك هو الذي يفعل الأمر. سألني: "من تعرف في مصر؟ أستطيع أن أستخدم بعض الأسماء هناك".

يقدّم فرانك مارتن في عشاء رأس السنة شرائح لحم البقر والبطاطا المقلية. بدأت شهيتي تعود. أفرغ كلّ ما في كأسي وأستطيع أن آكل المزيد. أنظر إلى صحن تايني. بالكاد لمس شيئًا. إن شريحة لحم البقر الخاصة به ما تزال كلها هناك. إنّ تايني ليس تايني القديم نفسه. خطط هذا الوغد المسكين أن يكون في المنزل الليلة. خطط أن يكون في ردائه وشبشبه وأمام التلفاز، يشابك يديه مع زوجته. والآن هو خائف من المغادرة. أستطيع أن

أفهم. إن نوبة واحدة تعني أنك مستعد للأخرى. لم يعد تايني يروي المزيد من القصص الغريبة عن نفسه منذ أن حدث هذا. بقي صامتًا ومنعزلًا. سألته إن كان بوسعي تناول شريحته، فدفع صحنه إليّ.

كان بعضنا لا يزال مستيقظًا، ويجلس حول التلفاز، نشاهد تايم سكوير، حين دخل فرانك مارتن كي يرينا قالب الكعك. دار به وأراه لنا جميعًا. أعرف أنه لم يعدّه وأنه أحضره من المخبز. ولكنه قالب كعك في النهاية. إنه قالب كبير أبيض. وعلى القمة كتابة بأحرف قرنفلية تقول: "كل عام وأنتم بخير".

قال الشخص الذي يذهب إلى أوروبا وأمكنة أخرى: "لا أريد قالب كعك غبيًا. أين الشمبانيا؟" قال وهو يضحك.

ندخل جميعنا إلى غرفة الطعام. يقطع فرانك مارتن القالب. أجلس قرب جي. بي. يأكل جي. بي قطعتين ويشرب الكولا. آكل قطعة وألفّ الأخرى في منديل، مفكرًا في ما بعد.

يشعل جي. بي سيجارة. يداه ثابتتان الآن ويقول لي إن زوجته قادمة هذا الصباح، اليوم الأول من العام الجديد.

قلت: "هذا عظيم". هززتُ رأسي. لعقت الكريمة عن إصبعي. "هذه أنباء طيبة يا جي. بي".

قال: "سأعرفك عليها."

قلت: "أتطلع إلى ذلك."

ودّع بعضنا بعضًا. قال كل واحد للآخر كل عام وأنت بخير. لففتُ منديلًا على أصابعي. تصافحنا.

ذهبتُ إلى الهاتف، وضعتُ قرشًا، واتصلت بزوجتي بطريقة تدفع هي بموجبها أجر المكالمة. ولكن لم يجب أحد هذه المرة، أيضًا. أفكر بالاتصال

بصديقتي، وأنا أدق رقمها أدرك أنني في الحقيقة لا أريد أن أتحدث معها. ربما هي في المنزل تشاهد في التلفاز الشيء نفسه الذي كنتُ أشاهده. على أي حال، لا أريد التحدث إليها. آمل أنها بخير. ولكن إن حدث معها شيء ما خطير فإنّي لا أريد أن أعرف عنه.

بعد تناول الفطور، أخذت أنا وجي. بي القهوة إلى الردهة. السماء صافية، ولكن الجو بارد بما يكفي لارتداء الكنزات والسترات.

قال جي. بي: "سألتني إن كانت تستطيع أن تحضر الأطفال. قلت إنها يجب أن تبقيهم في المنزل. هل تستطيع تخيل هذا؟ يا إلهي، لا أريد أبنائي هنا".

نستخدم سطل الفحم كمنفضة. ننظر عبر الوادي حيث كان جاك لندن يعيش. كنا نشرب المزيد من القهوة حين انعطفت تلك السيارة عن الطريق إلى المدخل الخاص.

قال جي. بي: "هذه هي!" وضع قبعته إلى جانب كرسيه. نهض ونزل الدرج. أشاهد المرأة توقف السيارة وتضغط المكابح. أشاهد جي. بي يفتح الباب. أراقبها وهي تخرج، وأراهما يتعانقان. أنظر بعيدًا. ثم أعيد النظر. يطوقها جي. بي بذراعه ويصعدان الدرج. إن هذه المرأة كسرتْ أنف رجل مرة. لديها طفلان، والكثير من المشاكل، ولكنها تحب هذا الرجل الذي يمسكها من ذراعها. أنهض عن الكرسي.

يقول جي. بي لزوجته: "هذا صديقي. هيه، هذه روكسي."

تصافحني روكسي. إنها امرأة طويلة وجميلة، تعتمر قبعة محاكة. ترتدي معطفًا، وسترة ثقيلة، وبنطالا. أذكر ما قاله لي جي. بي عن الصديق وقطاعة الأسلاك. لا أرى أي خاتم زفاف. إنه في قطع في مكان ما كما

خمنت. يداها عريضتان والأصابع فيها تلك البراجم الكبيرة. هذه امرأة تستطيع أن توجّه لكمات بقبضتها إذا أرادت.

قلت: "لقد سمعتُ عنك. أخبرني جي. بي كيف تعارفتما. شيء ما عن المدخنة، كما قال جي. بي."

قالت: "نعم المدخنة. هناك على الأرجح الكثير الذي لم يخبرك به. أراهن أنه لم يخبرك كل شيء،" قالت وهي تضحك. ثم، غير قادرة على الانتظار، وضعت ذراعها حول جي. بي وقبلته على خده. بدآ يتحركان نحو الباب. قالت: "سرّني اللقاء بك. هيه، هل قال لك إنه أفضل منظّف في هذه المصلحة؟"

قال جي. بي: "هيا الآن يا روكسي". كان قد وضع يده على مسكة الباب.

قلت: "قال لي إنه تعلّم كل شيء منك".

"حسناً، هذا صحيح،" قالت. ثم ضحكت ثانية. ولكن بدت كأنها تفكر في شيء آخر. يدير جي. بي قبضة الباب. روكسي تضع يدها على يده. "هل نستطيع أن نذهب إلى البلدة لتناول الغداء يا جو؟ هل أستطيع أن آخذك إلى مكان ما؟"

يتنحنح جي. بي. يقول: "لم يمرّ أسبوع بعد". ينزل يده عن قبضة الباب ويضع أصابعه على ذقنه. "أعتقد أنهم سيحبون الأمر إذا لم أغادر المكان قليلًا. نستطيع تناول بعض القهوة هنا الآن".

قالت: "هذا جيد". عادت عيناها إليّ ثانية. "أنا سعيدة أن جو صنع صديقًا. تسرني لقياك".

بدآ بالدخول. أعرف أنه شيء سيء فعل ذلك، ولكنّي فعلته بأية حال.

قلت: "روكسي". وتوقفا في الردهة ونظرا إليّ. قلت: "أحتاج إلى بعض الحظ. لا أمزح. أحتاج إلى قبلة أنا نفسي".

نظر جي. بي. كان ما زال يمسك قبضة الباب، رغم أن الباب مفتوح. يدير القبضة إلى الأمام والخلف. ولكنّي أواصل النظر إليه. ابتسمت روكسي. "لم أعد منظفة مداخن،" تقول. "لم أفعل هذا لسنوات. ألم يخبرك جو بهذا؟ ولكنّي سأقبّلك بالتأكيد".

تتحرك نحوي. تمسكني من كتفيّ، أنا رجل كبير، وتزرع قبلتها على شفتيّ.

قالت: "كيف هذا؟"

قلت: "رائع".

"لا شيء معه،" قالت. كانت لا تزال تمسكني من الكتفين. نظرت في عيني تمامًا. "حظًا جيداً،" قالت، ثم تركتني.

"أراك فيما بعد يا صديقي،" قال جي. بي. يفتح الباب ويدخلان.

أجلس على الدرجات الأمامية وأشعل سيجارة. أراقب ما تفعله يدي، ثم أطفئ عود الثقاب. لقد أُصبت بالرجفة. بدأت هذا الصباح. في هذا الصباح أردتُ أن أشرب شيئًا. هذا مزعج، ولكنّي لا أقول أي شيء عن هذا لجي. بي. أحاول أن أشغل ذهني بشيء آخر.

رحتُ أفكر في تنظيف المداخن وكل ذلك الذي سمعته من جي. بي، حين لسبب ما بدأت أفكر في منزل عشتُ فيه أنا وزوجتي فترة. لم يكن في المنزل مدخنة، ولهذا لا أعرف ما يجعلني أتذكره الآن. ولكنّي تذكرتُ المنزل وكيف كنا هناك فحسب لبضعة أسابيع وسمعت ضجة في الخارج في صباح أحد الأيام. كان صباح الأحد والجو لا يزال مظلمًا في غرفة النوم. ولكن كان هناك ذلك الضوء الشاحب القادم من نافذة غرفة النوم. أصغيت. استطعت سماع شيء ما يفرك على جانب المنزل. قفزت من السرير وذهبت كي أرى.

"يا إلهي،" قالت زوجتي، جالسة في السرير ونافضة الشعر عن وجهها. ثم

بدأت تضحك. قالت: "إنه السيد فنتوريني. نسيت أن أخبرك. قال إنه آت لدهن المنزل اليوم. باكرًا. قبل أن يصبح الجو حارًا. نسيت الأمر،" قالت، وضحكت. "عد إلى السرير، يا حبيبي. إنه هو فقط".

قلت: "بعد دقيقة".

دفعتُ الستارة عن النافذة. كان ذلك الشخص العجوز يقف في الخارج مرتديًا معطفًا إلى جانب سلّمه. كانت الشمس قد بدأت بالشروق فوق الجبال. تبادلت أنا والعجوز النظرات. إنه المالك، حسنًا، هذا العجوز الذي يرتدي معطفًا يغطّيه. غير أن معطفه كبير جدًا عليه. يحتاج إلى أن يحلق، أيضًا. وكان يرتدي قبعة البيسبول تلك كي يغطي رأسه الأصلع. اللعنة، أعتقد أنه عجوز غريب. وغمرتني موجة من السعادة أنّي لستُ هو، أنّي أنا، وأنّي داخل غرفة النوم مع زوجتي.

يحرك إبهامه نحو الشمس. يتظاهر بأنه يمسح جبينه. إنه يجعلني أعرف أنه لا يملك الكثير من الوقت. يبتسم العجوز. عندها أدرك أنّي عار. أنظر إلى نفسي. أنظر إليه ثانية وأهز كتفيّ. ماذا يتوقع؟

ضحكت زوجتي وقالت: "هيا. عدْ إلى السرير. الآن. هذه اللحظة. عدْ إلى السرير".

أترك الستائر. ولكنّي أواصل الوقوف هناك أمام النافذة. كان بوسعي رؤية العجوز يهزّ رأسه لنفسه كما لو أنه يقول: "اذهب يا بني، عد إلى السرير. أفهم". يربت على طرف قبّعته. ثم ينطلق إلى عمله. يلتقط سطله. ويبدأ تسلق السلم.

أتكئ إلى الخلف على الدرجة التي خلفي الآن وأضع ساقًا فوق أخرى. ربما فيما بعد في هذا الأصيل سأحاول الاتصال بزوجتي ثانية. ثم سأتصل

كي أعرف ما جرى لصديقتي. ولكنّي لا أريد أن يردّ عليّ ابنها الثرثار. إذا اتّصلت، آمل أن يكون في الخارج في مكان ما يفعل ما يفعله حين لا يكون في المنزل. أحاول أن أتذكّر إن كنتُ قد قرأتُ أيًّا من كتب جاك لندن. لا أستطيع التذكّر. ولكن له قصة قرأتُها في الثانوية. "إشعال نار" هذا كان عنوانها. ذلك الشخص في يوكون يتجمّد. تخيّلوا الأمر. سيتجمّد حتى الموت إذا لم يستطع إشعال نار. بإشعال النار، يستطيع أن يدفّئ جواربه وأشياءه ويدفئ نفسه.

يشعل النار، ولكنّ شيئًا يحدث لها عندئذ. يسقط عليها غصن محمل بالثلج. تنطفئ. في غضون ذلك يزداد البرد، والليل يقترب.

أخرج بعض القروش من جيبي. سأجرب الاتصال مع زوجتي أولًا. إذا أجابت، سأهنئها بالعام الجديد. هذا هو الأمر فحسب. لن أناقش العمل. لن أرفع صوتي. حتى لو بدأت شيئًا ما. ستسألني من أين أتّصل، وسأضطر أن أخبرها. لن أقول أي شيء عن قرارات العام الجديد. ما من طريقة لصناعة نكتة من هذا. بعد أن أتحدث معها، سأتصل بصديقتي. ربما سأتصل بها أولًا. فقط عليّ أن آمل ألا يردّ ولدها. سأقول حين تجيب: "مرحبًا يا حبيبتي. هذا أنا."

القطار

(إلى جون تشيفرز)

كانت المرأة تُدعى الآنسة دينت، وفي أوائل ذلك المساء شهرت مسدسًا على رجل. أجبرته على الركوع في الطين والتوسل من أجل حياته. بكى الرجل وأمسك بأصابعه الأعشاب، وهي تسدد إليه المسدس وتخبره أمورًا عن نفسه. حاولت أن تجعله يفهم أنه ليس بوسعه مواصلة الدوس على مشاعر البشر. "لا تتحرك!" قالت، رغم أن الرجل كان يحفر بأصابعه في الطين ويحرك ساقيه قليلًا بسبب الخوف فحسب. وحين انتهت من التحدث، وبعد أن قالت كل ما استطاعت التفكير في قوله له، وضعت قدمها على قفا رأسه ودفعت وجهه في الطين. ثم وضعت المسدس في حقيبة يدها وعادت سائرة إلى محطة القطار.

جلست على مقعد في غرفة الانتظار المهجورة والحقيبة في حضنها. مكتب التذاكر مغلق؛ وما من أحد هناك، حتى موقف السيارات خارج المحطة فارغ. استقر نظرها على ساعة الحائط الكبيرة. أرادت أن تتوقف عن التفكير في الرّجل وكيف تصرّفَ معها بعد أن أخذ ما أراده. ولكنها عرفتْ أنها ستتذكر لوقت طويل الصوت الذي أصدره من أنفه حين ركع على

ركبتيه. أخذتْ نَفَسَاً، أغمضتْ وأصغتْ لصوت القطار.
فُتح باب غرفة الانتظار. نظرت الآنسة دينت في ذلك الاتجاه فيما كان شخصان يدخلان. أحدهما عجوز بشعر شائب، ويرتدي ربطة عنق حريرية بيضاء، والآخر امرأة متوسطة العمر تضع ظلًا على عينيها، وأحمر شفاه، وترتدي فستانًا مُحاكًا وردي اللون. برد الجو في المساء، ولم يكن أي منهما يرتدي معطفاً، وكان العجوز لا ينتعل حذاء. توقفا في المدخل، على ما يبدو مندهشين من رؤية شخص في غرفة الانتظار. حاولا التصرف وكأن حضورها لم يصبهما بخيبة أمل. قالت المرأة شيئًا ما للعجوز، ولكن الآنسة دينت لم تسمعها. دخل الشخصان إلى الغرفة. بدا للآنسة دينت كأنهما في حالة من الاهتياج، غادرا مكانًا ما بسرعة كبيرة ولم يتمكنا بعد من العثور على طريقة للتحدث عن الأمر. وظنّت الآنسة دينت أنه من المحتمل أنهما أفرطا في تناول الكحول أيضًا. نظرت المرأة والرجل ذو الشعر الشائب إلى ساعة الحائط، كما لو أنها يمكن أن تخبرهما شيئًا ما عن موقفهما وما المفترض أن يفعلاه.
أدارت الآنسة دينت عينيها إلى الساعة أيضًا. لم يكن هناك شيء في غرفة الانتظار يعلن متى تصل القطارات ومتى تغادر. ولكنها كانت مستعدة للانتظار مهما طال الوقت. تعرف أنها لو انتظرت طويلًا بما يكفي فإن قطارًا سيأتي، ويمكن أن تصعد إلى متنه، وأنه سيأخذها بعيدًا عن هذا المكان.
"مساء الخير،" قال الرجل العجوز للآنسة دينت. قال هذا، كما اعتقدت، كما لو أن الليلة ليلة صيفية عادية وكأنه رجل عجوز مهم ينتعل حذاء ويرتدي سترة مسائية.
ردت الآنسة دينت: "مساء الخير."

نظرتْ إليها المرأة التي ترتدي فستانًا مُحاكًا بطريقة مدروسة لجعل الآنسة دينت تعرف أن المرأة ليست سعيدة لرؤيتها في غرفة الانتظار.

جلس العجوز والمرأة على مقعد مقابل الردهة مباشرة حيث تجلس الآنسة دينت. راقبت فيما كان العجوز يشدّ قليلًا ركبتي بنطاله ثم وضع ساقًا فوق أخرى وبدأ يهزّ قدميه اللذين فيهما جوارب. أخرج علبة سجائر ومشرب سيجارة من جيب قميصه. أدخل السيجارة في المشرب ورفع يده إلى جيب قميصه. ثم مدّ يده في جيب بنطاله.

قال للمرأة: "ليس معي ولاعة."

قالت المرأة: "أنا لا أدخّن. من الواضح أنك لا تعرف الكثير عني. إذا كان يجب أن تدخن، قد يكون لديها علبة كبريت". رفعت المرأة ذقنها ونظرتْ بحدة إلى الآنسة دينت.

غير أن الآنسة دينت هزّتْ رأسها. سحبت حقيبة اليد وقرّبتها. شدت ركبتيها معاً، وأصابعها تمسك الحقيبة.

"وهكذا رغم كل شيء لا يوجد أعواد ثقاب،" قال الرجل ذو الشعر الشائب. فحص جيبيه مرة أخرى. ثم تنهّد وأخرج السيجارة من المشرب. دفع السيجارة في العلبة. وضع السجائر والمشرب في جيب قميصه.

بدأت المرأة تتحدث بلغة لم تفهمها الآنسة دينت. ظنت أنها إيطالية من كلمات بدت ككلمات سمعت صوفيا لورين تنطقها في فيلم.

هزّ العجوز رأسه وقال: "لا أستطيع أن أتابعك، كما تعلمين. أنت سريعة جدًا بالنسبة إلي. يجب أن تبطئي. يجب أن تتحدثي الإنجليزية. لا أفهم عليك."

أرخت الآنسة دينت قبضتها عن الحقيبة ونقلتها من حضنها إلى مكان إلى جانبها على المقعد. حدّقت إلى مقبض الحقيبة. لم تكن تعرف ما الذي

يجب أن تفعله. كانت غرفة انتظار صغيرة، وكرهت أن تنهض فجأة وتنتقل إلى مكان آخر كي تجلس. انتقلت عيناها إلى الساعة.

قالت المرأة: "لا أستطيع التعامل مع مجموعة المجانين هناك. إنها مسألة كبيرة! لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. يا إلهي!" قالت المرأة هذا وهزّت رأسها. استرخت على المقعد كما لو أنها منهكة. رفعت عينيها وحدقت قليلًا إلى السقف.

أمسك العجوز ربطة العنق الحريرية بأصابعه وبدأ يحك بكسل المادة جيئة وذهابًا. فتح زرًّا في قميصه وأدخل ربطة العنق. بدا كأنه يفكّر في شيء آخر فيما كانت المرأة تتحدث.

قالت المرأة: "إنها تلك الفتاة التي أشعر بالأسف عليها. تلك المسكينة وحيدة في منزل مليء بالقوادين والخونة. إنها هي التي أشعر بالأسف عليها، وهي التي ستدفع الثمن! لا أحد من بقيتهم. أكيد ليس ذلك المعتوه الذي يُدعى الكابتن نيك! إنه غير مسؤول عن أي شيء. ليس هو."

رفع العجوز عينيه ونظر حوله في غرفة الانتظار. حدق لبعض الوقت إلى الآنسة دينت.

نظرت الآنسة دينت إلى وراء كتفه وعبر النافذة. هناك استطاعت أن ترى منصب المصباح، وضوءه الذي يشع على موقف السيارات. شابكت يديها في حضنها وحاولت أن تبقي انتباهها مركزًا على شؤونها. ولكنها لم تستطع أن تتجنب سماع ما يقوله الشخصان.

قالت المرأة: "أستطيع أن أخبرك هذا القدر. إن الفتاة هي ما أقلق عليه. من يكترث بالبقية؟ إن وجودهم برمّته يدور حول القهوة بالحليب والسجائر، والشكولاتة السويسرية الثمينة الخاصة بهم وتلك الببغاوات اللعينة. لا شيء آخر يعني أي شيء لهم،" قالت المرأة. "ماذا يهمهم؟ إذا لم

أشاهد أولئك الرعاع ثانية فسيتم الأمر في الحال. أتفهمني؟"
قال العجوز: "أكيد أنّي أفهمك. بالطبع". وضع قدميه على الأرض ثم وضع ساقه الأخرى فوق ركبته. قال: "ولكن لا تفقدي عقلك حيال الأمر الآن".
"يقول لا تفقدي عقلك حيال الأمر. لماذا لا تنظر إلى نفسك في المرآة؟" قالت المرأة.
قال العجوز: "لا تقلقي عليّ. لقد حدثت لي أمور أسوأ، وما أزال هنا". ضحك بهدوء وهزّ رأسه. "لا تقلقي عليّ".
قالت المرأة: "كيف لا أقلق عليك. من الذي سيقلق عليك غيري؟ هل هذه المرأة التي تحمل الحقيبة ستقلق عليك؟" قالت، متوقفة طويلًا بما يكفي كي تنظر إلى الآنسة دينت. "أنا جدية يا صديقي. انظر إلى نفسك فحسب! يا إلهي، لو لم يكن لدي أمور كثيرة كهذه في ذهني، يمكن أن يحصل لي انهيار عصبيّ هنا. قل من هناك غيري يقلق عليك إذا لم أقلق أنا؟ أنا أطرح سؤالًا جديًا. أنت تعرف الكثير، إذًا أجب على سؤالي هذا."
نهض الرجل ذو الشعر الشائب على قدميه وجلس ثانية. قال: "لا تقلقي عليّ فحسب. اقلقي على شخص آخر. اقلقي على الفتاة وعلى الكابتن نيك إذا أردت أن تقلقي. كنت في غرفة أخرى حين قال: أنا لستُ جديًا، ولكنّي أحبّها. كانت هذه هي كلماته بالضبط".
"عرفتُ أن شيئًا كهذا سيحصل!" صاحت المرأة. أغلقت أصابعها ورفعت يديها إلى صدغيها. قالت: "عرفت أنك ستقول لي شيئًا كهذا! ولكن هذا لا يفاجئني أيضًا. كلا. إن اللبوة لا تغيّر مواضعها. ولم تُنطق كلمات أكثر صدقًا أبدًا. عشْ وتعلّم. ولكن متى ستستيقظ، أيها العجوز الأحمق؟ أجبني على هذا. هل أنت مثل البغل الذي يجب أن يُضرب أولًا بين

العينين بعصا؟ يا إلهي! لماذا لا تذهب وتلقي نظرة على نفسك في المرآة؟ ألق نظرة جيدة طويلة وأنت تفعل ذلك".

نهض العجوز عن المقعد وانتقل إلى نافورة مياه الشرب. وضع يدًا خلف ظهره، فتح الصنبور، وانحنى كي يشرب. ثم انتصب وربت على ذقنه بقفا يده. وضع كلتا يديه خلف ظهره وبدأ السير في أنحاء غرفة الانتظار كما لو أنه في نزهة.

استطاعت الآنسة دينت أن ترى عينيه تفحصان الأرضية والمقاعد الفارغة والمنافض. فهمت أنه يبحث عن أعواد ثقاب، وكانت متأسفة أنه ليس معها أي منها.

استدارت المرأة كي تواكب سير العجوز. رفعت صوتها وقالت: "دجاج كينتاكي مقلي في النورث بول! العقيد ساندرز في سترة فرائية لها قبعة وبوط. هذا ما أنهى المسألة. كان ذلك هو الحدّ!"

لم يجب العجوز. واصل تفتيشه للغرفة وجاء كي يقف أمام النافذة الأمامية. وقف على النافذة، يداه خلف ظهره، ونظر إلى موقف السيارات الفارغ.

استدارت المرأة إلى الآنسة دينت. شدت المادة التي تحت ذراع فستانها. "في المرة التالية التي سأشاهد فيها أفلامًا منزلية عن بوينت بارو، ألاسكا، وسكان الإسكيمو الأصليين فيها، فإنّي سأطلبها. يا إلهي، كانت بلا ثمن! إن بعض الناس سيذهبون إلى أية أبعاد. سيحاول بعض الناس أن يقتلوا أعداءهم بالضجر. ولكنك تحتاج إلى تكون هناك". حدقت المرأة بحرارة إلى الآنسة دينت وكأنها تتحداها أن تعارضها.

التقطت الآنسة دينت الحقيبة ووضعتها في حضنها. نظرت إلى الساعة، التي بدت كأنها تتحرك ببطء شديد، هذا إذا كانت تتحرك.

قالت المرأة للآنسة دينت: "لا تتحدثين كثيرًا. ولكنّي أراهن أنك ستقولين الكثير إذا جعلك أحد ما تبدئين. أليس كذلك؟ لكنك مخادعة. تفضلين الجلوس بفمك الصغير المتزمّت بينما يفرغ الآخرون رؤوسهم بالحديث. هل أنا مصيبة؟ مياه هادئة. أهذا هو اسمك؟ بماذا ينادونك؟" سألتها المرأة.

"الآنسة دينت. ولكنّي لا أعرفك،" قالت الآنسة دينت.

"أنا متأكدة أيضًا من أنّي لا أعرفك!" قالت المرأة. "لا أعرفك ولا تهمّني معرفتك. اجلسي هناك وفكّري بماذا تريدين. لن يغيّر هذا أيّ شيء. ولكنّي أعرف بماذا أفكر، وأعتقد أنه نتن!"

غادر العجوز مكانه عند النافذة وخرج. حين عاد بعد لحظة فيما بعد، كانت معه سيجارة مشتعلة في مشربه وبدا في معنويات أفضل. دفع كتفيه إلى الخلف وذقنه إلى الأمام. جلس إلى جانب المرأة.

قال: "عثرت على علبة كبريت. علبة كبريت كانت هناك إلى جانب الرصيف. لا بد أنها سقطت من أحدهم".

قالت المرأة: "أنت محظوظ. وهذا يدعم موقفك. عرفتُ دومًا هذا عنك، حتى ولو لم يعرف أحد آخر ذلك. إن الحظ مهمّ". نظرت المرأة إلى الآنسة دينت وقالت: "أيتها الشابة، أراهن أن لك حصتك من التجربة والرعب في هذه الحياة. أعرف أنّ لك حصة. يقول لي التعبير في وجهك عن ذلك. لكنك لن تتحدثي عن الأمر. ظلّي هكذا، لا تتحدثي. لنقم نحن بالتحدث. ولكنك ستهرمين. ثم سيكون لديك شيء تتحدثين عنه. انتظري حتى تصبحي في عمري. أو في عمره،" قالت المرأة وأشارت بإبهامها إلى العجوز. "لا سمح الله. ولكنه سيأتي إليك. في وقته العذب سيأتي إليك. لن يكون عليك البحث عنه، أيضًا. سيعثر عليك".

نهضت الآنسة دينت عن المقعد حاملة حقيبتها وذهبت إلى صنبور مياه الشرب. شربت ثم استدارت كي تنظر إليهما. كان الرجل العجوز قد انتهى من التدخين. أخرج ما تبقى من سيجارته من المشرب ورماه تحت المقعد. نفض المشرب على راحة كفه، نفخ في فتحته، وأعاده إلى جيب قميصه ثم ركز انتباهه على الآنسة دينت. ثبت عينيه عليها وانتظر مع المرأة. جمعت الآنسة دينت شجاعتها كي تتحدث. لم تكن متأكدة أين تبدأ، ولكنها فكرت أنها يمكن أن تبدأ بالقول إن لديها مسدسًا في حقيبتها. يمكن أن تقول لهما إنها كانت على وشك أن تقتل رجلًا في أول المساء.

ولكن في تلك اللحظة سمعوا القطار. سمعوا أولًا الصفرة، ثم صوت قعقعة، وجرس إنذار، حين أُنزلت حواجز السكة عند المعبر. نهضت المرأة والرجل ذو الشعر الشائب عن المقعد وتحركا نحو الباب. فتح العجوز الباب لرفيقته، ثم ابتسم وقام بحركة بسيطة بأصابعه للآنسة دينت كي تسبقه. أمسكت الحقيبة عند مقدمة بلوزتها وتبعت المرأة الأكبر منها إلى الخارج.

صفر القطار مرة أخرى وهو يبطئ ثم يتوقف أمام المحطة. كان الضوء في أعلى المحرّك يروح جيئة وذهابًا فوق المسار. وكانت العربتان اللتان تصنعان هذا القطار الصغير مضاءتين جيداً، وهكذا كان من السهل للأشخاص الثلاثة على المنصة أن يشاهدوا أن القطار كان شبه فارغ. ولكن هذا لم يدهشهم. ففي مثل هذه الساعة، سيتفاجؤون إذا شاهدوا أحدًا ما في القطار.

نظر المسافرون القليلون في العربات عبر الزجاج واعتقدوا أنه من الغريب رؤية أولئك الأشخاص على المنصة، وهم يستعدون لكي يصعدوا إلى القطار في هذا الوقت من الليل. ما العمل الذي يمكن أنه دفعهم إلى ذلك؟

كانت هذه هي الساعة التي يجب أن يفكر خلالها الناس في النوم. وكانت المطابخ في المنازل التي على التلال خلف المحطة نظيفة ومرتبة؛ فقد أنهت غاسلات الصحون الآلية منذ وقت طويل دورتها، وكل الأشياء في أمكنتها. المصابيح الليلية مضاءة في غرف نوم الأطفال. وربما بعض الفتيات المراهقات ما زلن يقرأن الروايات، ويلففن على أصابعهن خصلة شعر وهن يفعلن هذا. ولكن أجهزة التلفاز مطفأة الآن، والأزواج والزوجات يقومون بتحضيراتهم من أجل الليل. أما نصف دزينة المسافرين أو ما يقارب ذلك، والذين يجلسون لوحدهم في العربتين، فقد كانوا ينظرون عبر الزجاج ويتساءلون عن الأشخاص الثلاثة على المنصة.

شاهدوا امرأة متوسطة العمر مفرطة في التبرج ترتدي فستانًا محاكًا وردي اللون تصعد الدرجات وتدخل القطار وخلفها امرأة أصغر منها ترتدي بلوزة وقميصًا صيفيًا وتحمل حقيبة يد. يتبعهما إلى داخل القطار رجل عجوز بطيء الحركة يسير بطريقة تنم عن وقار. وكان شعر الرجل شائبًا ويرتدي ربطة عنق حريرية بيضاء، ولكنه لا ينتعل حذاء. افترض المسافرون على نحو طبيعي أن الأشخاص الثلاثة الذين يدخلون إلى القطار كانوا معًا؛ وشعروا على نحو مؤكد أنه مهما كان عمل هؤلاء الأشخاص في الليل، فإنه سيصل إلى خاتمة سعيدة. ولكن المسافرين كانوا قد شاهدوا أشياء أكثر تنوّعًا من هذا في فترة حياتهم. إن العالم مليء بالأعمال من كل نوع، كما يعرفون جيدًا. غير أن هذا لم يكن سيئًا حتى الآن كما من المحتمل أن يكون. لهذا السبب، نادرًا ما فكروا مرة أخرى بأولئك الثلاثة الذي دخلوا في الممر واحتلوا أمكنتهم: المرأة والعجوز ذو الشعر الشائب جلسا إلى جانب بعضهما، فيما جلست المرأة التي تحمل الحقيبة خلفهما ببضعة مقاعد. بدلًا من ذلك، حدق

المسافرون إلى المحطة وعادوا إلى التفكير في أعمالهم، تلك الأمور التي شغلتهم قبل موقف المحطة.

نظر قاطع التذاكر إلى سكة الحديد. ثم عاود النظر في الاتجاه الذي جاء منه القطار. رفع ذراعه، وبمصباح، أشار إلى المهندس. كان هذا ما ينتظره المهندس. أدار قرصًا وأنزل مقبضًا. بدأ القطار يندفع إلى الأمام. سار ببطء في البداية، ولكنه بدأ يراكم السرعة. تحرك بسرعة أكبر إلى أن أسرع مرة أخرى عبر الريف المظلم، وكانت عربتاه المتألقتان ترميان الضوء على حصى الطريق.

حمّى

كان كارلايل يمرّ في موقف حرج. مرَّ في موقف حرج طيلة الصيف، منذ أن انفصلت عنه زوجته في أوائل حزيران/ يونيو. ولكن حتى منذ مدة قصيرة، قبل بضعة أيام فحسب، قبل أن يحين موعد اللقاء مع صفوفه في الثانوية، لم يكن كارلايل بحاجة إلى جليسة أطفال. في كل يوم وكل ليلة كان يعتني بولديه ويقول لهما إن أمهما ذهبت في رحلة طويلة إلى مكان بعيد.

ديبي، أول جليسة اتصلت به، فتاة سمينة، في التاسعة عشرة من عمرها. قالت لكارلايل إنها من عائلة كبيرة. أحبها الأطفال، كما قالت. قدمت اسمين كمرجع. كتبتهما بقلم رصاص على قطعة من الورق من دفتر الملاحظات. أخذ كارلايل الاسمين، طوى قطعة الورق، ووضعها في جيب قميصه. قال لها إن لديه اجتماعات في اليوم التالي ويجب أن تبدأ بالعمل عنده في الصباح التالي فوافقت.

فهم أن حياته تدخل مرحلة جديدة. غادرت إيلين فيما كان كارلايل لا يزال يملأ تقارير درجاته. قالت إنها ذاهبة إلى جنوب كاليفورنيا كي تبدأ حياة جديدة هناك. ذهبت مع رتشارد هوبز، أحد زملاء كارلايل في الثانوية. هوبز أستاذ مسرح ومدرس نفخ زجاج قام على ما يبدو بتسليم علاماته

في الوقت المناسب، وأخذ أغراضه، وغادر البلدة بسرعة مع إيلين. والآن، بما أن الصيف الطويل والمؤلم صار تقريبًا خلفه، وصفوفه على وشك أن تُستأنف، ركّز كارلايل في النهاية انتباهه على مسألة العثور على جليسة أطفال. لم تنجح جهوده الأولى. وبسبب يأسه من العثور على شخص ما، أي شخص، قبل ديبي.

في البداية، كان ممتنًا لقدوم هذه الفتاة استجابة لاتصاله. سلّم لها المنزل والأطفال كما لو أنها من أقربائه. وهكذا لم يكن هناك شخص يلومه عداه هو، كما كان مقتنعًا، حين جاء إلى المنزل باكرًا من المدرسة في أحد الأيام في ذلك الأسبوع الأول ركن في المدخل الخاص إلى جانب سيارة كان يتدلى من مرآتها الخاصة بالرؤية الخلفية مكعّبا نرد. وذُهلَ حين شاهد أولاده في الفناء الأمامي، ثيابهم قذرة، يلعبون مع كلب كبير بما يكفي كي يعضّ أيديهم. كان ابنه، كيث مصابًا بالهقّة ويبكي. وبدأت ابنته سارة تبكي حين رأته يخرج من السيارة. كانا يجلسان على الأعشاب، والكلب يلعق أيديهما ووجهيهما. نبح الكلب عليه ثم تراجع قليلًا حين تقدم كارلايل نحو أولاده. التقط كيث ثم سارة. حمل كل طفل تحت ذراع وسار نحو باب بيته الأمامي. في داخل المنزل كان الفونوغراف مُدارًا بصوت مرتفع بحيث أن النوافذ الأمامية كانت تهتزّ.

في غرفة الجلوس، قفز ثلاثة فتيان مراهقين على أقدامهم من حيث يجلسون حول منضدة. علب البيرة على الطاولة والسجائر المشتعلة في المنفضة. رود ستيوارت يصرخ من جهاز التسجيل. وعلى الأريكة ديبي، الفتاة السمينة، تجلس مع مراهق آخر. حدقت بكارلايل غير مصدقة ودون أن تتفوه بكلمة حين دخل غرفة الجلوس. بلوزة الفتاة السمينة مفكوكة الأزرار. وساقاها مشدودتان تحتها، وتدخن سيجارة. غرفة

الجلوس مليئة بالدخان والموسيقا. نهضت الفتاة السمينة وصديقها عن الأريكة بسرعة.

قالت ديبي: "انتظر دقيقة يا سيد كارلايل. أستطيع أن أشرح الأمر".

قال كارلايل: "لا تشرحي. اخرجي من هنا. اخرجوا جميعًا. قبل أن أرميكم". شدّ قبضته على الفتيان.

"أنت مدين لي بأربعة أيام،" قالت الفتاة السمينة، وهي تحاول أن تزرّر البلوزة. كانت لا تزال تحمل السيجارة بين إصبعيها. تساقط الرماد من السيجارة وهي تحاول أن تزرر البلوزة. "انسَ اليوم. أنت غير مدين لي بالنسبة لليوم. إن الأمر ليس كما يبدو يا سيد كارلايل. لقد جاؤوا لكي يصغوا لهذا الشريط".

"أفهم يا ديبي،" قال. أنزل الطفلين على السجادة. ولكنهما بقيا قريبين من ساقيه وراقبا الأشخاص في غرفة الجلوس. نظرتْ إليهما ديبي وهزت رأسها ببطء كما لو أنها لم ترهما قط. قال كارلايل: "اللعنة! اخرجي! الآن. اذهبوا. جميعًا".

ذهب وفتح الباب الأمامي. وتصرف الفتيان وكأنهم غير مستعجلين. التقطوا بيرتهم وبدأوا السير ببطء نحو الباب. شريط ريد ستيوارت لا يزال يدور. قال أحدهم: "هذا شريطي".

"خذه،" قال كارلايل. سار خطوة نحو الولد ثم توقّف.

قال الفتى: "لا تلمسني، حسنًا، فقط لا تلمسني". ذهب إلى الفونوغراف، أمسك ذراعه، أرجعه إلى الخلف، وأخذ شريطه بينما القرص ما زال يدور. كانت يدا كارلايل ترتجفان. "إذا لم تذهب تلك السيارة من المدخل في دقيقة، دقيقة واحدة، سأتصل بالشرطة".

شعر بالمرض والدوار من غضبه. ورأى في الحقيقة بقعًا تتراقص أمام عينيه.

قال الولد: "هيه، استمع، نحن خارجون، حسنًا؟ نحن خارجون".
خرجوا في صف من المنزل. في الخارج، تعثرت الفتاة السمينة قليلًا. تمايلت وهي تتحرك نحو السيارة. شاهدها كارلايل تتوقف وتضع يديها على وجهها. توقفت هكذا في المدخل دقيقة. ثم دفعها أحد الفتيان من الخلف وذكر اسمها. أنزلت يديها ودخلت إلى المقعد الخلفي للسيارة.
"سيلبسكما والدكما ثيابًا جديدة،" قال كارلايل، محاولًا إبقاء صوته ثابتًا. "سأحمّمكما، وألبسكما ثيابًا نظيفة. ثم سنخرج لتناول بعض البيتزا. كيف تبدو البيتزا لكما؟"
"أين ديبي؟" سألته سارة.
قال كارلايل: "لقد رحلت."

في ذلك المساء، بعد أن وضع الأطفال في الفراش كي يناموا، اتصل بكارول، المرأة التي من المدرسة التي بدأ يلتقي بها منذ الشهر الماضي. روى لها ما حدث مع جليسة أطفاله.
قال: "كان طفلاي في الخارج في الفناء مع الكلب. الكلب كبير كذئب. وكانت جليسة الأطفال في المنزل مع مجموعة من أصدقائها المجرمين يصغون إلى رود ستيوارت رافعين الصوت إلى أقصى حد، وكانوا يسكرون بينما طفلاي في الخارج يلعبان مع كلب غريب". رفع أصابعه إلى صدغيه وأبقاهما هناك بينما كان يتحدث.
قالت كارول: "يا إلهي. يا حبيبي المسكين، أنا آسفة". بدا صوتها غير قابل للتمييز. تصوّرها تترك السماعة تنزلق إلى ذقنها، كما هي عادتها حين تتحدث على الهاتف. رآها تفعل ذلك من قبل. وجد هذه العادة مزعجة جدًا على نحو غامض. هل يريدها أن تأتي إلى منزله؟ سألته. ستفعل ذلك.

فكرت أنه ربما من الأفضل أن تفعل ذلك. ستتصل بجليسة أطفالها. ثم تقود سيارتها إلى منزله. قالت إنها تريد أن تفعل ذلك ويجب ألا يخاف من الطلب حين يحتاج إلى التعاطف. كانت كارول إحدى السكرتيرات في مكتب المدير في الثانوية حيث يدرّس كارلايل الفن. وهي مطلقة ولديها طفل، طفل عصبي عمره عشر سنوات سمّاه والده دودج، على اسم سيارته.

قال كارلايل: "كلا، ما من مشكلة. ولكن شكرًا. شكرًا يا كارول. الطفلان نائمان، ولكنّي أشعر بأنه من المسلي قليلًا الحصول على الرفقة الليلة".

لم تعرض ثانية. "حبيبي، أنا آسفة حيال ما حدث. ولكنّي أفهم رغبتك في أن تكون وحيدًا الليلة. أحترم هذا. سأراك غدًا في المدرسة".

استطاع أن يسمعها تنتظره أن يقول شيئًا ما آخر. قال: "جليسا أطفال في أسبوع واحد. هذا يجعلني أفقد وعيي".

قالت: "حبيبي لا تدع هذا يحبطك. سيحدث شيء ما. سأساعدك في العثور على شخص ما في نهاية هذا الأسبوع. سيكون الأمر على ما يرام، سترى".

قال: "شكرًا لكونك مستعدة حين أحتاج إلى مساعدتك. أنت واحدة بين مليون، كما تعرفين".

قالت: "تصبح على خير يا كارلايل".

بعد أن أغلق السماعة، تمنى لو أنه استطاع التفكير في شيء ما آخر كي يقوله بدلًا مما قاله لتوّه. لم يتحدث قط بتلك الطريقة في حياته. لم تكن هناك علاقة حب بينهما، لن يسمّي الأمر هكذا، لقد مال إليها. وهي تعرف أن الوقت صعب بالنسبة إليه، ولم تقم بطلبات.

بعد أن غادرت إيلين إلى كاليفورنيا، أمضى كارلايل كل دقيقة يقظة في الشهر الأول مع ولديه. افترض أن صدمة رحيلها سببت هذا، ولكنه

لم يكن يريد أن يغيب الطفلان عن بصره. وأكيد أنه لم يكن مهتمًا برؤية امرأة أخرى، وفكّر لبعض الوقت أنه لن يفعل هذا أبدًا. شعر كما لو أنه في حالة ندب. أمضى أيامه ولياليه في رفقة ولديه. كان يطبخ لهما، غير أنه لم يكن يمتلك شهية، ويغسل ثيابهما ويكويها، ويأخذهما بالسيارة إلى الريف، حيث يقطفان الأزهار ويأكلان اللفائف. يأخذهما إلى السوبرماركت ويتركهما ينتقيان ما يريدانه. وفي كل بضعة أيام يذهبون إلى الحديقة، أو إلى المكتبة، أو إلى حديقة الحيوانات. يأخذون خبزًا بائتًا إلى حديقة الحيوانات كي يُطعموا البط. وفي الليل، قبل أن يضعهما في الفراش، يقرأ لهما كارلايل إيسوب، هانز كريستيان أندرسن والأخوان غريم.

كان يسأله أحدهما وسط حكاية خرافية: "متى سترجع أمي؟"

يجيب: "في الحال. في أحد هذه الأيام. والآن استمع إلى هذا". ثم يقرأ الحكاية إلى خاتمتها، يقبلهما، ويطفئ الأضواء.

أثناء نومهما يتجول في غرف بيته بكأس في يده، قائلًا لنفسه، نعم عاجلًا أم آجلاً، ستعود إيلين. وفي النَفَس التالي، يقول: "لا أريد أن أرى وجهك أبدًا. لن أسامحك أبدًا على هذا أيتها العاهرة المجنونة". ثم، بعد دقيقة: "عودي، يا حبيبتي، من فضلك. أحبك وأحتاج إليك. يحتاج إليك الأطفال، أيضًا". وفي بعض الليالي في ذلك الصيف ينام أمام التلفاز ويستيقظ وهو مفتوح والشاشة تبدو كأنها مغطاة بالثلج. كانت هذه الفترة التي لم يفكر فيها بأنه سيرى أيّ امرأة لوقت طويل، هذا إن حدث هذا. وفي الليل، وهو جالس أمام التلفاز بكتاب غير مفتوح أو مجلة إلى جانبه على الأريكة، غالبًا ما فكّر في إيلين. وحين يفكر فيها، يمكن أن يتذكر ضحكها العذب، أو يدها تحك عنقه إذا شكا من وجع فيه.

وفي تلك الأوقات فكّر أنه يستطيع أن يبكي. فكّر: تسمع عن شيء كهذا يحدث لأشخاص آخرين.

تمامًا قبل الحادثة مع ديبي، حين تلاشت الصدمة والحزن اتصل بخدمة توظيف كي يخبرهم عن مأزقه ومتطلباته. دوّن أحد ما المعلومات وقال إنهم سيعودون إليه. لم يكن هناك كثيرون يريدون القيام بالعمل المنزلي والعناية بالأطفال، كما قالوا، ولكنهم سيعثرون على شخص ما. وقبل بضعة أيام من اضطراره للذهاب إلى المدرسة من أجل الاجتماعات والتسجيل، اتصل مرة أخرى وقيل له إن شخصًا ما سيكون في منزله في الصباح التالي.

كان ذلك الشخص امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها بذراعين مشعرين وبوط رياضة. صافحته وأصغت إليه يتحدث دون أن تطرح سؤالًا واحدًا عن الأطفال أو عن أسمائهم. حين أخذها إلى خلفية المنزل حيث كان الطفلان يلعبان، حدقت إليهما ببساطة لدقيقة دون أن تقول أي شيء. حين ابتسمت في النهاية، لاحظ كارلايل للمرة الأولى أن أحد أسنانها مفقود. تركت سارة أقلامها ونهضت كي تقف إلى جانبه. أمسكت يد كارلايل وحدقت إلى المرأة. حدق إليها كيث أيضًا. ثم عاد إلى تلوينه. شكر كارلايل المرأة من أجل وقتها وقال إنه سيتصل بها.

في بعد ظهر ذلك اليوم أخذ رقمًا من بطاقة مثبتة في لوح الإعلانات في السوبرماركت. كان هناك شخص يعرض خدمات جليس أطفال ويذكر أن التفاصيل الكاملة تقدم عند الطلب. اتصل كارلايل بالرقم وحصل على ديبي، الفتاة السمينة.

في ذلك الصيف أرسلت إيلين بعض البطاقات والرسائل وصورًا لها

للأطفال، وبعض الرسوم بالحبر التي رسمتها منذ أن رحلت. أرسلت إلى كارلايل أيضًا رسائل طويلة صاخبة طلبت فيها أن يفهمها، وأضافت أنها سعيدة، كما لو أن السعادة، كما فكّر كارلايل، هي كل ما في الحياة. قالت له إن كان يحبّها حقًّا، كما قال، وكما اعتقدت أنها أحبته هي، أيضًا، فيجب ألا ينسى ذلك، فإنّه ينبغي أن يتفهّم ويتقبل الأمور. كتبت: "إن ذلك الرباط الذي يتم على نحو حقيقي لا يمكن أن يُفكّ أبدًا". لم يعرف كارلايل إن كانت تتحدث عن علاقتهما، أو طريقتها في الحياة في كاليفورنيا. كره كلمة: مرتبط. ما علاقتها بهما هما الاثنان؟ هل تعتقد أنهما شركة؟ ظنّ أن إيلين ربما فقدت عقلها كي تتحدث هكذا. قرأ ذلك الجزء مرة أخرى ثم رمى الرسالة في القمامة.

لكن بعد بضع ساعات استعادها من علبة القمامة ووضعها مع البطاقات والرسائل الأخرى في علبة على الرف في خزانته. وفي أحد الظروف كانت هناك صورة لها في قبعة كبيرة وعريضة، وترتدي ثياب السباحة. هناك أيضًا لوحة مرسومة بقلم رصاص على ورقة سميكة لامرأة على ضفة نهر في رداء شفّاف، يداها تغطيان عينيها، وكتفاها هابطان. افترض كارلايل، إنها إيلين وهي تظهر تحطم قلبها من الموقف. في الكلية تخصصت في الفن، ورغم أنها وافقت على الزواج منه، قالت إنها تنوي أن تفعل شيئًا ما يتعلّق بموهبتها. قال كارلايل إنهما لن يختلفا حول الأمر وإنها تستحق ذلك. كلاهما يستحق ذلك. وكانا عاشقين في تلك الأيام. وكان يعرف أنهما تحابّا. ولم يستطع تخيّل أنه يمكن أن يحب أي امرأة أخرى بالطريقة التي أحبها بها. وشعر أنها تحبه، أيضًا. ثم، بعد ثماني سنوات من زواجهما، انسحبت إيلين. كانت، كما قالت في الرسالة، "ذاهبة من أجل الأمر".

بعد التحدث مع كارول، نظر إلى الطفلين النائمين. ثم دخل إلى المطبخ وصبّ لنفسه كأسًا. فكّر في الاتصال بإيلين كي يتحدث معها عن أزمة العناية بالأطفال، ولكنه قرر عدم القيام بذلك. لديه رقم هاتفها وعنوانها هناك، بالطبع. ولكنه اتصل مرة فحسب وحتى الآن لم يكتب رسالة. وسبب هذا ناجم عن شعوره بالحيرة من الموقف وعن الغضب والذل. مرة، باكرًا في الصيف، وبعد بضعة كؤوس، تجاوز شعوره بالذلّ واتصل. رد رتشارد هوبز على الهاتف. قال رتشارد: "هي، كارلايل،" كما لو أنه ما زال صديق كارلايل. ثم كما لو أنه يتذكر شيئًا ما قال: "انتظر لحظة فحسب، حسنًا؟"

ردّت إيلين وقالت: "كيف حالك يا كارلايل؟ كيف الطفلان؟ أخبرني عنك". قال لها إن الطفلين بخير. ولكن قبل أن يستطيع القيام بأي شيء آخر، قاطعتْه كي تقول: "أعرف أنهما بخير. ماذا عنك؟" ثم تابعت كي تخبره أنها اتخذت القرار الصحيح للمرة الأولى منذ وقت طويل. ثم أرادت أن تتحدث بعد ذلك عن رأسه والكارما الخاصة به. نظرتْ في الكارما الخاصة به ورأت أن وضعه سيتحسّن في أي وقت الآن. أصغى كارلايل، بالكاد قادرًا على تصديق أذنيه. ثم قال: "عليّ أن أذهب الآن، يا إيلين". ثم أغلق السماعة. رنّ الهاتف دقيقة أو ما يعادل ذلك فيما بعد، ولكن كارلايل تركه يرنّ. حين توقف عن الرنين، نزع الهاتف وتركه هكذا إلى أن حان وقت نومه.

أراد أن يتصل بها الآن ولكنه كان خائفًا من ذلك. ما زال مشتاقًا إليها ويريد أن يفضي لها بأسراره. تاق إلى سماع صوتها العذب والثابت وغير المجنون كما كان لشهور الآن، ولكن إذا اتصل فإن رتشارد هوبز يمكن أن يردّ. كارلايل يعرف أنه لا يريد أن يسمع صوت ذلك الرجل مرة أخرى.

كان رتشارد زميلًا لمدة ثلاث سنوات، وافترض كارلايل أنه صديق. كان على الأقل شخصًا تناول معه كارلايل الغداء في غرفة طعام الأساتذة، شخصًا تحدث عن تينيسي ويليامز وصور أنسيل آدمز. ولكن حتى لو ردت إيلين فإنها يمكن أن تتحدث عن شيء ما مثل الكارما الخاصة به. وبينما كان يجلس هناك والكأس في يده، محاولًا أن يتذكر كيف كان شعوره وهو متزوّج وفي علاقة حميمة مع شخص آخر، رنّ الهاتف. التقط السماعة، سمع طنينًا كهربائيًا ثابتًا في الخط، فعرف حتى قبل أن تتفوه باسمه أنها إيلين.

"كنت أفكّر فيك لتوي،" قال كارلايل وندم على الفور لأنه قال ذلك.

"هل رأيت! كنت أعرف أنّي في ذهنك، يا كارلايل. حسنًا، كنت أفكر فيك، أيضًا. لهذا اتصلت". سحب نَفَسًا. كانت تفقد عقلها. كان هذا واضحًا جدًا له. واصلت التحدث: "والآن أصْغ. إن السبب الرئيسي لاتصالي هو أنّي أعرف أن الأمور في خلل هناك الآن. لا تسألني كيف، ولكنّي أعرف. أنا آسفة، يا كارلايل. ولكن إليك بهذا: ما زلتَ بحاجة إلى ربة منزل جيدة، وجليسة أطفال، حسناً؟ إنها عمليًا هناك في الحارة! آه، ربما عثرت على شخص آخر من قبل، وهذا جيد، إن كانت هذه هي الحالة. إذا كانت هكذا، من المفترض أن يكون الأمر بهذه الطريقة. ولكن انظر، فقط في حالة أنك تواجه مشكلة في هذا المجال، هناك تلك المرأة التي كانت تشتغل لدى أم رتشارد. أخبرتُ رتشارد عن المشكلة المحتملة، وعمل عليها. أتريد أن تعرف ماذا فعل؟ هل تستمع إلي؟ اتصل بأمه، التي كانت تشغّل تلك المرأة التي اعتنت لها بالمنزل. إن اسم المرأة هو السيدة ويبستر. كانت تعتني بمنزل أم رتشارد قبل أن تنتقل عمته وابنتها إلى هناك. تمكّن رتشارد من تأمين الرقم من أمه. تحدث مع السيدة ويبستر اليوم. رتشارد فعل

هذا. ستتصل بك السيدة ويبستر الليلة. أو ربما غدًا في الصباح. الليلة أو غدًا. على أي حال، ستقدم خدماتها، إذا كنت بحاجة إليها. يمكن أن تحتاجها، لا تستطيع أن تعرف أبداً، حتى إن كان موقفك جيدًا الآن، والذي آمل أن يكون هكذا. ولكن ربما في وقت آخر يمكن أن تحتاج إليها. تعرف ما أقوله؟ إذا لم يكن في هذه الدقيقة، فربما في وقت آخر. حسناً؟ كيف الطفلان؟ ماذا يفعلان؟"

"إنهما بخير، يا إيلين،" قال. ربما يجب أن يخبرها أنهما يبكيان كل يوم قبل النوم. وتساءل إن كان يجب أن يخبرها بالحقيقة: أنهما لم يسألا عنها حتى مرة واحدة في الأسبوعين الأخيرين. قرر ألا يقول أي شيء.

"اتصلت من قبل، ولكن الخطّ كان مشغولًا. قلت لرتشارد ربما كنت تتحدث مع صديقتك،" قالت إيلين وضحكت ثم أضافت: "فكّر في أفكار إيجابية. تبدو مكتئبًا".

"يجب أن أذهب يا إيلين". أنزل السماعة عن أذنه. ولكنها كانت لا تزال تتحدث.

"أخبر كيث وسارة أنّي أحبهما. أخبرهما إنّي سأرسل المزيد من الصور. قل لهما هذا. لا أريدهما أن ينسيا أن أمهما فنانة. ربما ليست فنانة عظيمة بعد، ليس هذا هامًا. ولكن، تعرف، فنانة. من المهم ألا ينسيا ذلك."

قال كارلايل: "سأخبرهما."

"رتشارد يسلّم عليك."

لم يقل كارلايل أي شيء. قال الكلمة لنفسه: مرحبًا. ماذا من المحتمل أن يعنيه الرجل بهذا؟ ثم قال: "شكرًا على الاتصال. وشكرًا للتحدث مع تلك المرأة."

"السيدة ويبستر."

"نعم. من الأفضل أن أغلق السماعة الآن. لا أريدك أن تتكلفي المزيد من النقود."

ضحكت إيلين. "إنها نقود فقط. إن النقود غير مهمة إلا كأداة ضرورية للتبادل. هناك أشياء أكثر أهمية من المال. ولكنك تعرف هذا."

أمسك السماعة أمامه. نظر إلى الأداة التي كان صوتها يخرج منها.

قالت: "إن أمورك ستتحسن يا كارلايل. أعرف هذا. يمكن أن تظن أنّي مجنونة، ولكن تذكّر فحسب."

أتذكر ماذا؟ تساءل كارلايل مذعورًا، ظانًا أنه لم يفهم ما تعنيه. قرّب السماعة. قال: "شكرًا لاتصالك يا إيلين."

قالت إيلين: "يجب أن نبقى على اتصال. يجب أن نبقي جميع خطوط الاتصال مفتوحة. أعتقد أن الأسوأ قد انتهى لكلينا. لقد عانيتُ أنا أيضًا. ولكن سنحصل على ما هو مفترض أن نحصل عليه من هذه الحياة، كلانا، وسنصبح أقوى من أجل ذلك، على المدى الطويل."

"تصبحين على خير،" قال. أعاد السماعة. ثم نظر إلى الهاتف. انتظر. لم يرنّ ثانية. ولكن بعد ساعة رنّ فردّ.

كان صوت امرأة: "سيد كارلايل. لا تعرفني. اسمي السيدة جيم ويبستر. من المفترض أن أتصل بك."

"السيدة ويبستر، نعم،" قال. تذكر الاسم من إيلين. "سيدة ويبستر، هل تستطيعين المجيء إلى منزلي في الصباح؟ باكرًا. في السابعة؟"

قالت المرأة العجوز: "أستطيع أن أفعل هذا بسهولة. السابعة. أعطني عنوانك."

قال كارلايل: "أود أن أكون قادرًا على الاعتماد عليك."

قالت: "تستطيع ذلك."

قال كارلايل: "لا أستطيع أن أخبرك كم هذا مهم."
قالت العجوز: "لا تقلق."

في صباح اليوم التالي، حين صاح المنبّه، أراد أن يبقي عينيه مغمضتين ويواصل الحلم الذي كان يشاهده. شيء ما عن منزل مزرعة، وهناك شلال في المكان أيضًا، شخص ما، لم يعرف من هو، يسير على الطريق يحمل شيئًا ما، ربما سلة خاصة برحلة. لم يزعجه الحلم. بدا كأن في الحلم إحساسًا بالرفاه.
أخيراً، تدحرج ودفع شيئًا ما كي يوقف الطنين. استلقى في الفراش فترة أطول. ثم نهض، ارتدى شبشبه، وذهب إلى المطبخ كي يعد القهوة.
حلق ذقنه وارتدى ثيابه من أجل اليوم. ثم جلس إلى طاولة المطبخ مع القهوة والسيجارة. الطفلان لا يزالان في السرير. ولكنه خطط أن يضع عُلَب الحبوب على الطاولة والآنية والملاعق بعد خمس دقائق، ثم يدخل كي يوقظهما لتناول الفطور. لم يصدق أن المرأة العجوز التي اتصلت به ليلة أمس ستأتي هذا الصباح، كما قالت إنها ستفعل. قرّر أن ينتظر إلى السابعة وخمس دقائق، ثم يتصل، يأخذ اليوم إجازة، ويبذل جهودًا كي يبحث عن شخص يمكن الاعتماد عليه من خلال السجلّ. رفع فنجان القهوة إلى شفتيه.
عندها سمع صوت صرير في الشارع. رفع فنجانه ونهض عن الطاولة كي ينظر من النافذة. توقفت سيارة بيك آب على الرصيف أمام منزله. اهتزّ الجزء المغطى من الشاحنة حين توقف المحرك. ذهب كارلايل إلى الباب الأمامي وفتحه ولوح بيده. لوحت امرأة عجوز بيدها ثم خرجت من السيارة. رأى كارلايل السائق يميل إلى الأمام ويختفي خلف المقود. زأرتْ

الشاحنة، اهتزّتْ مرة أخرى، ثم هدأت.
"سيد كارلايل؟" قالت المرأة العجوز، وهي تدخل ببطء في ممره حاملة محفظة كبيرة.
قال: "السيدة ويبستر. ادخلي. هل هذا زوجك؟ اطلبي منه الدخول. لقد أعددتُ القهوة لتوي".
قالت: "لا بأس. لديه ترمسه".
هزّ كارلايل كتفيه. أمسك الباب لها. خطت إلى الداخل وتصافحا. ابتسمت السيدة ويبستر. هزّ كارلايل رأسه. ذهبا إلى المطبخ. سألته: "هل كنت تريدني اليوم، إذاً؟"
قال: "دعيني أوقظ الطفلين. أريدهما أن يقابلاك قبل أن أذهب إلى المدرسة".
قالت: "سيكون هذا جيداً". نظرت حولها في مطبخه ووضعت حقيبتها على لوح المغسلة.
قال: "لماذا لا أحضر أنا الطفلين؟ سيستغرق هذا دقيقة أو اثنتين".
بعد فترة قصيرة أحضر الطفلين وعرّفها عليهما. كانا لا يزالان في ثياب النوم. كانت سارة تحك عينيها. وكان كيث مستيقظًا. قال كارلايل: "هذا كيث. وتلك التي هناك ابنتي سارة". أمسك يد سارة واستدار إلى السيدة ويبستر. "يحتاجان إلى شخص ما، كما ترين. نحتاج إلى شخص ما نستطيع الاعتماد عليه. أعتقد أن هذه هي مشكلتنا".
سارت السيدة ويبستر إلى الطفلين. زررت أزرار بيجامة كيث. وأزاحت الشعر عن وجه سارة. تركاها تفعل ذلك. "لا تقلقا أيها الطفلان الآن،" قالت لهما. "سيد كارلايل، سيكون كل شيء على ما يرام. سنكون بخير. امنحنا يومًا أو يومين كي يعرف بعضنا بعضًا. هذا كلّ شيء. ولكن إذا

كنتُ سأمكث، لماذا لا تشير للسيد ويبستر كي يرحل؟ لوّح له بيدك فحسب،" قالت، ثم ركّزتْ انتباهها على الطفلين.

خطا كارلايل إلى النافذة الناتئة وأزاح الستائر. كان هناك رجل عجوز يراقب المنزل من السيارة. كان على وشك أن يرفع ترمس القهوة إلى شفتيه. لوّح له كارلايل، وبيده الحرة الأخرى ردّ الرجل عليه ملوّحًا. راقبه كارلايل وهو ينزل زجاج البيك آب ويدلق ما بقي في كوبه. ثم انحنى خلف المقود ثانية. تخيّله كارلايل وهو يحكّ بعض الأسلاك ببعضها، وبعد لحظة دار محرك الشاحنة وساق بعيدًا عن الرصيف.

رجع كارلايل من النافذة. قال: "سيدة ويبستر. أنا سعيد بمجيئك".

قالت: "وأنا أيضًا يا سيد كارلايل. واصل الآن عملك قبل أن تتأخر. لا تقلق حول أي شيء. سنكون بخير. أليس كذلك، يا أطفال؟"

هزّ الطفلان رأسيهما. أمسك كيث ثوبها بيد واحدة. ووضع إبهام اليد الأخرى في فمه.

قال كارلايل: "شكرًا. أشعر حقًا أنّي أفضل مئة في المئة". هزّ رأسه وابتسم. شعر بجيشان عاطفي في صدره فيما كان يقبّل طفليه مودّعًا. أخبر السيدة ويبستر عن موعد عودته إلى المنزل، ارتدى معطفه، قال وداعًا مرة أخرى، وخرج من المنزل. للمرة الأولى في أشهر، كما بدا، شعر أن العبء انزاح عنه قليلًا. وهو يقود السيارة إلى المدرسة، استمع إلى بعض الموسيقا على الراديو.

أثناء صف تاريخ الفن في الفترة الأولى ركّز أكثر على اللوحات البيزنطية. وشرح بصبرٍ الفروق الدقيقة في التفاصيل والمواضيع. أشار إلى القوة العاطفية للأعمال وملاءمتها. ولكنه استغرق طويلًا وهو يحاول أن يضع الفنانين المجهولَيْ الاسم في بيئتهما الاجتماعية بحيث أن بعض طلابه

بدأوا يحكّون أحذيتهم على الأرضية، أو يصدرون أصواتًا من حناجرهم. لقد غطّوا ثلث خطة الدرس فحسب في ذلك اليوم. كان لا يزال يتحدث حين قرع الجرس.

في الدرس التالي، درس التلوين المائي، شعر بالهدوء والتبصّر على نحو غير عاديّ. "كمثل هذا، كمثل هذا،" قال، وهو يقود أيديهم. "برشاقة. كنَفَس هواء على الورقة. لمسةٌ فحسب. هكذا. أترون؟" سيقول هذا وشعر أنه على حافة الاكتشاف هو نفسه. "إن الإيحاء هو كل ما في الأمر،" قال، ممسكًا بخفة بأصابع سو كالفن وهو يقود فرشاتها. "يجب أن تعملي على أخطائك إلى أن تبدو مقصودة. أتفهمين؟"

وهو يتحرك في صفّ الذين ينتظرون الغداء في غرفة طعام المدرسين شاهد كارول أمامه بعدة أمكنة. دفعت ثمن طعامها. انتظرتْ. انتظر فاقدًا للصبر فيما كانت فاتورته تخرج من الجهاز. كانت كارول في منتصف الطريق عبر الغرفة حين لحق بها فجاوَرَها. جعل يده تنزلق تحت كوعها وقادها إلى طاولة فارغة قرب النافذة.

"يا إلهي، كارلايل،" قالت بعد أن جلسا. التقطت كأسها من الشاي المثلج. كان وجهها أحمر. "أرأيت النظرة التي خصّتنا بها السيدة ستور؟ ما مشكلتك؟ سيعرف الجميع؟" شربت من شايها المثلج ووضعت كأسها على الطاولة.

قال كارلايل: "إلى الجحيم بالسيدة ستور. دعيني أخبرك شيئًا. حبيبتي، أشعر أنّي أفضل بسنوات ضوئية مما كنته في مثل هذا الوقت البارحة. يا يسوع!"

قالت كارول: "ما الذي حدث؟ أخبرني، يا كارلايل". نقلت كوب فاكهتها إلى طرف صينيتها وخلطت نثارة الجبن مع المعكرونة. ولكنها لم تأكل أي

شيء. انتظرته أن يواصل. "أخبرني ما الأمر".
أخبرها عن السيدة ويبستر. أخبرها حتى عن السيد ويبستر. كيف اضطر الرجل أن يجعل أسلاك الشاحنة تتلامس كي يشغّلها. أكل كارلايل التابيوكا الخاصة به أثناء حديثه. ثم تناول خبز الثوم. شرب شاي كارول المثلج قبل أن يدرك أنه يفعل ذلك.
"أنت مجنون، يا كارلايل،" قالت، مشيرة إلى المعكرونة في صحنه التي لم يلمسها.
هزّ رأسه. "يا إلهي، يا كارول. يا إلهي، أشعر بالتحسّن، كما تعلمين؟ أشعر بالتحسن أكثر مما كنت عليه طيلة الصيف". خفّض صوته. "تعالي مساء، هل تفعلين؟"
مدّ يده تحت الطاولة ووضعها على ركبتها. احمرّت مرة أخرى. رفعت عينيها ونظرت حولها في غرفة الغداء. ولكن لم يكن أحد ينتبه إليهما. هزّت رأسها بسرعة. ثم مدّت يدها تحت الطاولة ولمست يده.

عصر ذلك اليوم وصل إلى المنزل فوجده أنيقًا ومرتبًا ورأى الطفلين في ملابس نظيفة. في المطبخ، كان كيث وسارة يقفان على كرسيين ويساعدان السيدة ويبستر في صناعة كعك الزنجبيل. وكان شعر سارة بعيدًا عن وجهها ومُرجعًا إلى الخلف بمشبك.
"بابا!" صاح طفلاه، سعيدين، حين شاهداه.
قال: "كيث، سارة. سيدة ويبستر، أنا..." ولكنها لم تتركه ينهي.
"لقد أمضينا يومًا رائعاً، يا سيد كارلايل،" قالت السيدة ويبستر بسرعة. مسحت أصابعها بالمئزر الذي ترتديه. كان مئزرًا قديمًا عليه طواحين هواء زرقاء وهو لإيلين. "طفلان جميلان. إنهما كنز. كنز فحسب".

"لا أعرف ماذا أقول". وقف كارلايل قرب المغسلة وراقب سارة تعجن بعض العجين. استطاع أن يشمّ التوابل. نزع معطفه وجلس إلى كرسي الطاولة. فكّ ربطة عنقه.

قالت السيدة ويبستر: "كان اليوم يوم تعارف. غدًا لدينا بعض الخطط. اعتقدت أننا يجب أن نسير إلى الحديقة. يجب أن نستفيد من هذا الطقس الجيد".

قال كارلايل: "هذا رائع. جيد. جيد لك، يا سيدة ويبستر".

"سأنهي وضع هذه الكعكات في الفرن، وفي ذلك الوقت سيكون السيد ويبستر قد وصل. قلت الساعة الرابعة؟ طلبتُ منه أن يأتي في الرابعة".

هزّ كارلايل رأسه وقلبه يجيش بالعاطفة.

"تلقّيتَ اتصالًا اليوم،" قالت وهي تتجه إلى المغسلة بإناء الخلط. "اتصلت السيدة كارلايل".

"السيدة كارلايل،" قال. انتظر ما يمكن أن تقوله السيدة ويبستر.

"نعم. عرّفت عن نفسي، ولكنها لم تبد مندهشة من أنها وجدتني هنا. قالت بعض الكلمات لكلّ من الطفلين".

نظر كارلايل إلى كيث وسارة، ولكنهما لم يكونا منتبهين. كانا يصفّان الكعك على ورقة أخرى.

تابعت السيدة ويبستر: "تركت رسالة. دعني أرى، لقد دوّنتها، ولكنّي أعتقد إنّي أستطيع تذكّرها. قالت: قولي له، أي لك، إن ما يحدث ينكشف. أظن أن هذه هي. قالت إنك ستفهم".

حدّق كارلايل إليها. سمع شاحنة السيد ويبستر في الخارج.

قالت وهي تنزع المئزر: "هذا هو السيد ويبستر".

هزّ كارلايل رأسه.

سألته: "في السابعة صباحًا؟"
قال: "هذا رائع. وشكرًا لك مرة أخرى".

في ذلك المساء حمّم الطفلين، ألبسهما البيجاما، وقرأ لهما. استمع إلى صلواتهما، غطّاهما ثم أطفأ الضوء. كانت التاسعة مساء تقريبًا. صبّ لنفسه كأسًا وشاهد شيئًا ما على التلفاز إلى أن سمع سيارة كارول تركن في المدخل.
في حوالي العاشرة، وبينما هما في السرير معاً، رنّ الهاتف. راح يشتم، لكنه لم ينهض كي يردّ عليه. واصل الرنين.
قالت كارول وهي تجلس: "قد يكون مهمًا. قد تكون جليسة طفلي. معها هذا الرقم".
قال كارلايل: "إنها زوجتي. أعرف أنها هي. إنها تفقد عقلها. إنها تُصاب بالجنون. لن أردّ على الاتصال".
قالت كارول: "سأذهب سريعًا على أي حال. كانت ليلة رائعة يا حبيبي". لمستْ وجهه.

كان الوقت منتصف فصل الخريف الدراسي. وقد أمضت السيدة ويبستر معه تقريبًا ستة أسابيع. في أثناء هذا الوقت، مرّت حياة كارلايل في عدد من التحوّلات: صار متصالحًا مع حقيقة أن إيلين رحلت، وفهم أنه لا نية لها في العودة. توقّف عن تخيّل أن هذا يمكن أن يتغيّر. وفي وقت متأخر من الليل فحسب، في الليالي التي لا يكون فيها مع كارول، يرغب بأن ينتهي الحب الذي ما زال يحمله لإيلين وشعر بأنه معذّب حيال لماذا حدث كلّ هذا. ولكن في الجزء الأكبر كان هو والطفلان سعيدين؛ وقد ازدهروا تحت

رعاية السيدة ويبستر، التي بدأت مؤخرًا تعدّ العشاء وتبقيه في الفرن، ساخنًا، حتى وصوله من المدرسة. يدخل من الباب ويشمّ رائحة شيء ما جيد تأتي من المطبخ ويرى كيث وسارة يساعدان في ترتيب طاولة العشاء. سأل السيدة ويبستر مرة أخرى إن كان يهمّها أن تعمل وقتًا إضافيًا أيام السبت. وافقت، طالما أن هذا لا ينطوي على أن تأتي إلى منزله قبل الظهر. قالت إن لديها في صباحات السبت أمورًا يجب أن تقوم بها للسيد ويبستر ولنفسها. وفي تلك الأيام، كانت كارول تترك دودج مع طفليْ كارلايل، وكلهم برعاية السيدة ويبستر، وتذهب هي وكارلايل بالسيارة إلى مطعم في الريف لتناول العشاء. واعتقد أن حياته بدأت من جديد. ورغم أنه لم يسمع من إيلين منذ ذلك الاتصال منذ ستة أسابيع، فإنه وجد نفسه قادرًا على التفكير فيها دون أن يكون غاضبًا أو يشعر بأنه على وشك البكاء.

في المدرسة، كانوا على وشك إنهاء الفترة القروسطية وعلى دخول الفترة القوطيّة. ما زال عصر النهضة بعيدًا قليلاً، على الأقل ليس حتى بعد عطلة عيد الميلاد. في أثناء هذا الوقت مرض كارلايل. بين ليلة وضحاها بدأ صدره يتشنّج وقلبه يؤلمه. وتصلّبتْ مفاصل جسمه. شعر بالدوار حين تحرك. صار الصداع أكثر سوءًا. واستيقظ في يوم أحد وهو يتألم من الصداع وفكر بالاتصال بالسيدة ويبستر كي يطلب منها أن تأتي وتأخذ الطفلين إلى مكان ما. كانا رائعين معه، أحضرا له كؤوس العصير والصودا. ولكنه لم يستطع أن يعتني بهما. في صباح اليوم التالي لمرضه، تمكّن فقط من الذهاب إلى الهاتف كي يطلب إجازة. قدّم اسمه واسم مدرسته وقسمه وطبيعة مرضه للشخص الذي ردّ على الهاتف. ثم زكّى ميل فيشر كبديل له. كان فيشر شخصًا يرسم لوحات زيتية تجريدية ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع، ست ساعات في اليوم، ولكنه لم يبع أو

يعرض أعماله. كان صديقًا لكارلايل. "أحضروا ميل فيشر،" قال كارلايل للمرأة التي على الخط. "فيشر،" همس.

نجح في العودة إلى سريره، تمدد تحت الأغطية، ونام. وأثناء نومه، سمع صوت محرك البيك آب في الخارج واحتراق الوقود قبل الأوان حين أطفئ المحرك. فيما بعد سمع صوت السيدة ويبستر خارج غرفة النوم.

"سيد كارلايل؟"

نعم، يا سيدة ويبستر". بدا صوته غريبًا له. أبقى عينيه مغمضتين. "أنا مريض اليوم. اتصلت بالمدرسة. سأبقى في السرير اليوم".

قالت: "أفهم. لا تقلق. سأعتني بالأمور".

أغمض عينيه. اعتقد وهو لا يزال في حالة بين النوم واليقظة أنه سمع بابه الأمامي يُفتح ويُغلق. أصغى. في المطبخ، سمع رجلًا يقول شيئًا بصوت منخفض، وصوت كرسي يُسحب من الطاولة. في الحال سمع أصوات الطفلين. فيما بعد لم يكن متأكدًا كم مرّ من الوقت، سمع السيدة ويبستر خارج الباب.

"هل ينبغي أن أتصل بالطبيب يا سيد كارلايل؟"

"كلا، أنا بخير. أعتقد أنها أنفلونزا سيئة فحسب. ولكنّي أشعر بالحرارة. أعتقد أنّي أستخدم كثيرًا من الأغطية. والمنزل دافئ جدًا. ربما يجب أن تطفئي الموقد". ثم شعر بأنه يندفع إلى النوم.

بعد وهلة سمع الطفلين يتحدثان مع السيدة ويبستر في غرفة الجلوس. هل كانا داخلين أم خارجين؟ تساءل كارلايل. هل يمكن أن يكون هذا اليوم التالي؟

عاد إلى النوم. ثم شعر بأن باب غرفته يُفتح وظهرت السيدة ويبستر قرب فراشه. وضعت يدًا على جبينه.

قالت: "إنك تشتعل. أنت مصاب بالحمّى".
قال كارلايل: "أنا بخير. أحتاج إلى النوم فترة أطول فقط. وربما يمكن أن تخفّضي الموقد. من فضلك، سأكون ممتنًّا إن كنت تستطيعين إحضار بعض الأسبرين لي. أشعر بصداع رهيب".
غادرت السيدة وبستر الغرفة. ولكن بابه بقي مفتوحًا. استطاع كارلايل أن يسمع التلفاز في الخارج هناك. "خفّضه، يا جيم،" سمعها تقول، وخُفض الصوت في الحال. نام كارلايل مرة أخرى.
ولكنه لم يستطع أن ينام أكثر من دقيقة، لأن السيدة وبستر عادت فجأة إلى الغرفة مع صينية. جلست على طرف سريره. رفع نفسه وحاول الجلوس. وضعت مخدة خلف ظهره.
"خذ هذه،" قالت وقدمت له بعض الحبوب. "اشرب هذا". قدمت له كأسًا من العصير. "أحضرتُ لك أيضًا بعض قشدة القمح. أريدك أن تأكلها. سيكون هذا جيدًا لك".
تناول الأسبرين وشرب العصير. هزّ رأسه. ولكنه أغمض مرة أخرى. وعاد إلى النوم.
قالت: "سيد كارلايل".
فتح عينيه. قال: "أنا مستيقظ. أنا آسف". جلس قليلًا. "حرارتي مرتفعة، هذا كل شيء. كم الساعة الآن؟ هل صارت الثامنة والنصف؟"
قالت: "تجاوزت التاسعة والنصف".
قال: "التاسعة والنصف".
"سأطعمك الآن هذه الحبوب. وستفتح فمك وتأكلها. ست لقمات، هذا كل شيء. هنا، هذه هي اللقمة الأولى. افتح فمك،" قالت. "ستشعر بالتحسن بعد أن تأكل هذا. ثم سأتركك تنام. كُل هذا ثم تستطيع أن

تنام إن أردت".
أكل الحبوب التي أطعمته بالملعقة وطلب مزيدًا من العصير. شرب العصير، ثم تمدد في السرير مرة أخرى. وفيما كان ينام شعر بها تغطيه بشرشف آخر.
كان الوقت التالي الذي استيقظ فيه هو العصر. استطاع أن يعرف ذلك من الضوء الشاحب الذي جاء عبر النافذة. مد يده وسحب الستارة. استطاع أن يرى أن الجو معتم في الخارج؛ كانت الشمس الشتائية خلف الغيوم. خرج من السرير ببطء، عثر على شبشبه، وارتدى رداءه. ذهب إلى الحمام ونظر إلى نفسه في المرآة. ثم غسل وجهه وتناول مزيدًا من الأسبرين. استخدم المنشفة ثم ذهب إلى غرفة الجلوس.
على طاولة غرفة الطعام كانت السيدة ويبستر قد فرشت الجريدة، وكانت هي والأطفال يضغطون أشكالًا من الطين بعضها ببعض. صنعوا بعض الأشياء التي لها أعناق طويلة وأعين منتفخة، وأشكالًا تشبه الزرافات، أو الديناصورات. نظرت إليه السيدة ويبستر حين مرّ قرب الطاولة.
"كيف تشعر؟" سألته السيدة ويبستر حين جلس على الأريكة. استطاع أن يرى منطقة غرفة الجلوس حيث جلست السيدة ويبستر والطفلان إلى الطاولة.
"أفضل، شكرًا لك. أفضل بقليل،" قال. "ما زلت أعاني من الصداع، وأشعر بالحرارة قليلًا." رفع قفا يده إلى جبينه. "ولكنّي أفضل. نعم، أنا أفضل. شكرًا لمساعدتك هذا الصباح".
"هل أستطيع أن أحضر لك أي شيء الآن؟" قالت السيدة ويبستر. "مزيدًا من العصير أو بعض الشاي؟ لا أظن أن القهوة ستؤذيك، ولكنّي أعتقد أن الشاي أفضل. بعض العصير سيكون أفضل من كلّ شيء آخر".

قال: "كلا. شكرًا. سأجلس هنا فترة قصيرة. جيد أن أكون خارج السرير. سأشعر ببعض الضعف وهذا كلّ شيء. سيدة ويبستر؟"

نظرت إليه وانتظرت.

"هل سمعت السيد ويبستر هذا الصباح؟ هذا رائع بالتأكيد. أنا آسف فقط أنّي لم أحظ بالفرصة كي أقابله وأسلّم عليه".

قالت: "كان هو. أراد أن يقابلك أيضًا. طلبتُ منه الدخول. اختار فحسب الصباح الخطأ، أي كونك مريضًا. أردتُ أن أخبرك شيئًا عن خططنا، خططي أنا والسيد ويبستر، ولكن هذا الصباح لم يكن وقتًا جيدًا لذلك".

"أخبريني ماذا؟" قال متيقظًا والخوف ينتف قلبه.

هزّتْ رأسها. قالت: "حسنًا، لا أستطيع الانتظار".

قالت سارة: "تقولين له ماذا؟ تقولين له ماذا؟"

"ماذا، ماذا؟" التقط كيث الكلمة. أوقف الطفلان ما كانا يفعلانه.

قالت السيدة ويبستر وهي تنهض على قدميها: "امنحاني دقيقة فقط أنتما الاثنان".

صاح كيث: "سيدة ويبستر، سيدة ويبستر".

قالت السيدة ويبستر: "انظر أيها الرجل الصغير. أريد أن أتحدث مع والدك. والدك مريض اليوم. كن هادئًا فحسب. واصل اللعب بالطين الخاص بك. إذا لم تراقب الأمر فإن أختك ستسبقك في صناعة هذه المخلوقات".

وتمامًا حين بدأت بالتحرك إلى غرفة الجلوس بدأ الهاتف يرنّ. مدّ كارلايل يده إلى طرف الطاولة والتقط السماعة.

وكما من قبل، سمع هسيسًا ضعيفًا في السلك وعرف أنها إيلين. قال: "نعم. ما الأمر؟"

قالت زوجته: "كارلايل. أعرف، لا تسألني كيف، أن الأمور لا تجري بشكل جيد الآن. أنت مريض، أليس كذلك؟ إن رتشارد مريض أيضًا. شيء ما يجري. لا يستطيع إبقاء أي شيء في معدته. لقد غاب أسبوعًا عن التدريب من أجل المسرحية التي ينجزها. كان عليّ أن أذهب بنفسي كي أساعد في وضع الفواصل الغنائية بين المشاهد. ولكنّي لم أتصل كي أخبرك هذا. أخبرني كيف تجري الأمور لديك".

قال كارلايل: "لا شيء كي أخبرك به. أنا مريض، هذا كلّ شيء. لمسة من أنفلونزا. ولكنّي أتحسّن".

"هل ما تزال تكتب في دفتر يومياتك؟" سألتهُ. فاجأته. منذ عدة أعوام أخبرها أن لديه دفتر ملاحظات. ليس دفتر يوميات، قال، بل دفتر ملاحظات، كما لو أن هذا شرح كلّ شيء. ولكنه لم يُرِه لها أبداً، ولم يكتب فيه لأكثر من عام. لقد نسيه.

قالت: "لأنك يجب أن تكتب شيئًا ما في دفتر الملاحظات في هذه الفترة. كيف تشعر وبماذا تفكّر. أنت تعرف، ماذا يعتمل في ذهنك في هذه الفترة من مرضك. تذكّرْ، إن المرض رسالة عن صحتك ورفاهك. يقول لك أشياء. حافظ على سجلّ. تعرف ما أعنيه؟ حين تكون في صحة جيدة، تستطيع أن تستعيد الأمور وتفهم فحوى الرسالة. اقرأها فيما بعد، بعد الحقيقة. كوليت فعلت هذا. حين أصيبت بالحمى في تلك المرة الوحيدة".

قال كارلايل: "من؟ ماذا قلت؟"

أجابت إيلين: "كوليت. الكاتبة الفرنسية. تعرف عمن أتحدث. لدينا أحد كتبها في المنزل، رواية جيجي، أو كتاب آخر. لم أقرأ هذه الرواية، ولكنّي بدأت بقراءة أعمالها منذ أن جئت إلى هنا. لفت رتشارد نظري إليها. ألّفتْ كتابًا صغيرًا عن الحالة، عن تفكيرها وشعورها طوال الوقت

كلّه الذي أصيبت فيه بتلك الحمّى. وصلت حرارتها أحيانًا إلى 102 فهرنهايت. وأحيانًا كانت أقل. ربما ارتفعت إلى أكثر من 102. ولكن 102 كانت أعلى درجة قاست حرارتها بها وكتبت، أيضًا حين أصيبت بالحمّى. على أي حال، كتبت عنها. هذا ما أقوله. حاولْ الكتابة عن كيف تشعر بالأمر. يمكن أن يأتي شيء ما من هذا،" قالت إيلين، وبشكل غير قابل للشرح، كما بدا لكارلايل، ضحكت. "على الأقل فيما بعد تكون لديك قصة تفصيلية عن مرضك كي تعود إليها، يكون لديك ما تتحدث عنه. أنت الآن تعاني من شعور بعدم الراحة وعليك أن تترجم هذا إلى شيء قابل للاستخدام".

ضغط رؤوس أصابعه على صدغه وأغمض عينيه. لا تزال على الخط، تنتظره كي يقول شيئًا ما. ما الذي يستطيع قوله؟ كان واضحًا له أنها مجنونة.

قال: "يا يسوع، يا إيلين. لا أعرف ماذا أقول عن هذا. حقًا لا أعرف. عليّ أن أذهب الآن. شكرًا لاتصالك".

قالت: "حسنًا. يجب أن نقدر على التواصل. قبّل الأطفال من أجلي. أخبرهم إنّي أحبّهم. ورتشارد يرسل تحياته إليك. رغم أنه مسطح على ظهره".

"وداعاً،" قال كارلايل وأغلق السماعة. ثم رفع يديه إلى وجهه. تذكّر، لسبب ما، الفتاة السمينة تقوم بالإيماءة نفسها في ذلك الوقت حين تحركت نحو السيارة. خفض يديه ونظر إلى السيدة ويبستر، التي كانت تراقبه.

قالت: "أرجو ألا تكون أخبارًا سيئة". قرّبت العجوز كرسيًّا من الأريكة التي كان يجلس عليها.

هزّ كارلايل رأسه.

قالت السيدة ويبستر: "حسنًا. هذا جيد. والآن يا سيد كارلايل، يمكن ألا يكون هذا أفضل وقت في العالم للتحدث". نظرت إلى غرفة الطعام. حول الطاولة كان الطفلان يحنيان رأسيهما فوق الأشكال الصلصالية. "ولكن بما أنه يجب أن يتم التحدث عنه في وقت ما حالاً، وبما أنه متعلق بك وبالأطفال، وأنت مستيقظ الآن، لديّ شيء أقوله لك. أنا وجيم، علاقتنا تتحسّن. إن الأمر هو أننا نحتاج إلى شيء ما أكثر مما لدينا في الوقت الحاضر. هل تعرف ماذا أقول؟ هذا صعب عليّ،" قالت وهزّت رأسها. أحنى كارلايل رأسه ببطء. عرف أنها ستخبره بأنها مضطرة للرحيل. مسح وجهه على كمّه. "إن ابن جيم من زواج سابق، بوب رجل في الأربعين من عمره، اتصل البارحة كي يدعونا للذهاب إلى أوريغون ومساعدته في مزرعة الأبقار الخاصة به. سيفعل جيم أي شيء يفعلونه مع حيوانات المنك وأنا سأطبخ، وأشتري الحاجيات من البقالة، وأنظف المنزل، وأفعل كل ما هناك حاجة لفعله. إنها فرصة لكلينا. وسيقدمون لنا الطعام والسكن ثم بعض النقود. سنتوقف أنا وجيم عن القلق على ما يمكن أن يحدث لنا. تفهم ما أقوله. الآن، جيم لا يملك أي شيء. صار عمره اثنين وستين عامًا الأسبوع الماضي. لم يكن يملك أي شيء لبعض الوقت. وجاء هذا الصباح كي يخبرك بالأمر بنفسه، لأنه كان عليّ أن أبلغك، كما ترى. فكّرنا، أنا فكّرت، أن الأمر سيساعد إن أخبرتك وكان جيم هنا". انتظرت كارلايل كي يقول شيئًا ما. وحين لم يفعل، تابعت: "سأنهي الأسبوع، وأستطيع أن أمكث لمدة يومين الأسبوع القادم إذا كانت هناك حاجة لذلك. ولكن يجب أن أغادر بعد ذلك، وعليك أن تتمنى لنا حظًا جيدًا. أعني، هل تستطيع أن تتخيّل، طول الطريق إلى

أوريغون في سيارتنا القديمة تلك؟ ولكنّي سأشتاق إلى هذين الطفلين. إنهما غاليان جداً".

ظلّ هادئًا ولم يجبها لبعض الوقت فنهضت عن الكرسي وذهبت كي تجلس على الوسادة إلى جانبه. لمست كمّ ردائه. "سيد كارلايل؟"

قال: "أفهم. أريد أن أخبرك أن وجودك هنا أحدث فرقًا كبيرًا بالنسبة لي وللأطفال". آلمه صداعه كثيرًا بحيث توجّب عليه أن يغمض عينيه نصف إغماضة. قال: "هذا الصداع. إن هذا الصداع يقتلني".

مدّت السيدة ويبستر يدها ولمست جبينه بقفاها. أخبرته: "ما زلت مصابًا بالحمّى. سأحضر مزيدًا من الأسبرين. سيساعد هذا في خفضها. ما أزال أعمل على القضية هنا،" قالت. "ما أزال الطبيبة".

قال كارلايل: "إن زوجتي تعتقد أنّي يجب أن أكتب ما أشعر به. تظن أنها قد تكون فكرة جيدة أن يصف المرء شعوره بالحمى. أستطيع أن أعود إلى الأمر فيما بعد وأفهم فحوى الرسالة". ضحك. فاضت عيناه ببعض الدموع. مسحها كلها بقفا يده.

قالت السيدة ويبستر: "أعتقد إنّي يجب أن أحضر لك الأسبرين والعصير ثم أذهب إلى الأطفال. يبدو لي أن اهتمامهم بالطين بدأ يفتر".

كان كارلايل خائفًا من أن تنتقل إلى الغرفة الأخرى وتتركه وحيدًا. أراد أن يتحدث إليها. تنحنح.

"سيدة ويبستر، هناك شيء ما أريدك أن تعرفيه. لوقت طويل أنا وزوجتي أحبّ بعضنا بعضًا أكثر من أي شيء وأي شخص في العالم. ويشمل هذا الطفلين. وفكرنا، أو عرفنا أننا سنشيخ معًا. وعرفنا أننا سنفعل جميع الأمور في العالم التي أردنا أن نفعلها، وأننا سنفعلها معاً". هزّ رأسه. بدا هذا كأنه الشيء الأكثر توليدًا للحزن في العالم له الآن، أنه مهما كان ما

يفعلانه من الآن فصاعداً، فإن كلًّا منهما سيفعله من دون الآخر.
"لا بأس بهذا،" قالت السيدة ويبستر. ربتت على يده. جلس منتصبًا إلى الأمام وبدأ يتحدث مرة أخرى. بعد مدة، جاء الطفلان إلى غرفة الجلوس. لفتت السيدة ويبستر انتباههما ووضعت إصبعًا على شفتيها. نظر إليهما كارلايل وواصل الحديث. وفكر أنهما يجب أن يستمعا. فهذا يهمّهما أيضًا. بدا كأن الطفلين يفهمان أنهما يجب أن يبقيا هادئين، وحتى أن يتظاهرا ببعض الاهتمام، وهكذا جلسا إلى جانب ساقي السيدة ويبستر. ثم تمددا على معدتيهما على السجادة وبدآ يقهقهان. ولكن السيدة ويبستر نظرت بقسوة ناحيتهما، وهذا أوقف القهقهة.
واصل كارلايل الحديث. في البداية، كان الصداع لا يزال يؤلمه، وشعر بالإحراج من كونه في البيجاما على الأريكة وتلك المرأة العجوز إلى جانبه، تنتظره صابرة كي ينتقل إلى الشيء التالي. ولكن عندئذ تلاشى صداعه. وفي الحال توقف عن الشعور بالإحراج ونسي كيف من المفترض أن يشعر. بدأ قصته في مكان ما في المنتصف، بعد أو وُلد الطفلان. ولكنه دعم نفسه وبدأ من البداية، منذ أن كانت إيلين في الثامنة عشرة وكان في التاسعة عشرة، وكانا في علاقة حب متأججة.
توقف كي يمسح جبينه. رطّب شفتيه.
قالت السيدة ويبستر: "تابع. أعرف ما تقوله. واصلْ الحديث فحسب يا سيد كارلايل. أحيانًا من الجيد التحدث عن الأمر. أحيانًا يجب التحدث عنه. بالإضافة إلى أنّي أريد الاستماع. وستشعر بالتحسن بعد ذلك. فقد حدث شيء كهذا لي مرة، شيء ما كالذي تصفه. الحب. هذا ما هو".
نام الطفلان على السجادة. كان كيث يضع إبهامه في فمه. كان كارلايل لا يزال يتحدث حين وصل السيد ويبستر إلى الباب، قرعه، ثم دخل كي

يأخذ السيدة ويبستر.
قالت السيدة ويبستر: "اجلس. لسنا مستعجلين. تابع ما كنت تقوله يا سيد كارلايل".
هزّ كارلايل رأسه للرجل العجوز، الذي ردّ عليه هازًّا رأسه، ثم أحضر لنفسه أحد كراسي غرفة الطعام وحمله إلى غرفة الجلوس. قرّب الكرسي من الأريكة وجلس عليها متنهّدًا. ثم خلع قبّعته وبإنهاك رفع ساقًا فوق أخرى. حين بدأ كارلايل بالتحدث مرة أخرى، وضع العجوز كلا القدمين على الأرض. استيقظ الطفلان. جلسا على السجادة وتدحرجا إلى الأمام والخلف. ولكن عندئذ كان كارلايل قد قال كل ما عرف أن يقوله، وهكذا توقف عن الحديث.
"جيد. جيد،" قالت السيدة ويبستر حين رأت أنه انتهى. "لقد أخرجتَ مادة جيدة، والسيدة كارلايل فعلت هذا. ولا تنس هذا. ستكونان على ما يرام حين ينتهي هذا". نهضت ونزعت المئزر الذي ترتديه. نهض السيد ويبستر أيضًا، واعتمر قبعته من جديد.
على الباب، صافح كارلايل السيدة والسيد ويبستر.
قال كارلايل: "حظًا سعيدًا."
قالت السيدة ويبستر إنها ستراه في الصباح، في الصباح الباكر جدًا كما على الدوام.
وكما لو أنّ شيئًا مهمًا قد حُلّ، قال كارلايل: "هذا صحيح!"
سار الزوجان العجوزان بحرص في الممرّ وصعدا إلى الشاحنة. انحنى جيم ويبستر فوق عجلة القيادة. ونظرت السيدة ويبستر إلى كارلايل ولوّحت بيدها. آنذاك، وهو واقف على النافذة، شعر بأن شيئًا ما وصل إلى خاتمته. كان يتعلق بإيلين والحياة قبل هذا. هل سبق ولوّح لها؟ لا بد

أنه فعل هذا، بالطبع، عرف أنه فعل، لكنه لم يستطع أن يتذكر الآن. ولكنه فهم أن الأمر انتهى، وشعر بأنه قادر على تركها تذهب. كان متأكدًا من أن حياتهما معًا حصلت بالطريقة التي قال إنها حصلت بها. ولكن هذا مرّ. وذلك المرور، رغم أنه بدا مستحيلًا وقاتلًا، سيصبح جزءًا منه الآن، أيضًا، كمثل أي شيء تركه خلفه.

وفيما كانت البيك آب تندفع إلى الأمام، رفع ذراعه مرة أخرى. شاهد الزوجين العجوزين يحييانه بانحناءة وجيزة ويقودان بعيدًا. ثم أنزل ذراعه واستدار إلى طفليه.

اللجام

توقّفتْ السيارة القديمة التي عليها لوحة ولاية مينيسوتا أمام النافذة. كان هناك رجل وامرأة في المقاعد الأمامية، وصبيان في الخلف. كان شهر تموز/ يوليو والحرارة تجاوزت المئة. بدا أولئك الأشخاص منهكين. ثمة ملابس معلقة في الداخل؛ بالإضافة إلى حقائب وعلب، وما شابه ذلك، مكوّمة في الخلفية. ومما استنتجتهُ أنا وهارلي، كان ذلك كلّ ما تُرك لهم بعد أن استولى المصرف في مينيسوتا على منزلهم وسيارتهم البيك آب وجرّارهم، وتجهيزات المزرعة وبضع أبقار.

بقوا داخل السيارة دقيقة، كما لو أنهم يستعيدون رباطة جأشهم. المكيّف في شقّتنا يصدر أعلى صوت له. هارلي في الفناء الخلفي يحصد الأعشاب. يحدث نقاش في المقعد الأمامي، ثم تخرج هي وهو ويسيران نحو الباب. ألمس شعري كي أتأكد أنه في مكانه وأنتظر إلى أن يقرعا جرس الباب للمرة الثانية. ثم أذهب كي أدخلهما. قلت: "هل تبحثان عن شقة؟ ادخلا، الجو مكيّف هنا". أدخلتهما إلى غرفة الجلوس. ففي غرفة الجلوس أقوم بأعمالي. فهنا أقبض الأجور، وأكتب إيصالات الاستلام وأتحدث مع الأطراف المهتمة. أقصّ الشعر أيضًا. وأسعى نفسي حلاقة. هذا ما تقوله بطاقاتي. فأنا لا أحب كلمة مجمِّلة. إنها كلمة من الزمن

القديم. لدي كرسي حلاقة في زاوية من غرفة الجلوس، ومجفف شعر أستطيع تعليقه على ظهرها. وثمة مغسلة ركّبها هارلي منذ بضع سنوات، وإلى جانب الكرسي، لدي طاولة عليها بعض المجلات. المجلات قديمة. وقد نُزِع غلاف بعضها. ولكن الناس ينظرون إلى أي شيء وهم تحت مجفف الشعر.

ذكر الرجل اسمه.

"اسمي هوليتس".

قال لي إن المرأة زوجته. ولكنها لم تنظر إليّ، ولم تجلس هي وهوليتس أيضًا. قال إنهما يريدان شقة مفروشة.

"كم عددكم؟" ردّدْتُ فقط ما أردّده دومًا. فأنا أعرف العدد. لقد رأيت الطفلين في المقعد الخلفي. اثنان واثنان، أربعة.

"أنا وهي وطفلان. الطفلان في الثالثة والرابعة عشرة، وسيتشاركان غرفة واحدة، كالمعتاد".

ذراعاها متصالبان وتمسك كمّي بلوزتها. تتفحّص الكرسي والمغسلة كأنها لم تر مثلهما من قبل. ربما لم تر.

قلت: "أقص الشعر".

تهزّ رأسها. ثم تلقي نظرة سريعة على "النبتة المُصَليّة" الخاصة بي. كان عليها خمس أوراق فقط.

"تحتاج إلى السقاية،" قلت. مشيت ولمستُ إحدى الأوراق. "كل شيء هنا يحتاج إلى الماء. لا يوجد ما يكفي من الماء في الجو. تمطر ثلاث مرات في السنة إذا كنا محظوظين. ستعتادون على هذا. علينا أن نعتاد عليه. لكنّ كل شيء هنا مكيّف".

"كم الأجرة؟" أراد هوليتس أن يعرف.

أخبرته فاستدار إليها كي يعرف رأيها. ولكن ربما كان ينظر أيضًا إلى الجدار. لم تبادله النظر. "أخمّن أنك ستُرينا المكان،" قالت. وهكذا ذهبتُ كي أحضر مفتاح الشقة 17، ونخرج.

أسمع هارلي قبل أن أراه.

ثم يدخل في مدى البصر بين الأبنية. يتحرك خلف الحاصدة الكهربائية في بنطاله القصير والقميص، معتمرًا قبعة القش التي اشتراها في نوغاليس. يمضي وقته في قطع الأعشاب والقيام بعمل الصيانة الخفيف. نعمل لشركة هي فولتون تيراس. وهي تملك المكان. إذا حدث أي خلل كبير، كعطل في المكيّف أو في قسم الضخ، فإن لدينا قائمة من أرقام الهواتف. ألوّح بيدي. عليّ أن أفعل هذا. يرفع هارلي يدًا عن مقبض الحاصدة ويشير. ثم يسحب القبعة إلى الأسفل فوق جبينه ويركز انتباهه على ما يفعله. ينهي حصاده، يقوم بدورته، ويتابع إلى الخلف نحو الشارع.

"هذا هارلي". كان عليّ أن أصيح. ذهبنا إلى طرف البناء وصعدنا بعض الدرجات. "ما العمل الذي تقوم به يا سيد هوليتس؟" سألته.

قالت: "إنه مزارع".

"لم أعد هكذا".

"ما من مجال لزراعة أشياء كثيرة هنا". قلت ذلك دون تفكير.

"كانت لدينا مزرعة في مينيسوتا. زرعنا القمح. وربينا بعض الماشية. ويعرف هوليتس عن الخيول. يعرف كل شيء عنها".

"هذا جيد، يا بيتي".

كوّنت فكرة عن الأمر. إن هوليتس غير موظّف. هذا ليس من شأني، وأشعر بالأسف إن كانت هذه هي القضية. وهي فعلًا كذلك كما تبيّن

لاحقًا، لكن حين توقفنا أمام الشقة، كان عليَّ أن أقول شيئًا ما. "إذا قررت الاستئجار، تدفع عن الشهر الأول، والشهر الأخير، ومئة وخمسين كإيداع". نظرتُ إلى الأسفل نحو المسبح وأنا أقول هذا. بعض الأشخاص يجلسون على كراسي الاسترخاء، وهناك شخص ما في الماء.

يمسح هوليتس وجهه بقفا يده. حاصدة هارلي تصدر صوتها بعيدًا. وفي مسافة أبعد تسرع السيارات في كالي فردي. كان الطفلان قد خرجا من السيارة. وقف أحدهما في حالة الانتباه العسكرية ضامًا ساقيه وواضعًا يديه على جانبيه. ولكن حين راقبته رأيته يرفع ذراعيه إلى الأعلى والأسفل ويقفز، كما لو أنه ينوي أن يقلع ويطير. جلس الآخر في جهة السائق من السيارة، قام بتمرين ثني الركبة.

أستدير إلى هوليتس.

يقول: "لنلق نظرة".

أدير المفتاح وأفتح الباب. كانت شقة صغيرة مفروشة مؤلفة من غرفتي نوم. رآها الجميع عشرات المرات. وقف هوليتس في الحمام طويلًا بما يكفي كي يضغط زر المياه ويتدفق المرحاض. راقب إلى أن امتلأ الحوض. فيما بعد، قال: "يمكن أن تكون هذه غرفتنا". كان يتحدث عن غرفة النوم التي تطل على المسبح. وفي المطبخ، أمسكت المرأة طرف المغسلة وحدقت من النافذة.

قلت: "هذه هي بركة السباحة".

هزت رأسها. "مكثنا في بعض الموتيلات التي فيها برك سباحة. ولكن في إحدى البرك كانوا يضعون الكثير من الكلورين في الماء".

انتظرتها كي تواصل. ولكن كان هذا كل ما قالته. لم أستطع التفكير في أي شيء آخر، أيضًا.

"أخمّن أننا لن نهدر مزيدًا من الوقت. أعتقد أننا سنستأجر الشقة".
نظر إليها هوليتس وهو يقول هذا. هذه المرة التقت عيناها بعينيه. أخرج نَفَسًا عبر أسنانه. ثم فعلت شيئًا ما. بدأت بعضّ أصابعها. إحدى يديها لا تزال تمسك حافة المغسلة، ولكن يدها الأخرى بين أسنانها. عضت وواصلت العض كما لو أنها تنادي كلبها، أو تحاول شدّ انتباه شخص ما. ثم توقفت ومررت أظافرها على الطاولة.
لا أعرف ما الذي عناه هذا. هوليتس لا يعرف أيضًا. حرك قدميه.
قلت: "سنذهب إلى المكتب ونجعل الأمور رسمية. أنا مسرورة".
شعرت بالسرور. لدينا كثير من الشقق الفارغة في هذا الوقت من العام. وبدا كأنه يمكن الاعتماد على هؤلاء الأشخاص. فهم يعانون من حظهم السيء وهذا كل شيء. ما من خزي يمكن أن يُربط بهذا.
دفع هوليتس نقدًا الشهر الأول والأخير ومبلغ المئة وخمسين كإيداع. أحصى أوراقًا من فئة الخمسين دولارًا وأنا أراقبه. يدعوها هارلي النقود التي عليها صورة الرئيس غرانت، على الرغم من أنه لم ير كثيرًا منها. كتبت الإيصال وأعطيته مفتاحين.
"أموركم تمام".
نظر إلى المفتاحين. سلّمها واحدًا. "ها نحن في أريزونا. لم تعتقدي أنك سترين أريزونا أبدًا، أليس كذلك؟"
هزّت رأسها. كانت تلمس إحدى أوراق النبتة المُصَلية.
قلت: "تحتاج إلى الماء".
تركت الورقة واستدارت إلى النافذة. وقفت إلى جانبها. لا يزال هارلي يحصد الأعشاب. ولكنه في الواجهة الآن. كان هناك حديث عن الزراعة، وهكذا فكرت بهارلي لبضع دقائق يتحرك خلف محراث بدلًا من حاصدته

الكهربائية، بلاك وديكر.

راقبتهم وهم يفرغون صناديقهم وحقائبهم وثيابهم. حمل هوليتس شيئًا ما تدلت منه أشرطة. استغرق لحظة، ولكنّي عرفتُ أنه لجام. لا أعرف ما الذي سأفعله بالتالي. لم أشعر بالرغبة بالقيام بأي شيء. وهكذا أخذت النقود من علبة النقد. أعدتها إليها فحسب، ولكنّي أخرجتها ثانية. جاءت فئة العملة هذه من مينيسوتا. من يعرف أين ستكون في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم؟ يمكن أن تكون في لاس فيغاس. كل ما أعرفه عن لاس فيغاس هو ما أراه على شاشة التلفزيون، وهو قليل جدًا بحيث يمكن أن يوضع في كشتبان. أستطيع تخيّل إحدى الأوراق المالية تعثر على طريقها إلى ساحل ويكيكي، أو إلى مكان آخر، إلى ميامي أو نيويورك سيتي، أو نيو أورليانز. أفكر في إحدى هذه الأوراق النقدية التي عليها صورة غرانت تنتقل من يد إلى أخرى أثناء عرض ماردي غراس. يمكن أن تذهب إلى أيّ مكان، ويمكن أن يحدث أي شيء بسببها. أكتب اسمي بالحبر على جبين غرانت العريض والقديم: مارج. أفعل ذلك على جميع الأوراق، فوق حاجبيه الكثّين. سيتوقف الناس أثناء الدفع ويتساءلون: من هي مارج؟ هذا ما سيسألون أنفسهم عنه: من هي مارج؟ دخل هارلي وغسل يديه في مغسلتي. يعرف أنّني لا أحب أن يفعل ذلك. ولكنه يفعله بأية حال.

قال: "هؤلاء الأشخاص من مينيسوتا. السويديون. إنهم بعيدون جدًا عن وطنهم". جفف يديه بالورق. يريدني أن أخبره ما أعرفه. ولكنّي لا أعرف أي شيء. لا يبدون كالسويديين ولا يتحدثون مثلهم.

"إنهم ليسوا سويديين،" قلت له. ولكنه تصرف كأنه لا يسمعني.

"إذًا ما عمله؟"

"إنه مزارع".

"ماذا تعرفين عن هذا؟"

نزع هارلي قبعته ووضعها على الكرسي. مرر يده في شعره ثم نظر إلى القبعة وارتداها مرة أخرى. يمكن أن تكون أيضًا ملصقة عليه. "لا يوجد الكثير لزراعته هنا. هل قلتِ له هذا؟" أخرج علبة صودا من البراد وذهب كي يجلس على كرسيّه. التقط جهاز التحكّم، دفع شيئًا ما، واشتغل التلفاز. ضغط على المزيد من الأزرار إلى أن عثر على ما يبحث عنه. إنه عرض عن مستشفى. "ماذا يفعل السويدي بالإضافة إلى الزراعة؟"

لا أعرف، ولهذا لا أقول أي شيء. لكن هارلي كان مشغولًا ببرنامجه. ربما نسي أنه طرح السؤال. انطلق صوت إنذار. سمعت صرير العجلات. على الشاشة، توقفت سيارة إسعاف أمام مدخل غرفة طوارئ، أضواءها الحمراء تنطفئ وتشتعل. قفز رجل خارجًا منها وركض كي يفتح الباب الخلفي.

عصر اليوم التالي استعار الولدان خرطوم المياه وغسلا السيارة. نظفا الخارج والداخل. فيما بعد رأيتها تسوق. كانت ترتدي كعبين عاليين وفستانًا جميلًا. ربما تصطاد وظيفة، كما اعتقدت. بعد فترة قصيرة، رأيت الطفلين يلعبان حول بركة السباحة في ثياب السباحة. قفز أحدهما عن اللوح وسبح كل المسافة إلى الجهة الأخرى تحت الماء. خرج نافخًا الماء وهازًّا رأسه. الفتى الآخر، ذلك الذي قام بتمرين ثني الركبة البارحة، يستلقي على بطنه على منشفة في الجانب البعيد من المسبح. ولكن هذا الفتى واصل السباحة جيئة وذهابًا من طرف المسبح إلى

الطرف الآخر، لامسًا الحائط ودائرًا إلى الخلف برفسة خفيفة.
كان هناك شخصان آخران. يجلسان على كرسي استرخاء، كلّ واحد في طرف من المسبح. أحدهما هو إرفنغ كوب، طباخ في مطعم ديني. يدعو نفسه سبدس. واعتاد الناس على تسميته سبدس بدلًا من إرف أو كنية أخرى. سبدس في الخامسة والخمسين من عمره وأصلع. كان يبدو سابقًا مثل لحم البقر المجفّف، ولكنه في حاجة مزيدٍ من الشمس. زوجته الجديدة لندا كورب، تعمل في كي مارت. ويعمل سبدس في الليل. ولكنه رتّب هو ولندا كوب الأمور بحيث يعطلان أيام السبت والأحد. كوني نوفا على الكرسي الآخر. تجلس وتدهن ساقيها بالكريم. إنها عارية تقريبًا إلا من قطعتي القماش اللتين تغطيانها. كوني نوفا نادلة تعد الكوكتيل. انتقلت إلى هنا منذ ستة أشهر مع من يُدعى خطيبها، وهو محام مدمن على الكحول. ولكنها تخلصت منه. والآن تعيش مع طالب طويل الشعر من الكلية اسمه ريك. وصادف أن عرفت أنه مسافر الآن، يزور قومه. سبدس وكوني يلبسان نظارات سوداء. راديو كوني المحمول مُدار.
كان سبدس أرملًا حديث العهد حين انتقل، منذ سنة أو أكثر. ولكن بعد بضعة أشهر من عزوبيّته، تزوج من لندا. وهي امرأة حمراء الشعر في الثلاثين من عمرها. لا أعرف كيف التقيا. ولكن في إحدى الليالي منذ شهرين دعاني سبدس والسيدة كوب الجديدة إلى عشاء جيد رتبه سبدس. بعد العشاء، جلسنا في غرفة جلوسهما نشرب مشروبات حلوة من كؤوس كبيرة. سأل سبدس إن كنا نريد مشاهدة أفلام منزلية. قلنا بالتأكيد. وهكذا نصب سبدس شاشته ومسلاطه. صبّت لنا لندا كوب المزيد من ذلك الشراب الحلو. ما المانع؟ سألتُ نفسي. بدأ سبدس يرينا أفلامًا عن رحلة قام بها هو وزوجته الميتة إلى ألاسكا. بدأ بها تصعد إلى

الطائرة في سياتل. تحدث سبدس وهو يشغل المسلاط. كانت المرحومة في الخمسينيات من عمرها، جميلة، رغم أنها سمينة قليلًا على الأرجح. كان شعرها جميلًا.

قالت لندا كوب: "هذه زوجة سبدس الأولى. هذه السيدة كوب الأولى".

قال سبدس: "هذه إيفلين".

بقيت الزوجة الأولى على الشاشة وقتًا طويلًا. كان من المضحك رؤيتها وسماعها تتحدث عن نفسها هكذا. خصني هارلي بنظرة، وهكذا عرفت بأنه يفكر في شيء ما، أيضًا. سألتنا لندا كوب إن كنا نريد كأسًا آخر أو معكرونة. لم نطلب. كان سبدس يقول شيئًا ما عن السيدة كوب الأولى مرة أخرى. لا تزال على مدخل الطائرة، تبتسم وتحرك فمها لكن كل ما يمكنك سماعه هو الفيلم الذي يمرّ عبر المسلاط. الناس يدورون حولها كي يصعدوا إلى الطائرة. واصلت التلويح للكاميرا، التلويح لنا، هناك في غرفة جلوس سبدس. لوحت ولوّحت. "هناك إيفلين مرة أخرى،" كانت السيدة كوب الجديدة تردد كلما ظهرت السيدة كوب الأولى على الشاشة. سيعرض سبدس الأفلام طيلة الليل، ولكن قلنا إننا يجب أن نرحل. قدّم هارلي بالعذر.

لا أذكر ما قاله.

كانت كوني نوفا تستلقي على ظهرها على الكرسي، والنظارات السوداء تغطي نصف وجهها. الزيت يلمع على ساقيها وبطنها. في إحدى الليالي، ليس بعد وقت طويل من انتقالها، أقامت حفلة. حدث هذا قبل أن تطرد المحامي، وتستقر مع الشاب ذي الشعر الطويل. دعت حفلتها حفلة الانتقال إلى منزل جديد. دُعيتُ أنا وهارلي، مع مجموعة من الناس

الآخرين. ذهبنا ولكننا لم نكترث بالرفقة. عثرنا على مكان كي نجلس قرب الباب، وهناك جلسنا إلى أن غادرنا. لم يكن الوقت طويلًا جدًا أيضًا. كان صديق كوني يوزّع جائزة على الباب. وكانت الجائزة هي تقديم خدماته القانونية مجاناً، لمعالجة الطلاق، طلاق أي شخص، أي شخص يريد ذلك يستطيع أن يسحب بطاقة من الإناء الذي كان يمرره. حين مرّ الإناء أمامنا، بدأ الجميع يضحكون. تبادلت أنا وهارلي النظرات. لم أسحب. ولم يسحب هو أيضًا. ولكنّي رأيته ينظر في الوعاء إلى كومة البطاقات. ثم هزّ رأسه وسلم الوعاء إلى الشخص التالي له. سبدس والسيدة كوب الجديدة سحبا بطاقتين. كُتب على ظهر البطاقة الرابحة: "تخوّل حاملها لطلاق واحد مجاني بدون خلافات،" وتوقيع المحامي والتاريخ. كان المحامي ثملاً، ولكنّي أقول إن هذه ليست طريقة كي تدير حياتك. مدّ الجميع أيديهم في الوعاء إلا نحن، كما لو أن الأمر تسلية. صفقت المرأة التي سحبت البطاقة الرابحة. بدا الأمر كمثل أحد عروض الألعاب. "اللعنة، هذه هي المرة الأولى التي أفوز فيها بأي شيء!" قيل لي إن لها زوجًا في الجيش. لا توجد طريقة لمعرفة إن كانت لا تزال تملكه، أو إن حصلت على طلاقها، لأن كوني نوفا صادقت مجموعة مختلفة من الأشخاص بعد أن انفصلت عن المحامي.

غادرنا الحفلة تمامًا بعد السحب. أحدثت انطباعًا لدينا بحيث لم نستطع قول الكثير، سوى أن أحدنا قال: "لا أصدق أنّي رأيت ما اعتقدت أنّي رأيته".

ربما أنا قلت هذا.

بعد أسبوع سألني هارلي إن كان السويدي، يقصد هوليتس، قد عثر على

وظيفة. كنا قد تناولنا الغداء لتوّنا، وهارلي جالس على كرسيّه يحمل علبة الصودا الخاصة به. ولكنه لم يُدِر جهاز التلفاز. قلتُ إنّي لا أعرف. ولم أكن أعرف. انتظرتُ ما الذي لديه أيضًا كي يقوله. ولكنه لم يقل أي شيء آخر. هزّ رأسه. بدا كأنه يفكّر في شيء ما. ثم ضغط على زر واشتغل التلفاز.

عثرتْ على عمل. بدأتْ بالعمل كنادلة في مطعم إيطالي على بعد بضعة فراسخ من هنا. تعمل نوبة موزّعة على فترتين، تقدم الغداء وتذهب إلى المنزل، ثم تعود إلى العمل في وقت نوبة العشاء. كانت تأتي وتذهب. وكان الطفلان يسبحان طيلة النهار، بينما هوليتس يبقى في الشقة. لا أعرف ما الذي يفعله هناك. مرة حلقتُ شعرها وأخبرتني بعض الأمور. قالت إنها عملت كنادلة حين أنهت الثانوية وهناك قابلت هوليتس. قدمت له بعض الفطائر في مكان هناك في مينيسوتا.

نزلتْ في ذلك الصباح وسألتني إن كنت أستطيع أن أعمل لها معروفًا. أرادت مني أن أعالج لها شعرها بعد نوبة الغداء وأجعلها تنتهي في الوقت المناسب لنوبة العشاء. هل أستطيع فعل هذا؟ قلت لها إنّي سأفحص السجلّ. طلبتُ منها الدخول. ربما كانت درجة الحرارة مئة في الخارج.

قالت: "أعرف أنّي لم أخبرك في الوقت المناسب ولكن حين جئت من العمل ليلة أمس نظرتُ في المرآة ورأيت أن جذوره بائنة فقلتُ لنفسي إن شعري بحاجة إلى معالجة. لا أعرف إلى أين أذهب".

عثرت على وقت مناسب الجمعة، 14 آب. لا شيء على الصفحة.

قلت: "أستطيع أن أعمل عليك في الثانية والنصف أو الثالثة".

قالت: "الثالثة أفضل. يجب أن أركض الآن قبل أن أتأخر. إنّي أعمل لدى وغد حقيقي. أراك فيما بعد".

في الثانية والنصف أخبرتُ هارلي أن لدي زبونة، ولهذا يجب أن يشاهد لعبة البيسبول في غرفة النوم. عبّر عن مزاج سيء، لكنه مدّ السلك وجر جهاز التلفاز وأغلق الباب. تأكدت من أن كل ما أنا في حاجة إليه جاهز. رتبت المجلات بحيث يصبح من السهل الوصول إليها. ثم جلستُ إلى جانب مجفّف الشعر أبرد أظافري وأنظر من النافذة بين وقت وآخر. سارت قرب النافذة ثم قرعت جرس الباب.

قلت: "ادخلي. إنه مفتوح".

كانت ترتدي البزة السوداء والبيضاء من أجل وظيفتها. رأيت أن كلتينا ترتدي بزّة. "اجلسي، يا عزيزتي، وسنبدأ". نظرت إلى مبرد الأظافر. قلت: "أطلي الأظافر أيضًا".

جلست على الكرسي وأخذت نفسًا.

قلت: "أرجعي رأسك إلى الخلف. هكذا. أغمضي عينيك الآن. لماذا لا تفعلين؟ استرخي فحسب. أولًا سأغسل شعرك بالشامبو وألمس تلك الجذور هناك. ثم سأبدأ من هناك. كم لديك من الوقت؟"

"يجب أن أعود إلى هناك في الخامسة والنصف".

"سننهي أمورك".

"أستطيع أن آكل في مكان العمل. ولكنّي لا أعرف ما الذي سيفعله هوليتس والولدان من أجل عشائهم".

"سيتدبّرون أمورهم جيدًا من دونك".

شغّلت جهاز تسخين الماء ثم لاحظت أن هارلي ترك خلفه بعض التراب والأعشاب. مسحت أوساخه وبدأت.

قلت: "يستطيعون الذهاب إلى محل الهامبرغر في نهاية الشارع إذا رغبوا بذلك. لن يؤذيهم هذا".

"لن يفعلوا هذا. على أي حال، لا أريدهم أن يضطروا للذهاب إلى هناك".
لا علاقة لي بهذا، ولهذا لم أقل أي شيء آخر. صنعت رغوة صابون جيدة وبدأت عملي. بعد أن قمت بالغسيل بالشامبو واستخدمت الماء، وعالجت الشعر، بدأتُ أجفّفه. أغمضتْ عينيها. أعتقد أنها نامت. وهكذا أمسكتُ إحدى يديها وبدأت.
"بدون طلاء أظافر". فتحت عينيها ونزعت يدها مني.
"حسناً، يا عزيزتي. إن الطلاء الأول مجانيّ دومًا".
أعادت إليّ يدها والتقطت مجلةً ووضعتْها على ساقيها. قالت: "إنهما ولداه من الزواج الأول. كان مطلّقًا حين التقينا. ولكنّي أحببتهما كما لو أنهما ولداي. لكنّي لا أستطيع أن أحبهما بعد الآن حتى ولو حاولت، حتى ولو كنتُ أمهما الطبيعية".
خففت مجفّف الشعر قليلًا بحيث أصدر صوتًا منخفضًا وهادئًا. واصلتُ العمل على أظافرها. بدأت يدها بالاسترخاء.
"هجرتْ هوليتس والولدين، في يوم عيد رأس السنة منذ عشر سنوات. لم يسمعوا منها أبدًا بعد ذلك". فهمتُ أنها تريد أن تحدّثني عن الموضوع. ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة لي. إن الناس يحبون الحديث حين يجلسون على الكرسي. واصلت عملي مستخدمة المبرد. "حصل هوليتس على الطلاق. وبدأت أنا وهو بالخروج معًا. ثم تزوّجنا. كانت لدينا حياة لوقت طويل، فيها صعود وهبوط. ولكننا اعتقدنا أننا نعمل من أجل هدف ما". هزّت رأسها. "ولكنّ شيئًا ما حدث. حدث شيء ما لهوليتس، أعني أنه صار مهتمًا بالأحصنة. اشترى حصانًا خاصًا بالسباق. كان يدفع مبلغًا ما كل شهر. كان يأخذه إلى السباقات. يستيقظ قبل بزوغ الفجر دائمًا، ويقوم بالأعمال الروتينية. اعتقدتُ أن كلّ شيء على ما يرام.

ولكنّي لا أعرف أيّ شيء. إذا أردت الحقيقة، لستُ جيدة على طاولات الانتظار. أعتقد أن أولئك الطليان سيسرّحونني من العمل لأدنى هفوة كما لو أنّي قدمت لهم سببًا. أو بدون سبب. ماذا لو طُردت؟ ثم ماذا؟" أقول: "لا تقلقي يا عزيزتي. لن يطردوك".

في الحال التقطتْ مجلة أخرى. ولكنها لم تفتحها. أمسكتها فقط وواصلت الحديث. "على أي حال، هناك حصانهُ، بيتي السريع. إن الجزء المتعلق ببيتي نكتة. ولكنه يقول إنه لا يستطيع إلا أن يكون فائزًا إذا سمّاه على اسمي. فائز كبير، حسنًا. والحقيقة هي أنه لم يشارك في سباق إلا وخسر فيه. في جميع السباقات. بيتي المنحوس، هذا ما يجب أن يُدعى به. في البداية ذهبتُ إلى بضعة سباقات. لم يفز الحصان. ولكنّ هوليتس عنيد لا يستسلم. يراهن على الحصان باستمرار كي يفوز بعشرين دولاراً، كي يفوز بخمسين دولاراً، بالإضافة إلى كل ما يكلّفه الحفاظ على الحصان. أعرف أنه لا يبدو مبلغًا كبير، ولكنه يتراكم. أحيانًا يشتري بطاقة كينو. يسألني إن كنت أعرف كم سنجني من المال إذا فاز الحصان. ولكنه لم يفز، وتوقفت عن الذهاب".

واصلتُ القيام بعملي. ركّزت على أظافرها.

قلت: "بشرتك جميلة. انظري هنا إلى بشرتك. انظري إلى أنصاف الأقمار الصغيرة هذه؟ أعني أن دمك جيد".

رفعت يدها كي تقرّبها ونظرت. "ما الذي تعرفينه عن هذا؟" هزّت كتفيها. تركتني أمسك يدها ثانية. لا يزال لديها أشياء كي تقولها. "مرة، حين كنتُ في الثانوية، طلبتْ مني مستشارة أن آتي إلى مكتبها. فعلت ذلك مع جميع الفتيات، واحدة منا في كل مرة. "ما الأحلام التي لديك؟" سألتني تلك المرأة. "ماذا ترين نفسك فاعلة بعد عشر سنوات؟ عشرين سنة؟"

كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. كنت طفلة فحسب. لم أستطع أن أفكر بماذا أجيب. جلستُ هناك فحسب كمثل كتلة. كانت تلك المستشارة في مثل عمري الآن. اعتقدتُ أنها عجوز. إنها عجوز، قلتُ لنفسي. عرفت أن نصف حياتها انتهت. وشعرتُ كما لو أنّي عرفت شيئًا ما لم تعرفه. شيئًا ما لن تعرفه أبدًا. سرّ. شيئًا ما ليس من المفترض أن يعرفه أحد، أو يتحدث عنه. وهكذا بقيتُ صامتة. هززتُ رأسي فحسب. لا بدّ أنها صنّفتني كغبية. ولكنّي لم أستطع قول أي شيء. تعرفين ما أعنيه؟ اعتقدتُ أنّي أعرف أمورًا لم تكن قادرة على تخمينها. الآن، إن سألني أي شخص ذلك السؤال ثانية، عن أحلامي وكل ما يتعلق بهذا، سأخبره".

"ما الذي ستقولينه لهم يا عزيزتي؟" أمسكتُ يدها الأخرى الآن. ولكنّي لم أشتغل على أظافرها. أمسكتُ يدها فحسب، منتظرة أن أسمع.

تحركت إلى الأمام على كرسيها محاولة أن تسترجع يدها.

"ما الذي ستقولين لهم؟"

تنهدتْ واستندت إلى الخلف. تركتني أمسك يدها. "سأقول إن الأحلام هي ما تستيقظين منه. هذا ما سأقوله." مسّدت تنورتها عند الحضن. "إذا سأل أي شخص، هذا ما سأقوله. ولكنهم لن يسألوا". أطلقت نَفَسَها ثانية. "كم سيطول الأمر؟" سألت.

قلت: "لن يطول كثيرًا".

"لا تعرفين كيف يكون الأمر".

"نعم، أعرف،" قلت. نقلت الكرسي إلى جانب ساقيها. كنت سأبدأ بالحديث عن كيف كانت الأمور قبل أن ننتقل إلى هنا، وكيف أنها لا تزال هكذا. ولكن هارلي أتى في هذه اللحظة تمامًا كي يتخلص من ضجره.

لم ينظر إلينا. سمعتُ التلفاز يصدر صوته في غرفة النوم. ذهب إلى المغسلة وملأ كأس ماء. رفع رأسه إلى الخلف كي يشرب. صعدت تفاحة آدم وهبطت في حنجرته.

أبعدت السيشوار ولمست الشعر على جانبي رأسها. رفعت إحدى الخصل قليلًا فحسب.

قلت: "تبدين جديدة تمامًا يا عزيزتي".

"ألا أتمنى؟"

كان الطفلان يسبحان طيلة النهار، كل يوم، إلى أن تبدأ المدرسة. تابعت بيتي عملها. ولكن لسبب ما لم تعد لكي تقصّ شعرها. لا أعرف السبب. ربما لا تعتقد أنّي قمتُ بعمل جيّد. أحيانًا أستلقي مستيقظة، أما هارلي فينام كحجر الرحى قربي، وأحاول أن أتخيّل نفسي مكان بيتي. أتساءل ما الذي سأفعله عندئذ.

أرسل هوليتس أحد أولاده مع الأجرة في الأول من أيلول/ سبتمبر، وفي أول تشرين الأول/ أكتوبر، أيضًا. ما زال يدفع نقدًا. أخذتُ النقود من الفتى، أحصيتها كي أتأكد منها أمامه، ثم كتبتُ وصلًا. عثر هوليتس على عمل من نوع ما. هذا ما ظننتهُ، على أية حال. كان يقود السيارة كل يوم. يغادر باكرًا في الصباح ويعود متأخرًا بعد الظهر. وهي تمرّ عابرة النافذة في العاشرة والنصف وتأتي في الثالثة. إذا رأتني، تلوّح لي بيدها قليلًا. ولكنها لا تبتسم. ثم أرى بيتي في الخامسة، عائدة إلى المطعم. يقود هوليتس بعد وقت قليل. واستمر هذا إلى منتصف تشرين الأول/ أكتوبر.

في غضون ذلك، تعرّف هوليتس وزوجته على كوني نوفا وصديقها ذي الشعر الطويل، ريك. والتقيا أيضًا مع سبدس والسيدة كوب الجديدة.

أحيانًا، في عصر يوم أحد، أرى الجميع يجلسون حول البركة، كؤوس الشراب في أيديهم، يصغون إلى مذياع كوني المحمول. مرّة قال هارلي إنه رأى الجميع خلف البناء، في منطقة الشواء. كانوا في ثياب السباحة آنذاك، أيضًا. قال هارلي إن السويدي لديه صدر كالثور وإنهم كانوا يأكلون الهوت دوغ ويشربون الويسكي، وقال إنهم كانوا سكارى.

كان يوم السبت، والساعة تجاوزت الحادية عشرة ليلًا. كان هارلي نائمًا على الكرسي. وكان عليّ أن أستيقظ وأطفئ التلفاز. حين فعلتُ هذا، عرفتُ أنه سيستيقظ. "لماذا تطفئينه؟ كنت أشاهد ذلك العرض". هذا ما سيقوله. هذا ما يقوله دومًا. على أي حال، كان التلفاز مُدارًا، وكنت أضع لفّافات الشعر، والمجلة في حضني. بين فينة وأخرى أنظر إلى الأعلى. ولكنّي لم أستطع التركيز على العرض. كانوا جميعًا هناك في منطقة البركة: سبدس ولندا كوب، كوني نوفا وذو الشعر الطويل، هوليتس وبيتي. من الممنوع أن يتواجد أي شخص هناك بعد العاشرة. ولكن في تلك الليلة لم يكترثوا بالقواعد. إذا استيقظ هارلي، سيخرج ويقول شيئًا ما. ظننت أنه لا بأس بأن يتسلّوا، ولكن حان وقت توقّف هذا. نهضتُ وذهبت إلى النافذة. كانوا جميعًا يرتدون مايوهات السباحة باستثناء بيتي. كانت ما تزال في بزتها. ولكنها خلعت حذاءها، وثمة كأس في يدها، وشربت مع بقيتهم. واصلتُ تأجيل إطفاء الجهاز. صاح أحدهم شيئًا ما، وتلقاه شخص آخر وبدأ يضحك. نظرتُ فرأيتُ هولتيس ينهي مشروبه. وضع الكأس على المصطبة. ثم سار إلى الكبين. جرّ إحدى الطاولات وتسلّق عليها. ثم بدا كأنه يفعل ذلك دون أي جهد مطلقًا صعد إلى سطح الكبين. وظننت أنه قويّ. كان ذو الشعر الطويل يصفّق بيديه، كما

لو أنه متحمّس لهذا والآخرون يصيحون كي يشجّعوا هوليتس، أيضًا. عرفت أنّي سأضطر للخروج وإيقاف الأمر.

استرخى هارلي على كرسيّه. التلفاز ما زال مُدارًا. أفتح الباب، أخرج، ثم أغلقه خلفي. هوليتس هو على سقف الكبين. إنهم يحرّضونه. يقولون: "تابع. تستطيع القيام بالأمر". "لا، لا تغص على بطنك الآن". "أتحداك إن كنت تستطيع فعل هذا". أمور من هذا القبيل.

ثم سمعت صوت بيتي. "هوليتس، فكّر بالذي تفعله". ولكن هوليتس وقف هناك على الحافة فحسب. نظر إلى الأسفل نحو الماء. بدا وكأنه يحذر كم سيجري كي ينجح في الوصول إلى هناك. رجع إلى الجانب الخلفي. بصق في راحة كفّه وحك يديه معًا. صاح سبدس: "هذه هي يا فتى! ستقوم بالأمر الآن".

رأيته يهوي على المصطبة. سمعته، أيضًا.

صاحت بيتي: "هوليتس!"

هرع الجميع إليه. في الوقت الذي وصلت فيه إلى هناك، كان جالسًا. كان ريك يحمله من كتفيه ويصرخ في وجهه: "هوليتس، إيه أيها الرجل".

هناك جرح بليغ في جبين هوليتس، وعيناه زجاجيتان. ساعده سبدس وريك في الجلوس على الكرسي. قدم له أحدهم منشفة. حمل هوليتس المنشفة وكأنه لا يعرف ماذا يجب أن يفعل بها. قدّم له شخص آخر كأس شراب. ولكنّ هوليتس لم يعرف ما الذي يفعله به، أيضًا. واصل الناس قول أشياء له. رفع هوليتس المنشفة إلى وجهه. ثم أزاحها ونظر إلى الدم. ولكنه نظر إليها فحسب. لم يبد كأنه فهم أي شيء.

"دعوني أراه". درت أمامه. إن الأمر سيء. "هل أنت بخير يا هوليتس؟" ولكنّ هوليتس نظر إليّ فحسب، ثم انحرفت عيناه. "قلتُ سيكون من

الأفضل له أن يذهب إلى غرفة العناية المشددة". نظرتْ إليّ بيتي حين قلتُ هذا وبدأت بهزّ رأسها. نظرت إلى هوليتس من جديد. قدمت له منشفة أخرى. اعتقدت أنها صاحية ولكن بقيتهم سكارى. إن كلمة سكارى هي أفضل ما يمكن أن يقال عنهم.

فهم سبدس ما قلته. "لنأخذه إلى غرفة العناية".

قال ريك: "سأذهب أيضًا".

قالت كوني نوفا: "سنذهب جميعنا".

قالت لندا كوب: "من الأفضل أن نكون معًا".

رددت اسمه مرة ثانية: "هوليتس".

"ما الذي يقوله؟" سألتني كوني نوفا.

قلت لها: "قال إنه لا يستطيع القيام بذلك".

"القيام بماذا؟ ما الذي يتحدث عنه؟" أراد ريك أن يعرف.

يقول سبدس: "كرّر ثانية. لم أسمع".

"قال إنه لا يستطيع القيام بذلك. لا أعتقد أنه يعرف ما الذي يتحدث عنه. من الأفضل أن نأخذه إلى المستشفى،" قلت. ثم تذكرت هارلي والقواعد. "كان يجب ألا تكونوا هنا في الخارج. أي منكم. لدينا قواعد. والآن تابعوا وخذوه إلى المستشفى".

"لنأخذه إلى المستشفى،" قال سبدس وكأن ذلك أمرٌ فكّر فيه لتوّه. ربما كان ثملًا أكثر منهم جميعًا ذلك أنه لم يستطع أن يقف هادئًا. كان يترنّح ويواصل رفع قدميه وإنزالهما ثانية. الشعر على صدره أبيض كالثلج تحت مصابيح المسبح العالية.

"سأحضر السيارة". هذا ما قاله ذو الشعر الطويل. "كوني، أعطني المفاتيح".

"لا أستطيع الذهاب إليها،" قال هوليتس. تحركت المنشفة إلى ذقنه. ولكنّ الجرح في جبينه.
"أحضروا له ذلك الرداء. لا يستطيع الذهاب إلى المستشفى هكذا". قالت لندا كوب هذا. "هوليتس! هوليتس! هذا نحن". انتظرت ثم أخذت كأس الويسكي من أصابع هوليتس وشربت منه.
رأيت أشخاصًا على بعض النوافذ، ينظرون إلى الأسفل نحو الضجة. أُضيئت المصابيح. صرخ أحدهم: "اذهبوا إلى النوم!"
أخيراً، أحضر ذو الشعر الطويل سيارة كوني الداتسون من خلف البناء وساقها إلى مكان قريب من المسبح. الأضواء الأمامية مشعّة. سرّع المحرك.
"كرمى للمسيح اذهبوا إلى النوم!" صرخ الشخص نفسه. جاء مزيد من الأشخاص إلى نوافذهم. توقّعتُ أن أشاهد هارلي يخرج في أية لحظة، مرتديًا قبّعته، وينطلق بسرعة. ثم فكّرت، كلا، سيكون نائمًا. انس هارلي فحسب.
وقف سبدس وكوني نوفا على كلا جانبي هوليتس. لا يستطيع هوليتس السير بشكل مستقيم. إنه يتهادى. أحد أسباب هذا هو أنه ثمل. ولكن ما من شك أنه آذى نفسه. أدخلاه إلى السيارة، واحتشدوا جميعًا في الداخل، أيضًا. كانت بيتي آخر من دخل. اضطرت إلى الجلوس في حضن أحدهم. ثم انطلقت السيارة. وذلك الذي كان يصرخ، مهما كانت هويته، أغلق نافذته.

لم يغادر هوليتس المكان طيلة الأسبوع التالي. واعتقدتُ أن بيتي تركت عملها، لأنّي لم أرها تعبر عند النافذة بعد ذلك. حين رأيت الطفلين يمرّان، خطوت إلى الخارج وسألتهما، بصراحة: "كيف حال والدكما؟"

قال أحدهما: "لقد تأذى رأسه".
انتظرتُ آملًا أن يقولا المزيد. ولكنهما لم يفعلا. يهزّان كتفيهما ويذهبان إلى المدرسة مع علب غدائهما ودفاترهما. فيما بعد، تأسّفت أنّي لم أسأل عن زوجة أبيهما.
حين رأيت هوليتس في الخارج واضعًا الضمادة وواقفًا على شرفته، لم يومئ لي. تصرف كما لو أنّي غريبة. بدا الأمر وكأنه لا يعرفني أو لا يريد أن يعرفني. قال هارلي إنه يتلقى المعالجة نفسها. وهو لا يحبّها. "ماذا جرى له؟" أراد هارلي أن يعرف. "السويدي الملعون. ماذا حدث لرأسه؟ لكمه أحدهم أم ماذا؟" لم أخبر هارلي أي شيء حين قال هذا. لا أتدخل في الأمر مطلقًا.
ثم في أصيل ذلك الأحد رأيت أحد الولدين يحمل صندوقًا ويضعه في السيارة. يصعد الدرج. ولكنه يرجع في الحال مع صندوق آخر، ويضعه أيضًا. عندئذ عرفتُ أنهم يستعدون للرحيل. ولكنّي لم أقل ما أعرفه لهارلي. سيعرف كل شيء في الحال.
في الصباح التالي، أرسلت بيتي أحد الأطفال إلى الأسفل. كان معه رسالة تقول إنها آسفة لأنهم يجب أن يرحلوا. أرسلت لي عنوان أختها في إنديو حيث نستطيع أن نرسل المبلغ المودع كما قالت. أشارت إلى أنهم راحلون قبل ثمانية أيام من انتهاء مُدّة أجارهم. وتأمل إن كان يمكن إرجاع بعض النقود، على الرغم من أنهم لم يقدموا إشعار الثلاثين يومًا. قالت: "شكرًا لكل شيء. شكرًا لمعالجة شعري تلك المرة". الرسالة موقعة: "المخلصة، بيتي هوليتس".
سألت الولد: "ما اسمك؟"
"بيلي".

"بيلي، أخبرها أنّي آسفة جدًّا".

قرأ هارلي ما كتبته وقال إنه سيكون يومًا باردًا في الجحيم قبل أن يروا أية نقود تعود من فولتون تيراس. قال إنه لا يستطيع فهم هؤلاء الناس. "الناس الذين يبحرون عبر الحياة كما لو أن العالم مدين لهم بحياة". سألني إلى أين هم ذاهبون. ولكنّي لم أحمل أية فكرة إلى أين هم ذاهبون. ربما سيعودون إلى مينيسوتا. كيف أعرف إلى أين هم ذاهبون؟ لا أظن أنهم سيعودون إلى مينيسوتا. أعتقد أنهم ذاهبون إلى مكان آخر كي يجربوا حظّهم.

كانت كوني نوفا وسبدس على كرسيهما في المكانين المعتادين على طرفيْ المسبح. بين فينة وأخرى، ينظران إلى ولدي هوليتس يحملان الأغراض إلى السيارة. ثم يخرج هوليتس حاملًا على ذراعه بعض الملابس. كوني نوفا وسبدس يصيحان ويلوّحان. ينظر إليهما هوليتس كأنه لا يعرفهما. ولكنه يرفع عندئذ يده الفارغة. يرفعها فحسب، هذا كلّ شيء. يلوّحان. ثم يلوّح هوليتس. يتابع التلويح لهما حتى بعد أن يتوقّفا. نزلت بيتي إلى الأسفل ولمست ذراعه. لم تلوّح. لا تريد حتى أن تنظر إلى هؤلاء الأشخاص. قالت شيئًا ما لهوليتس، وذهب إلى السيارة. استندت كوني نوفا إلى الخلف على كرسيّها ومدت يدها كي تطفئ مذياعها المحمول. أمسك سبدس نظارته الشمسية وراقب هوليتس وبيتي لوهلة. ثم ثبت النظارة على أذنيه. استقر على كرسي الاسترخاء وعاد إلى تشميس جسده الذي كالجلد القديم.

أخيراً، حمّلوا كل شيء وكانوا مستعدين للرحيل. الولدان في الخلف، هوليتس خلف عجلة القيادة، بيتي على المقعد إلى يمينه. بدوا كما كانوا حين أتوا إلى هنا.

سأل هارلي: "إلى ماذا تنظرين؟"
كان يستريح. يجلس على كرسيه ويشاهد التلفاز. لكنه نهض وأتى إلى النافذة.
"حسناً، إنهم ذاهبون. لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون أو ماذا هم فاعلون. سويديون مجانين".
راقبتهم وهم ينطلقون خارج موقف السيارات وينعطفون على الطريق الذي سيأخذهم إلى الطريق السريع. ثم نظرتُ إلى هارلي ثانية. كان يجلس على كرسيه، يحمل علبة الصودا الخاصة به، ويعتمر قبعته القشّية. تصرف كما لو أنه لم يحدث أيّ شيء أو سيحدث أيّ شيء.
"هارلي؟"
ولكن، بالطبع، لم يستطع أن يسمعني. ذهبت ووقفتُ أمام كرسيّه. كان متفاجئًا. لا يعرف ما الذي يفعله حيال هذا. اتكأ إلى الخلف، جلس هناك فقط ونظر إليّ.
بدأ الهاتف بالرنين.
قال: "ردّي عليه؟"
لم أجبه. لماذا أفعل؟
قال: "إذًا دعيه يرنّ".
ذهبت كي أعثر على الممسحة وبعض الأسمال، وبعض المماسح، وسطل. توقف الهاتف عن الرنين. ما زال يجلس على كرسيّه. ولكنه أطفأ التلفاز. أخذت المفتاح الخاص، وصعدتُ إلى الطابق العلوي، إلى الشقة 17. دخلتُ وسرتُ عبر غرفة الجلوس إلى المطبخ، ما كان مطبخهم.
كانت الطاولات ممسوحة، والمغسلة والخزانة نظيفة. ليس هذا سيئًا. تركت عدة التنظيف على الموقد وذهبت كي ألقي نظرة على الحمام. لا

شيء هناك يستعصي على قطعة ألمنيوم صغيرة. ثم فتحت باب غرفة النوم التي تطل على المسبح. الستائر مزاحة، السرير مكشوف. الأرضية تلمع. ""شكرًا،" قلت بصوت مرتفع. تمنيتُ لها الحظ الجيد أينما ذهبت. "حظًا جيّدًا يا بيتي". كان أحد أدراج المكتب مفتوحًا فذهبت لإغلاقه. في زاوية من الدرج رأيتُ اللجام الذي كان يحمله حين جاء في البداية. لا بد أنهم نسوه بسبب عجلتهم. وربما لم ينسوه. ربما تركه الرجل لهدف ما. "لجام،" قلت. حملته أمام النافذة ونظرتُ إليه في الضوء. ليس خياليًّا، إنه مجرد لجام جلدي قديم أسود. لا أعرف الكثير عن اللُّجم. ولكنّي أعرف ذلك الجزء منه الذي يُطبق على الفم. ذلك الجزء يُدعى الشكيمة. وهو مصنوع من الفولاذ. الأرسان تُركّب على الرأس ثم تُرفع إلى الأعلى إلى حيث تمسك بها الأصابع وتشدّ على العنق. يشدّ الخيّال الأرسان إلى هذه الجهة فيستدير الحصان. هذا بسيط. إن الشكيمة ثقيلة وباردة. إذا اضطررت أن تلبسها بين أسنانك، أظنّ أنك ستصل بسرعة. حين تشعر بها تشدّ، ستعرف أنه حان الوقت. ستعرف أنك ذاهب إلى مكان ما.

كاتدرائية

كان الرجل الأعمى، الصديق القديم لزوجتي، في طريقه كي يمضي الليلة معنا. تُوفّيت زوجته، وكان في زيارة لأقرباء زوجته في كونيكتيكت. اتصل بزوجتي من بيت أقربائه وتمت الترتيبات. سيأتي بالقطار، وستستغرق الرحلة خمس ساعات، وستنتظره زوجتي في المحطة. لم تره منذ أن عملت له في صيف أحد الأعوام في سياتل منذ عشر سنوات. ولكنها بقيت على صلة مع الرجل الأعمى. كانا يسجّلان الأشرطة ويتبادلانها بالبريد. لم أكن متحمّسًا حيال زيارته. لم يكن شخصًا أعرفه. وكونه أعمى أزعجني. ذلك أن فكرتي عن العميان جاءت من الأفلام. ففي الأفلام يتحرك العميان ببطء ولا يضحكون أبدًا، أحيانًا تقودهم كلاب، ولم يكن وجود شخص أعمى في منزلي شيئًا أتطلع إليه.

كانت في حاجة إلى وظيفة ذلك الصيف في سياتل بسبب إفلاسها. وكان الرجل الذي ستتزوّجه في نهاية الصيف في كلية تدريب الضباط ومفلسًا أيضًا. كانت تحبه ويحبها، إلخ. رأت إعلانًا في الصحيفة: مطلوب مساعدة، القراءة لرجل أعمى، ورقم هاتف. اتصلت وذهبت، تم توظيفها أثناء المقابلة. عملت مع الأعمى طيلة الصيف. قرأت له موادَّ وأبحاثًا وتقاريرَ وأمورًا من هذا النوع. ساعدته في تنظيم مكتبه الصغير في قسم

الخدمات الاجتماعية في المقاطعة. انعقدت أواصر صداقة جيدة بين زوجتي والرجل الأعمى. كيف أعرف هذه الأمور؟ لقد أخبرتني. وأخبرتني شيئًا آخر. في آخر يوم لها في المكتب، طلب منها الرجل الأعمى إن كان يستطيع أن يلمس وجهها. وافقت على ذلك. قالت إنّ أصابعه لمست جميع أجزاء وجهها: أنفها، وحتى عنقها! لم تنس هذا أبدًا. حاولت أن تؤلف قصيدة عن الأمر. تحاول دومًا أن تؤلف قصيدة. تؤلف قصيدة أو اثنتين كلّ عام، وعادة بعد أن يحدث لها شيء مهم جدًا.

حين بدأنا نخرج معًا لأول مرة، أطلعتني على القصيدة. وفي القصيدة، ذكرتْ أصابعه والطريقة التي تحركت بها فوق وجهها. تحدثت فيها عما شعرتْ به آنذاك، عما خطر في ذهنها حين لمس الرجل الأعمى أنفها وعنقها. أستطيع أن أتذكر أنّي لم أفكّر كثيرًا في القصيدة. بالطبع، لم أقل لها هذا. ربما لا أفهم الشّعر فحسب. وأعترف أنه ليس الشيء الأول الذي أختاره حين أمدّ يدي كي ألتقط شيئًا للقراءة.

على أي حال، إن الرجل الذي استمتع في البداية بأعمال المعروف التي قدّمتْها له، مشروع الضابط، كان حبيبها في أيام الطفولة. وهكذا لا بأس. قلتُ إنه في نهاية الصيف تركت الرجل الأعمى يمرر يديه على وجهها، ودّعتهُ، وتزوّجت حبيب الطفولة، إلخ، الذي صار الآن ضابط صف، وانتقلت بعيدًا عن سياتل. ولكنهما حافظا على اتصالهما، هي والرجل الأعمى. قامت بالاتصال الأول بعد سنة أو ما يقارب ذلك. اتصلت به في إحدى الليالي من قاعدة للقوات الجوية في ألاباما. أرادت أن تتحدث. تحدثا. طلب منها أن تُرسل له شريطًا وتخبره فيه عن حياتها. فعلت ذلك. أرسلت الشريط. وفي الشريط أخبرت الرجل الأعمى عن زوجها وعن حياتهما معًا في الجيش. أخبرت الرجل الأعمى أنها تحب زوجها ولكنها

لا تحب حيث يعيشان ولا تحب كونه جزءًا من الصناعة العسكرية. أخبرت الأعمى أنها ألّفتْ قصيدة وذكرتهُ فيها. قالت له إنها كتبت قصيدة عن شعورها كزوجة ضابط في القوات الجوية. لم تنته القصيدة بعد، لا تزال تعمل عليها. أعدّ الضرير شريطًا وأرسله إليها. أعدّتْ شريطًا. استمر هذا لسنوات. ونُقلَ ضابط زوجتي من قاعدة إلى أخرى. وأرسلت أشرطة من مودي إي ف بي، مغواير، مكونيل، وأخيرًا ترافيس، قرب ساكرمنتو، حيث في إحدى الليالي شعرت بالوحدة وانقطعت عن الناس الذين واصلت فقدانهم في الحياة القائمة على التنقّل. شعرتْ أنها لا تستطيع أن تتقدم خطوة أخرى. دخلت وابتلعت جميع الحبوب والكبسولات في صندوق الأدوية وشربت فوقها زجاجة من الجن. ثم جلست في حوض ماء ساخن وفقدت وعيها.

ولكن بدلًا من أن تموت، مرضت. تقيّأت. جاء ضابطها، لماذا يجب أن يكون له اسم؟ كان حبيب الطفولة، وما الذي يريده أكثر؟ إلى المنزل من مكان ما، عثر عليها، واتصل بسيارة الإسعاف. وفي الوقت المناسب، سجلت كل هذا في الشريط وأرسلته إلى الرجل الأعمى. ومع مرور الأعوام، سجلّت جميع أنواع القصص في أشرطة وأرسلت الأشرطة دون تأخير. وبالإضافة إلى تأليف قصيدة كل عام، أعتقد أن هذه كانت وسيلتها الرئيسية في قضاء وقت فراغها. وفي أحد الأشرطة قالت للرجل الأعمى إنها قررت أن تعيش بعيدًا عن ضابطها لبعض الوقت. وفي شريط آخر أخبرته عن طلاقها. وبدأتُ أنا وهي بالخروج معًا، وبالطبع أخبرتْ رجلها الأعمى عن الأمر. أخبرتْهُ كلَّ شيء، كما تبين لي. ومرة سألتْني إن كنتُ أودّ أن أسمع آخر شريط من الرجل الأعمى. حدث هذا منذ عام. كنت مذكورًا في الشريط، كما قالت. وهكذا وافقتُ على الإصغاء إليه. أحضرتْ

لنا مشروبات وجلسنا في غرفة الجلوس. استعددنا للإصغاء. أولًا أدخلت الشريط في جهاز التسجيل وعدّلت مفتاحين، ثم دفعت مقبضًا. صرّ الشريط وبدأ أحدهم بالحديث بصوت مرتفع. خفضت الصوت. بعد بضع دقائق من الثرثرة غير المؤذية، سمعتُ الغريب يتفوه باسمي، الرجل الأعمى الذي لا أعرفه! ثم هذا: "من كلّ ما قلتيه حوله، أستطيع أن أستنتج فحسب". ولكن قاطعنا قرع على الباب، شيء ما، ولم نعد أبدًا إلى ذلك الشريط. ربما كان عادلًا أيضًا. لقد سمعتُ كل ما أردتُ سماعه. والآن هذا الرجل الأعمى نفسه قادم كي ينام في منزلي.

"ربما أستطيع أن آخذه كي نلعب البولنغ،" قلتُ لزوجتي. كانت على المغسلة تعدّ فطائر البطاطا. وضعت السكين التي تستخدمها واستدارت. قالت: "إذا كنتَ تحبّني بوسعك أن تفعل هذا من أجلي. إذا كنت لا تحبني، لا بأس. ولكن إن كان لك صديق، أي صديق، وجاء الصديق للزيارة، سأجعله يشعر بالارتياح". مسحت يديها بمنشفة الصحون. قلت: "ليس لدي أي أصدقاء عميان".

قالت: "ليس لديك أي أصدقاء. نقطة. فضلًا عن ذلك، لقد توفيت زوجته لتوّها! ألا تفهم هذا؟ لقد فقد الرجل زوجته!"

لم أجبها. أخبرتني القليل عن زوجة الرجل الأعمى. كان اسمها بيولاه. بيولاه! هذا اسم امرأة ملوّنة.

سألتها: "هل كانت زوجته زنجية؟"

قالت زوجتي: "هل أنت مجنون؟ هل فقدت عقلك أو حدث لك شيء ما؟" التقطت حبة بطاطا. رأيتها تصطدم بالأرض، ثم تتدحرج تحت الموقد. أضافت: "ما مشكتك؟ هل أنت سكران؟"

قلت: "أنا أسأل فحسب".

عندئذ زوّدتني زوجتي بالمزيد من التفاصيل أكثر مما حرصتُ على معرفته. صببتُ كأسًا وجلستُ إلى طاولة المطبخ كي أصغي. وبدأتْ تفاصيل القصة تتركّب.

ذهبت بيولاه كي تعمل للرجل الأعمى في الصيف بعد أن تركت زوجتي العمل لديه. في الحال رتّب الرجل الأعمى وبيولاه زفافًا في الكنيسة. كان زفافًا صغيرًا، فمن يرغب في الذهاب إلى زفاف كهذا في المقام الأول؟ هما فحسب، والكاهن وزوجة الكاهن. ولكنه كان زفافَ كنيسة حقيقيًّا وهذا ما أرادتْه بيولاه، كما قال. تبيّن فيما بعد أن بيولاه مصابة بسرطان الغدد. بعد أن بقيا معًا غير قابلين للفصل مدة ثماني سنوات تدهورت صحة بيولاه بسرعة. ماتت في غرفة في مستشفى في سياتل، والرجل الأعمى يجلس قرب السرير ويمسك بيدها. تزوّجا، عاشا وعملا معًا، ناما معًا، وأكيد أنهما مارسا الجنس ثم كان على الرجل الأعمى أن يدفنها. وكل هذا دون أن يرى كيف كانت تبدو تلك المرأة الملعونة من الله. لم أستطع فهم المسألة. بعد أن سمعتُ هذا، شعرت بالأسف على الرجل الأعمى قليلًا. ثم وجدتُ نفسي أفكّر أية حياة مثيرة للشفقة عاشتْها تلك المرأة. تخيّلوا امرأة لا تستطيع أن ترى نفسها أبدًا كما شوهدتْ في عيني حبيبها. امرأة تستطيع أن تستمر يومًا بعد يوم ولا تتلقى أبدًا أدنى إطراء من حبيبها. امرأة زوجها لم يستطع أن يقرأ أبدًا التعبير على وجهها، سواء أكان البؤس أم شيئًا أفضل. أن تضع المساحيق أم لا، ما الفرق بالنسبة إليه؟ كانت تستطيع، لو أرادت، أن تضع ظل العين الأخضر حول إحدى عينيها، ودبوسًا مستقيمًا في منخرها، بنطالًا أصفر وحذاء أرجوانيًّا، لا يهم. ثم أن تموت، ويد الرجل الأعمى على يدها، والدموع تتدفق من عينيه العمياوين! أتخيّل الآن أن فكرتها الأخيرة ربما كانت هذه: أنه لم

يعرف قط كيف كانت تبدو، وهي في قطار سريع إلى القبر. تُرك روبيرت مع بوليصة تأمين صغيرة ونصف عشرين بيزوس. ذهب النصف الآخر من القطعة النقدية معها في التابوت. هذا مثير للأسى.

وهكذا حين مرّ الوقت، ذهبت زوجتي إلى محطة القطار كي تحضره. ولم يكن هناك شيء أفعله سوى الانتظار. وأكيد أنّي لُمْته، ومن أجل هذا كنت أتناول كأسًا من الشراب وأشاهد التلفاز حين سمعت سيارة تركن في المدخل الخاص. نهضتُ عن الأريكة حاملًا كأسي وذهبت إلى النافذة كي ألقي نظرة.

رأيتُ زوجتي تضحك وهي تركن السيارة. رأيتها تخرج من السيارة وتغلق الباب. كانت لا تزال تبتسم. هذا مذهل فحسب. دارت إلى الجهة الأخرى من السيارة إلى حيث كان الرجل الأعمى يبدأ بالخروج. هذا الرجل الأعمى، تخيّلوا ذلك، كانت له لحية كاملة! لحية رجل أعمى! هذا كثير. مدّ الرجل الأعمى يده إلى المقعد الخلفي وسحب حقيبة. أمسكتْ زوجتي ذراعه، أغلقتْ باب السيارة، وقادتْه وهي تتحدث طيلة الطريق إلى المدخل الخاص ثم إلى الدرجات المؤدية إلى المدخل الأمامي. أطفأت التلفاز. أنهيتُ كأسي، غسلتُ الكأس، نشّفتُ يديّ. ثم ذهبتُ إلى الباب.

قالت زوجتي: "أريدك أن تلتقي بروبرت. روبرت، هذا زوجي. أخبرتك كل شيء عنه". كانت تتوهج وهي تمسك الرجل الأعمى من كمّ معطفه.

ترك الرجل الأعمى حقيبته ورفع يده. صافحته. ضغط بشدّة، أمسك يدي، ثم تركها.

قال: "أشعر وكأننا التقينا سابقًا".

"لدي الشعور نفسه،" قلت. لم أعرف ماذا أقول غير هذا. ثم قلت: "أهلًا بك. لقد سمعتُ الكثير عنك". بدأنا نتحرك عندئذ، كمجموعة

صغيرة، من المدخل الأمامي إلى غرفة الجلوس، وزوجتي تقوده من ذراعه. كان الرجل الأعمى يحمل حقيبته في يده الأخرى. قالت زوجتي أمورًا مثل: "إلى يسارك هنا، يا روبرت. هذا صحيح. والآن احترس، هناك كرسي. هذه هي. اجلس هنا تمامًا. هذه هي الأريكة. لقد اشتريناها منذ أسبوعين".

خطر لي أن أقول شيئًا ما عن الأريكة القديمة. فقد أحببتُها. ولكنّي لم أقل أي شيء. ثم رغبتُ في قول شيء آخر، القيام بحديث قصير، حول الرحلة الجميلة على طول نهر الهدسون. كيف الذهاب إلى نيويورك، يجب أن تجلس على الجانب الأيمن من القطار، وحين تأتي يجب أن تجلس على الجانب الأيسر.

قلت: "هل كانت رحلتك في القطار جيدة؟ في أي جانب من القطار جلست، بالمناسبة؟"

قالت زوجتي: "ما هذا السؤال؟ أي جانب؟ ما الذي يهم أي جانب؟"

قلت: "سألته فحسب".

أجاب الرجل الأعمى: "جلستُ في الجانب الأيمن. لم أركب القطار منذ أربعين سنة. ليس منذ أن كنت فتى. مع أهلي. كان هذا منذ زمن طويل. نسيت تقريبًا الإحساس. لقد طالت لحيتي. هكذا قيل لي، على أي حال. هل أبدو مميزًا، يا عزيزتي؟" سأل الرجل الأعمى زوجتي.

قالت: "تبدو مميّزًا يا روبرت". قالت: "روبرت، روبرت سُررتُ برؤيتك".

أخيرًا أزاحت زوجتي عينيها عن الرجل الأعمى ونظرتْ إليّ. انتابني شعور بأنها لم تحب ما رأته. هززتُ كتفيّ.

لم ألتق قط بأي شخص أعمى. كان هذا الرجل الأعمى في أواخر الأربعينات من عمره، كبير البنية، أصلع بكتفين محنيين، كأنه يحمل وزنًا كبيرًا. يرتدي بنطالًا بنيًّا، وحذاء بنيًّا، وقميصًا بنيًّا فاتحًا، وربطة

عنق، ومعطفًا رياضيًا. كان أنيقًا. له أيضًا تلك اللحية الكاملة. لا يستخدم عصا ولا يرتدي نظارة سوداء. اعتقدت دومًا أن النظارة السوداء ضرورية للعميان. والحقيقة هي أنّي تمنيت لو أنه يرتدي نظارة. لدى النظرة الأولى بدت عيناه كعيني أي شخص. ولكن إذا أمعنتَ النظر، هناك شيء مختلف فيهما: الكثير من البياض في القزحيّة ويبدو البؤبؤان وكأنهما يدوران في التجويفين دون معرفة منه أو قدرة على إيقافهما. هذا مخيف. وحين حدّقتُ في وجهه، رأيتُ البؤبؤ الأيمن يميل نحو أنفه بينما بذل الآخر جهدًا كي يبقى في مكان واحد. ولكن كان فقط جهدًا، ذلك أن تلك العين كانت تطوف دون أن تعرف أو تريد ذلك.

قلت: "سأحضر لك شرابًا. ماذا تفضّل؟ لدينا القليل من كلّ شيء. إنها إحدى تسلياتنا".

"صديقي، أنا رجل ويسكي،" قال بسرعة كافية بصوته الضخم.

قلت: "حسنًا،" صديقي! "بالتأكيد أعرف ما تريد".

ترك أصابعه تلمس حقيبته، التي تتوضّع إلى جانب الأريكة. كان يحدد الاتجاهات الخاصة به. لم ألُمْهُ من أجل ذلك.

قالت زوجتي: "سأنقل هذه إلى غرفتك".

قال الرجل الأعمى بصوت مرتفع: "كلا. هذا جيد. يمكن أن تصعد حين أصعد".

قلت: "هل تريد القليل من الماء مع الويسكي؟"

قال: "القليل جداً".

قلت: "عرفت ذلك".

قال: "فقط كمية قليلة جدًا. هل تعرف الممثل الإيرلندي باري فتزجرالد؟ أنا مثله. قال فتزجرالد: حين أشرب الماء، أشرب الماء. وحين أشرب

الويسكي، أشرب الويسكي". ضحكت زوجتي. رفع الرجل الأعمى يده إلى تحت ذقنه. رفع لحيته ببطء ثم تركها تسقط.

أعددتُ الكؤوس، ثلاثة كؤوس كبيرة من الويسكي مع رشة ماء في كلّ منها. ثم استرخينا وتحدثنا عن أسفار روبرت، أولًا الرحلة الطويلة بالطائرة من الساحل الغربي إلى كونيكتيكت، ثم من كونيكتيكت إلى هنا بالقطار. تناولنا كأسًا آخر ونحن نتحدث عن تلك الرحلة.

تذكرتُ أنّي قرأت في مكان ما أن العميان لا يدخّنون لأنهم لا يرون الدخان الذي يخرجونه. اعتقدت أنّي كنت أعرف الكثير وذلك الكثير هو عن العميان فقط، ولكنّ هذا الأعمى دخّن سيجارته إلى عقبها ثم أشعل أخرى. ملأ هذا الرجل الأعمى منفضته وأفرغتها زوجتي.

حين جلسنا إلى الطاولة لتناول العشاء، تناولنا كأسًا آخر. ملأت زوجتي صحن روبرت بشرائح لحم البقر المكعبة، وفطائر البطاطا والفاصولياء الخضراء. وضعت الزبدة له على قطعتين من الخبز. قلت: "هذا خبز وزبدة لك". ابتلعتُ بعض شرابي. "لنصلّ الآن،" قلت، وأخفض الرجل الأعمى رأسه. نظرت زوجتي إليّ، وفمها فاغر. قلت: "نصلّي ألا يرنّ الهاتف ولا يبرد الخبز".

أكلنا. أكلنا كلّ ما كان على الطاولة. أكلنا كما لو أنه لا يوجد غد. لم نتحدث. أكلنا. أكلنا وشربنا. رعيْنا الطاولة. أكلنا بنهم. وقد حدّد الرجل الأعمى طعامه مباشرة، عرف أين كلّ شيء في صحنه. راقبته بإعجاب وهو يستخدم السكين والشوكة لتناول اللحم. يقطع قطعتين من اللحم، يضع اللحم في فمه بالشوكة، ثم يتناول البطاطا، ثم الفاصولياء بعد ذلك، ثم يمزّق قطعة من الخبز المحتوي على الزبدة ويأكلها. يتبع هذا بجرعة حليب كبيرة. لم يبد أن استخدام أصابعه أحيانًا يزعجه.

أنهينا كلّ شيء، بما فيه نصف فطيرة من الفريز. لبضع لحظات، جلسنا كما لو أننا مذهولون. تجمّعت حبات العرق على وجوهنا. أخيراً، نهضنا عن الطاولة وتركنا الصحون المتّسخة. لم ننظر إلى الخلف. حملنا أنفسنا إلى غرفة الجلوس وغصنا في أمكنتنا مرة أخرى. جلس روبرت وزوجتي على الأريكة. جلست على الكرسي الكبير. تناولنا كأسين أو ثلاثة أيضًا بينما كانا يتحدثان عن محطّات مهمّة حدثت لهما في السنوات العشر الماضية. أصغيتُ معظم الوقت فحسب. وكنت أشارك بين فترة وأخرى. لم أرده أن يفكّر أنّي أشعر بأنّي مهجور. تحدثا عن أمور جرت لهما خلال السنوات العشر الماضية. انتظرتُ عبثًا كي أسمع اسمي على شفتي زوجتي العذبتين: "ثم دخل زوجي العزيز في حياتي" شيء من هذا القبيل. ولكنّي لم أسمع شيئًا من هذا النوع. المزيد من الحديث عن روبرت. فعل روبرت القليل من كلّ شيء، على ما يبدو، أعمّى منظم يقوم بجميع أنواع الأعمال. ولكن مؤخرًا امتلك هو وزوجته شبكة أمواي للتوزيع والتي كان يكسبان منها، كما خمّنت، رزقهما. تحدث بصوته المرتفع عن الأحاديث التي أجراها مع زملاء عاملين في غوام والفلبين وألاسكا وحتى في تاهيتي. قال إن له الكثير من الأصدقاء هناك لو أراد أن يزور تلك الأمكنة. وبين فينة وأخرى، كان يدير وجهه الأعمى نحوي، يضع يده تحت لحيته، يسألني شيئًا ما. كم أمضيتُ في منصبي الحالي؟ (ثلاث سنوات). هل أحببت عملي؟ (كلا). هل سأبقى فيه؟ (ما الخيارات؟). أخيرًا، حين اعتقدت أنه بدأ يتعب، نهضت وأشعلت التلفاز.

نظرتُ إليّ زوجتي باستياء. كانت تتجه نحو شجار. ثم نظرت إلى الرجل الأعمى وقالت: "هل لديك تلفاز يا روبرت؟"

قال الأعمى: "يا عزيزتي، لدي جهازان. لدي جهاز ملوّن وآخر أبيض

وأسود، قطعة قديمة. هذا مضحك، ولكن إذا شغّلت التلفاز، وأنا أشغّله دومًا، أشغّل الملوّن. هذا مضحك، أليس كذلك؟"
لم أعرف ماذا أقول حيال هذا. لم يكن لديّ إطلاقًا أي شيء أقوله. وهكذا شاهدت برنامج الأخبار وحاولت أن أصغي لما يقوله المذيع.
"هذا تلفاز ملوّن،" قال الرجل الأعمى. "لا تسألني كيف، ولكنّي أعرف".
"اشتريناه منذ فترة،" قلت.
تناول الرجل الأعمى رشفة أخرى من كأسه. رفع لحيته وشمّها ثم تركها تسقط. مال إلى الأمام على الأريكة. وضع منفضته على المنضدة ثم وضع الولاعة على سيجارته. اتكأ إلى الخلف على الأريكة ورفع ساقًا فوق أخرى عند الكاحل.
غطت زوجتي فمها ثم تثاءبت. تمددت. قالت: "سأصعد وأرتدي ردائي. سأبدل ثيابي. روبرت، خذ راحتك".
قال الرجل الأعمى: "أنا مرتاح".
"أريدك أن تشعر بالراحة في هذا المنزل،" قالت.
قال الرجل الأعمى: "أنا مرتاح".

بعد أن غادرتْ الغرفة، أصغيتُ معه إلى التقرير الإخباري عن الرياضة. في ذلك الوقت غابت طويلًا فلم أعرف إن كانت ستعود. اعتقدتُ أنها نامت. تمنيت لو أنها تعود، لأنّي لا أُريد أن أُترك وحيدًا مع رجل أعمى. سألته إن كان يريد كأسًا آخر فوافق. ثم سألته إن كان يريد تدخين بعض الماريجوانا معي. قلت إنّي لففت لتوّي عددًا منها. لم أفعل، لكنّي خططت أن أفعل هذا في ثوان.
قال: "سأجرب بعضها معك".

قلت: "هذا هو الصواب. هذا هو الشيء الحقيقي".
أحضرتُ الكأسين وجلست معه على الأريكة. ثم لففت لنا اثنتين سميكتين. أشعلت واحدة وأعطيتها له. قرّبْتُها إلى أصابعه. أخذها واستنشقها.
"أمسكها قدر ما تستطيع،" قلت. كان واضحًا أنه لا يعرف الشيء الأول.
عادت زوجتي ترتدي روبها وشبشبها القرنفليين.
قالت: "ماذا أشمّ؟"
قلت: "ارتأيت أن ندخّن بعض الماريجوانا".
رمقتْني زوجتي بنظرة متوحّشة. ثم نظرتْ إلى الرجل الأعمى وقالت: "روبرت، لم أعرف أنك تدخن".
قال: "أفعل الآن يا عزيزتي. هناك مرة أولى لكلّ شيء. ولكنّي لا أشعر بأي شيء حتى الآن".
قلت: "إن هذا النوع خفيف. إنها ماريجوانا تستطيع أن تفكّر معها. إنها لا تسبب لك الدوار".
قال وضحك: "لا تفعل الكثير، يا صديقي".
جلست زوجتي على الأريكة بين الرجل الأعمى وبيني. قدمتُ لها واحدة. أخذتْها ودخنتْ ثم أعادتها إليّ. قالت: "دور من الآن؟" ثم قالت: "يجب ألا أدخن هذا. بالكاد أستطيع أن أبقي عينيّ مفتوحتين. لقد أتعبني العشاء. كان يجب ألا أفرط في الأكل".
قال الرجل الأعمى: "السبب هو فطيرة الفريز. هذا ما فعل بك هذا،" وضحك ضحكة كبيرة. ثم هزّ رأسه.
قلت: "هناك المزيد من فطيرة الفريز".
قالت زوجتي: "هل تريد بعضًا منها يا روبرت؟"

قال: "ربما بعد قليل".
ركّزنا على التلفاز. تثاءبت زوجتي مرة أخرى. قالت: "إن سريرك معدّ متى شعرت بالحاجة إلى النوم يا روبرت. أعرف أن يومك كان طويلاً. حين تكون مستعدًا للذهاب إلى السرير، قل هذا". شدّت ذراعه: "روبرت؟"
انتبه وقال: "لقد أمضيتُ وقتًا رائعًا. إن هذا يهزم الأشرطة، أليس كذلك؟"
قلت: "قادمة إليك،" ووضعتُ السيجارة بين أصابعه. استنشق، احتفظ بالدخان، ثم أطلقه. بدا وكأنه كان يفعل ذلك منذ أن كان في التاسعة من عمره.
قال: "شكرًا يا صديقي. ولكنّي أعتقد أنّي اكتفيت. أعتقد أنّي بدأت أشعر بتأثيرها". قدم السيجارة المُشتعلة لزوجتي.
قالت: "الأمر نفسه بالنسبة إلي. الأمر نفسه. أنا أيضًا". أخذت السيجارة ومرّرتْها إليّ. قالت: "يمكن أن أجلس هنا وهلة بينكما وعيناي مغمضتان. ولكن لا أريد أن أزعجكما، اتفقنا؟ أي منكما. إذا كان هذا يزعجكما فعبّرا عن الأمر. بخلاف ذلك، يمكن أن أجلس هنا فحسب وعيناي مغمضتان إلى أن تكونا مستعدين للذهاب إلى السرير. إن سريرك جاهز يا روبرت حين تكون جاهزًا. إنه تمامًا إلى جانب غرفتنا في قمة الدرج. سنأخذك إلى هناك حين تكون مستعدًا. أيقظاني إذا نمت". قالت هذا ثم أغمضت عينيها ونامت.
انتهى برنامج الأخبار. نهضت وغيّرت القناة. جلستُ على الأريكة. تمنيت لو أن زوجتي لم تظهر. كان رأسها يستلقي على ظهر الأريكة، وفمها مفتوح. استدارت فانزلق روبها عن ساقيها كاشفًا عن فخذ ريّان. مددت يدي كي أرفع روبها، وآنذاك نظرتُ إلى الرجل الأعمى. يا للجحيم! تركت

الرداء مفتوحًا مرة ثانية.
قلت: "أخبرني إذا رغبت بالمزيد من فطيرة الفريز".
قال: "سأخبرك".
قلت: "هل تعبت؟ هل تريدني أن آخذك إلى سريرك؟ هل أنت مستعد للنوم؟"
قال: "ليس بعد. كلا، سأبقى معك يا صديقي. إذا كان هذا يناسبك. سأبقى إلى أن تكون مستعدًا للنوم. لم يكن لدينا فرصة للحديث. أتعرف ما أعنيه؟ أشعر أننا احتكرنا المساء دونك". رفع لحيته وتركها تسقط. التقط سجائره وولاّعته.
قلت: "لا بأس في هذا". ثم قلت: "أنا سعيد بالرفقة".
وأظن أنّي كنت سعيدًا. كل ليلة كنت أدخن الماريجوانا وأسهر قدر ما أستطيع قبل أن أنام. نادرًا ما ذهبتُ أنا وزوجتي إلى السرير في الوقت نفسه. حين أذهب إلى السرير أرى تلك الأحلام. أحيانًا أستيقظ من أحدها خائفًا.
كان هناك شيء ما في التلفزيون عن الكنيسة والعصور الوسطى. لم يكن عرضًا مميّزًا. أردتُ أن أشاهد شيئًا آخر. قلبت في قنوات أخرى. ولكن لم يكن فيها شيء أيضًا. وهكذا عدت إلى القناة الأولى واعتذرت.
قال الرجل الأعمى: "لا بأس يا صديقي. لا بأس بالنسبة إلي. أي شيء تريد أن تشاهده أنا موافق عليه. دومًا أتعلّم شيئًا ما. إن التعلّم لا ينتهي أبدًا. لن يؤذيني تعلّم شيء ما الليلة. لدي أذنان".

لم نقل أيّ شيء لبعض الوقت. كان ينحني إلى الأمام ورأسه مدار إليّ، وأذنه اليمنى باتجاه التلفاز. أزعجني هذا. بين فترة وأخرى كان جفناه

يرتخيان ثم يرتفعان ثانية. وبين فترة وأخرى يضع أصابعه على لحيته ويربت كما لو أنه يفكّر في شيء ما يسمعه من التلفاز.
على الشاشة، مجموعة من الرجال الذي يرتدون القلنسوات يهاجمهم ويعذّبهم رجال يرتدون أزياء هياكل عظمية ورجال يلبسون كالشياطين. الرجال الذين يلبسون كالشياطين يرتدون أقنعة شياطين، وقرونًا وأذيالًا طويلة. المشهد العام جزء من موكب. قال الرجل الإنجليزي الذي يروي الحدث إنه يحدث في أسبانيا مرة كلّ عام. حاولتُ أن أشرح للرجل الأعمى ما يجري.
قال: "الهياكل العظمية. أعرف عن الهياكل العظمية". ثم هزّ رأسه.
أظهر التلفاز تلك الكاتدرائية. ثم صورة بطيئة لواحدة أخرى. أخيرًا، انتقلت الصورة إلى تلك المشهورة في باريس، بدعائمها الطائرة وأبراجها المستدقة التي تصل إلى السحاب. انسحبت الكاميرا بعيدًا كي تُظهر الكاتدرائية كلّها ترتفع فوق خطّ السماء.
هناك أوقات يصمت فيها الإنجليزي الذي يروي الحدث، ويترك الكاميرا ببساطة تتحرك فوق الكاتدرائيات. أو تتجول الكاميرا في الريف، وتظهر رجالًا في الحقول يسيرون خلف الثيران. انتظرتُ قدر ما أستطيع. ثم شعرتُ أنه عليّ أن أقول شيئًا ما. قلت: "إنهم يعرضون الجزء الخارجيّ من الكاتدرائية الآن. التماثيل الناتئة الصغيرة المنحوتة كي تبدو كوحوش. والآن أعتقد أنهم في إيطاليا. هناك لوحات على جدران هذه الكنيسة".
سألني وهو يحتسي من شرابه: "هل هذه لوحات جصّية يا صديقي؟"
مددتُ يدي إلى كأسي. لكنه كان فارغًا. حاولت أن أتذكر ما أستطيع تذكره. "أنت تسألني هل هذه لوحات جصّية؟" قلت. "هذا سؤال جيد. لا أعرف".

انتقلت الكاميرا إلى الكاتدرائية التي خارج لشبونة. إن الاختلافات بين الكاتدرائيّات البرتغالية والفرنسية والإيطالية ليست كبيرة جدًا. لكنها موجودة. وهي اختلافات في المادة الداخلية في معظمها. ثم خطر لي شيء فقلت: "خطر لي شيء ما. هل تملك أية فكرة ما هي الكاتدرائية؟ كيف تبدو؟ هل تتابعني؟ إذا قال أحدهم كاتدرائية لك، هل تملك أية فكرة ما الذي يخبرك به؟ هل تعرف الفرق بين هذه وكنيسة معمدانية، مثلاً؟" ترك الدخان يخرج من فمه. قال: "أعرف أن مئات العمال قضوا خمسين أو مئة سنة في بنائها. سمعتُ لتوي الرجل يقول هذا، بالطبع. أعرف أجيالًا من العائلات عملت في الكاتدرائيات. سمعته يقول هذا أيضًا. إن الرجال الذين بدأوا عمل حياتهم فيها لم يعيشوا كي يشاهدوا اكتمال عملهم. هل هذا عقلاني يا صديقي، إنهم لا يختلفون عن بقيتنا، أليس كذلك؟" ضحك. ثم ارتخى جفناه ثانية. هزّ رأسه. بدا وكأنه يغفو. ربما كان يتخيّل نفسه في البرتغال. التلفاز يعرض كاتدرائية أخرى الآن، في ألمانيا. أزّ صوت الرجل الإنجليزي. "كاتدرائيات،" قال الرجل الأعمى. جلس وأدار رأسه إلى الخلف والأمام. "إذا أردت الحقيقة، يا صديقي، هذا كل ما أعرفه. ما قلته لتوي. ما سمعتهُ يقوله. ولكن ربما تستطيع أن تصف واحدة لي؟ أتمنى لو تفعل. سأحب هذا. إذا أردت أن تعرف، في الواقع لا أمتلك فكرة جيدة".

حدّقت بحدة إلى صورة الكاتدرائية على التلفاز. كيف أستطيع البدء بالوصف؟ ولكن لنقل إن حياتي تعتمد على هذا. لنقل إن حياتي تعرضت لتهديد من مجنون أمرني أن أفعل هذا أو سيفعل شيئًا آخر.

أمعنتُ النظر أكثر إلى الكاتدرائية قبل أن تنتقل الصورة إلى الريف. لم تكن هناك فائدة. التفتُّ إلى الأعمى وقلت: "في البداية، إنها طويلة جدًّا".

كنت أنظر في الغرفة بحثًا عن أدلة. "ترتفع عاليًا. عاليًا وعاليًا، نحو السماء. بعضها كبير، يجب أن يكون لها تلك الدعامات كي تسندها. إن هذه الدعامات تُدعى الأكتاف. تذكرني بالجسور، لسبب ما. ولكن ربما لا تعرف الجسور أيضاً؟ أحيانًا يكون للكاتدرائيات شياطين منحوتة على واجهتها. أحيانًا لوردات وسيدات. لا تسألني عن السبب،" قلت.

كان يهزّ رأسه. وبدا أن الجزء الأعلى من جسمه كله يتحرك جيئة وذهابًا.

قلت: "أنا لا أجيد الوصف، أليس كذلك؟"

توقف عن هزّ رأسه وانحنيت إلى الأمام على حافة الأريكة. حين أصغى إليّ كان يمرر أصابعه في لحيته. لم يفهم ما قلته، استطعت أن أستشف هذا. ولكنه انتظرني كي أواصل بالطريقة نفسها. هزّ رأسه، كما لو أنه يحاول أن يشجّعني. حاولت أن أفكر بماذا أقول أيضًا. قلت: "إنها في الواقع كبيرة، عملاقة. مبنية من الأحجار، ومن الرخام أيضًا، أحيانًا. في تلك الأيام القديمة، حين كانوا يبنون الكاتدرائيات، أراد الرجال أن يكونوا قريبين من الله. في تلك الأيام القديمة كان الله جزءًا مهمًا من حياة أي شخص. بوسعك أن تستنتج ذلك من بنائهم للكاتدرائيات."

قلت: "أنا آسف، ولكن يبدو أن هذا أفضل ما أستطيع فعله. لست جيدًا في هذا فحسب".

قال الأعمى: "لا بأس بهذا يا صديقي. استمعْ. آمل ألا يزعجك سؤالي. هل أستطيع أن أسألك شيئاً؟ دعني أسألك سؤالًا بسيطًا، نعم أو لا. أنا فقط فضولي وما من إهانة. أنت مضيفي. ولكن دعني أسألك إن كنت متديّنًا بأية طريقة؟ هل يزعجك سؤالي؟"

هززتُ رأسي. لم يستطع أن يرى هذا. إن رفة العين هي نفسها مثل هزة الرأس بالنسبة للأعمى. "أعتقد أنّي لا أؤمن به. بأي شيء. أحيانًا هذا

صعب. تعرف ما أقوله؟"
قال: "بالتأكيد أعرف".
"حسنًا،" قلت.
كان الرجل الإنجليزي لا يزال يتحدث. تنهدت زوجتي في نومها. سحبت نفسًا طويلًا وواصلت نومها.
قلت: "عليك أن تسامحني. لكنّي لا أستطيع أن أخبرك كيف تبدو الكاتدرائية. لا أمتلك معلومات عن الموضوع. لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت".
جلس الرجل الأعمى بهدوء تام، ورأسه إلى الأسفل، فيما كان يصغي إليّ.
قلت: "إن الحقيقة هي أن الكاتدرائيات لا تعني أي شيء خاص بالنسبة إلي. لا شيء. كاتدرائيات. إنها شيء للنظر إليه في ليلة متأخرة على التلفاز. هذا كل شيء".
عندها تنحنح الأعمى. أخرج شيئًا ما. أخرج منديلًا من جيبه الخلفي. ثم قال: "أفهم يا صديقي. لا بأس بهذا. هذا يحدث. لا تقلق من ذلك. استمعْ إليّ. هل ستعمل لي معروفًا؟ خطرت لي فكرة. لماذا لا تعثر لنا على ورقة ثقيلة؟ وقلم حبر. سنفعل شيئًا. هيا يا صديقي، أحضرهما".
وهكذا صعدت إلى الطابق الثاني. شعرتُ أن ساقيّ لا تملكان أية قوة فيهما. شعرت كما أشعر بعد أن أقوم ببعض الجري. عثرت في غرفة زوجتي على بعض الأقلام في سلة صغيرة على طاولتها. ثم خطر لي أين أبحث عن نوع الورق الذي تحدث عنه.
في الأسفل، في المطبخ، عثرت على كيس تسوّق ونفضْتهُ. أحضرته إلى غرفة الجلوس وجلست واضعًا إياه قرب ساقيه. نقلت بعض الأشياء، مسّدتُ الكيس، وفرشتهُ على المنضدة.

نزل الأعمى عن الأريكة وجلس قربي على السجادة.
مرر إصبعه على الورق. صعد إلى أعلى وأسفل أطراف الورقة. الحواف، حتى الحواف. لمس الزوايا بأصابعه.
قال: "حسنًا. لنقم بالأمر".
عثر على يدي، اليد التي تحمل القلم. أطبق يده فوق يدي. قال: "ارسمْ يا صديقي. ارسم، سأتابع معك. سينجح الأمر. ابدأ الآن فحسب كما أقول لك. ارسم. سترى،" قال الأعمى.
وهكذا بدأت. رسمتُ أولًا علبة بدت كمنزل. يمكن أن تكون المنزل الذي أعيش فيه. ثم سقفتُه. ورسمت على طرفيه دعائم. جنون.
قال: "ممتاز. رائع. أنت تقوم بعمل رائع. لم تفكر أبدًا أن شيئًا كهذا يمكن أن يحدث في حياتك يا صديقي؟ حسنًا، إنها حياة غريبة، جميعنا نعرف هذا. تابع الآن. واظب".
رسمت نوافذ بأقواس. رسمت دعائم طائرة، أبوابًا كبيرة. لم أستطع التوقف. انقطع بث المحطة. وضعت القلم وفتحت أصابعي. تحسس الأعمى الورقة. حرك رؤوس أصابعه فوق الورقة، فوق كل ما رسمته وهزّ رأسه".
قال الرجل الأعمى: "رائع".
أخذت القلم ثانية، وعثر على يدي. تابعت الأمر. لست فنانًا. ولكنّي واصلت الأمر نفسه.
فتحت زوجتي عينيها وحدقت إلينا. جلست على الأريكة، رداؤها مفتوح.
قالت: "ماذا تفعلان؟ أخبرني، أريد أن أعرف".
لم أجبها.
قال الأعمى: "نرسم كاتدرائية. أنا وهو نعمل عليها. اضغط بشدة،"

قال لي: "هذا صحيح. هذا جيد. قمت بالأمر يا صديقي. لم تكن تعتقد أنك تستطيع، أليس كذلك؟ ولكنك تستطيع، أليس كذلك؟ أنت تقوم بالعمل بشكل صحيح تمامًا. تعرف ما أقوله؟ في الواقع سنحصل لأنفسنا على شيء هنا في لحظة." سأل: "كيف هو الحصن القديم؟ ضع بعض الناس فيه الآن. ما نفع الكاتدرائية دون ناس؟"

قالت زوجتي: "ماذا يجري؟ روبرت، ماذا تفعل؟ ما الذي يحدث؟"

قال لها: "كل شيء جيد. أغمضْ عينيك الآن،" قال لي الرجل الأعمى.

أغمضتهما. كما طلب.

قال: "هل هما مغمضتان؟ لا تغشّ".

قلت: "إنهما مغمضتان".

قال: "أبقهما هكذا. لا تتوقف الآن. ارسم".

وهكذا تابعنا الأمر. ركبتُ أصابعه على أصابعي فيما يدي واصلت على الورقة. كان شيئًا مختلفًا عن كل ما مررت فيه خلال حياتي حتى الآن. ثم قال: "أعتقد هذا هو الأمر. أعتقد أنك فعلتها. ألق نظرة. ما رأيك؟"

ولكن عيني كانتا مغمضتين. وفكرت أن أبقيهما هكذا لفترة أطول. اعتقدت أنّي يجب أن أفعل ذلك.

قال: "حسنًا؟ هل أنت تنظر؟"

كانت عيناي ما زالتا مغمضتين. كنتُ في منزلي. عرفت هذا. ولكنّي لم أشعر أنّي داخل أي شيء.

قلت: "أجل حصلنا على الشيء، شيء مهم في الحقيقة".

المؤلف

ريموند كارفر قاصّ وشاعر أمريكي وُلدَ في أوريغن عام 1938. ترشّحت أوّل مجموعة قصصية له (Will You Please Be Quiet, Please) لجائزة (National Book Award) عام 1977، ثمّ أتبعها بمجموعة (عمّ نتحدّث حين نتحدّث عن الحب) و(كاتدرائيّة) التي ترشّحت لجائزة (Pulitzer Prize) عام 1984. وأخيرًا (Where I'm Calling From) عام 1988 حين وُهب بعدها الدكتوراه الفخريّة من قِبَل أكاديميّة الفنون والرسائل الأمريكيّة. كتب أيضًا مجموعات شعريّة، أنهى آخرها بعنوان (A New Path to the Waterfall) قبل وفاته مباشرة عام 1988 جرّاء إصابته بالسّرطان.

المترجم

أسامة إسبر، شاعر وصحفي ومترجم سوري وُلد عام 1963 . يعمل محرراً في مجلة «جدلية» وموقع «تدوين للنشر». صدرت له مجاميع شعريّة وقصصيّة من بينها «شاشات التاريخ» و«مقهى المنتحرين». ترجم من الإنكليزية إلى العربية كتبًا من بينها «الفناء الإسمنتي» للآيان مكيوان، و«الكتب في حياتي» لهنري ميلر، و«نشأة النظام الأبوي» لغيردا ليرنر، و«توقيعه على الأشياء كلّها» لإليزابيث جلبرت، وأخرى كثيرة. يُقيم حاليًّا في أمريكا.

كاتدرائيّة

«والداه ما زالا حيّين، وإخوته وشقيقاته في وضع جيد، وانطلق أصدقاؤه في الكلية كي يحتلوا أمكنتهم في العالم. كان حتى الآن بمنأى عن أي أذى، عن تلك القوى التي يعرف أنها موجودة، التي تستطيع أن تشلّ الرجل أو تسقطه إذا بات حظّه سيّئًا، إذا انقلبت الأشياء على نحو مفاجئ».

نال كارفر اعتراف النقاد كأحد المعلمين العظام في فنّ القصة القصيرة في الأدب الأمريكي المعاصر. وهو في أسلوبه المميّز الواقعي المقتصد ينتمي إلى قمم شامخة في الأدب كمثل أنطون تشيخوف، وشروود أندرسون وإرنست همنغواي. يُمكن تلخيص فلسفته في القصّ بهذه المقولة: من الممكن أن نكتب عن الأشياء المألوفة مستخدمين لغة عادية لكنها دقيقة، وأن نهب هذه الأشياء كرسيًّا، ستارة، نافذة، شوكة، حجرًا، حلق امرأة، قوّة هائلة ومذهلة. من الممكن كتابة سطر من حوار يبدو ظاهريًّا غير مؤذ، وجعله يسبّب القشعريرة في العمود الفقري للقارئ؛ إن التركيز على أوضاع الحياة الواقعية النابضة يقف في تغايرٍ مع الأسلوب المابعد حداثوي، الخرافي والميتاقصصي لكثير من معاصري كارفر، من أمثال دونالد بارثيلم وروبرت كروفر. فهو يكتب عن الناس العاديين، الذين يشقّون طريقهم في الحياة، ويصارعون ليكسبوا رزقهم ويعثروا على صلات ذات معنى مع الآخرين.

«من بين أفضل كُتّاب القصة القصيرة على مرّ العصور»

The Guardian

«أنجز كارفر ما يُخفق في إنجازه كثيرٌ من الأدباء: لقد ابتكر بلادًا له وحده...»

The New York Times

«كثيرٌ من الكُتّاب هم محطّ تقدير، واحترام، واحتفاء أحيانًا. لكن قليلًا منهم، ومن بينهم كارفر، محبوبون...»

New York Review of Books

Cover design by Buchanan-Smith LLC
Cover photograph © Todd Hido / Edge Reps

ISBN 978-9948-39-064-0

9 789948 390640

روايات
REWAYAT